خلافة الطائع لله

هو أبو بكر عبد الكريم بن المطيع لله الفضل بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر، وأمه أم
ولد اسمها عتب. وهو الخليفة الرابع والعشرون من الخلفاء العباسيين، وبويع له في يوم
الأربعاء لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي القعدة سنة ثلاث وستين وثلاثمائة، وسنة يوم ذلك
ثمان وأربعون سنة، ولم يل الخلافة أكبر منه سناً من بني العباسي، ولم يتقلد الخلافة من له
أب حتى بعد أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه غيره!.

الحوادث في أيام خلافته

في هذه السنة خطب للمعز صاحب مصر بمكة والمدينة. وفي سنة أربع وستين وثلاثمائة
استولى عضد الدولة على العراق وقبض على بختيار، ثم عاد بختيار إلى ملكه على ما
نذكره إن شاء الله تعالى.

وفي سنة خمس وستين وثلاثمائة توفي المعز لدين الله صاحب مصر، وقام بعده ابنه العزيز.

وفي سنة ست وستين وثلاثمائة توفي ركن الدولة بن بويه، وملك ابنه عضد الدولة وفيها كان
ابتداء الدولة الغزنوية وأول من ملك منهم بغزنة سبكتكين، وسنذكر أخباره في دولتهم إن
شاء الله تعالى.

وفيها في جمادى الأولى نقلت ابنة عز الدولة بختيار إلى الطائع لله، وكان قد تزوجها.

وفي سنة سبع وستين وثلاثمائة استولى عضد الدولة على العراق وأخرج بختيار عنه ثم
قتله، على ما نذكره إن شاء الله تعالى في أخبارهم.

وفي سنة تسع وستين وثلاثمائة تزوج الطائع ابنة عضد الدولة، وكان عضد الدولة قد زوجه
بها، وقال: لعلها تلد منه ولداً ذكراً فنجعله ولي عهد فتكون الخلافة في ولدهم! وكان
الصداق مائة ألف دينار، وزفت إليه في سنة سبعين وكان معها من الجواهر والجهاز ما لا
يحصى.

وفي سنة اثنتين وسبعين وثلاثمائة توفي عضد الدولة بن بويه وولي صمصام الدولة ولده.

وفي سنة خمس وسبعين وثلاثمائة خرج طائر من البحر بعمان وهو أكبر من الفيل، ووقف
على تل هناك وصاح بصوت عالٍ ولسان فصيح: قد قرب قد قرب قد قرب! ثلاثاً، ثم
غاص في البحر، فعل ذلك ثلاثة أيام ثم غاب ولم ير بعد ذلك.

وفي سنة ست وسبعين وثلاثمائة ملك شرف الدولة العراق، وقبض على أخيه صمصام
الدولة سلمه في سنةٍ تسع وسبعين، ومات شرف الدولة في السنة، وملك بعده أخوه بهاء
الدولة وله إخوة.

القبض على الطائع
وشيء من أخباره

وفي سنة إحدى وثمانين وثلاثمائة في يوم السبت لثمان من شعبان قبض بهاء الدولة بن بويه
على الخليفة الطائع لله، وكان سبب ذلك أن بهاء الدولة قلت عنده الأموال وكثر شغب
الجند عليه، فقبض على وزيره سابور فلم يغن عنه شيئاً. وكان أبو الحسن بن المعلم قد
غلب على بهاء الدولة وحكم في مملكته فحسن له القبض على الطائع وأطمعه في ماله،
وهون ذلك عليه وسهله. فأقدم عليه بهاء الدولة وأرسل إلى الطائع لله وسأله الإذن في
الحضور إليه ليجدد العهد بخدمته، فأذن له بذلك، وجلس له كما جرت العادة، فدخل بهاء
الدولة ومعه جمع كبير فلما دخل قبل الأرض. فأجلس على كرسي، فدخل بعض الديلم
كأنه يريد تقبيل يد الخليفة، فجذبه وأنزله عن سريره والخليفة يقول: إنا لله وإنا إليه راجعون،
ونهب الناس بعضهم بعضاً. وكان في جملتهم الشريف الرضي فبادر بالخروج فسلم وقال
أبياتاً من جملتها:

من بعد ما كان رب المال مبتسماً إلي أدنوه في النجوى ويدنيني
أمسيت أرحم من قد كنت أغبطه لقد تقارب بني العز والهوان
ومنظر كان بالسراء يضحكني يا قرب ما عاد بالضراء يبكيني
هيهات اعتز بالسلطان ثانية قد ضل ولاج أبواب السلاطين

قال: ولما حمل الطائع إلى دار بهاء الدولة أشهد عليه بالخلع، فكانت مدة خلافته سبع
عشرة سنة وتسع أشهر وثمانية أيام، وبقي في حبس القادر بالله إلى أن توفي في يوم الثلاثاء
سلخ شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة وصلى عليه القادر بالله في دار الخلافة وكبر
خمساً، وتحدث الناس في ذلك فقال: هكذا يصلى على الخلفاء! ودفن بالرصافة، ويقال: إن
القادر بالله شيع جنازته إليها ورثاه الشريف الرضي بقصيدته التي أولها:

ما بعد يومك ما يسلو به السالي   ومثل يومك لم يخطر على بالي
وكان مولده في سنة سبع عشرة وثلاثمائة، وكان أبيض مربوعاً حسن الجسم، وكان أنفه
كبيراً جداً، وكان شديد القوة كثير الإقدام، ولم يكن له من الحكم في ولايته ما يعرف به حاله
ويستدل على سيرته.

خلافة القادر بالله

هو أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي
أحمد بن الموفق، وأمه أم ولد اسمها دمنة وقيل تمنى، وهو الخليفة الخامس والعشرون من
الخلفاء العباسيين وبويع له في يوم خلع الطائع لثمان بقين من شعبان سنة إحدى وثمانين
وثلاثمائة وكان يوم ذاك بالبطيحة عند مهذب الدولة أميرها.

وكان سبب توجهه إليها أن إسحاق بن المقتدر والد القادر لما توفي جرى بين القادر وبين
أخيه منازعة في ضيعة، وطال الأمر بينهما. ثم إن الطائع لله مرض مرضاً شديداً أشفي
منه ثم أبل فسعت إليه بأخيها القادر وقالت: إنه شرع في طلب الخلافة عند مرضك!
فتغير رأيه فيه، وأنفذ أبا السحن ابن حاجب النعمان وغيره للقبض عليه وكان بالحريم
الطاهري، فأصعدوا في الماء إليه.

وكان القادر قد رأى في منامه كأن رجلاً يقرأ عليه.. "الذين قال لهم الناس إن الناس قد
جمعوا لكم فاخشوهم فزادهم إيماناً وقالوا حسبنا الله ونعم الوكيل" فهو يحكي هذا المنام
لأهله ويقول: أنا خائف من طلب يطلبني!

ووصل أصحاب الطائع لله وقبضوا عليه، فأراد لبس ثيابه فمنعوه ولم يمكنوه من مفارقتهم
، فأخذه النساء منهم قهراً وخرج من داره واستتر وذلك في سنة تسع وسبعين. ثم سار
إلى البطيحة فسار فنزل على مهذب الدولة، فأكرم نزله ووسع وبالغ في خدمته، ولم يزل عنده
حتى أفضي إليه الأمر فجعل علامته "حسبنا الله نعم الوكيل".

قال: ولما قبض على الطائع ذكر بهاء الدولة من يصلح للخلافة فاتفقوا على القادر بالله،
فأرسل بهاء الدولة خواص أصحابه ليحضروه إلى بغداد.

وشغب الجند والديلم ببغداد، ومنعوا من الخطبة له، فقيل على المنبر: اللهم أصلح عبدك
وخليفتك القادر بالله! ولم يذكر اسمه، ثم أرضاهم بهاء الدولة.

قال: ولما وصل الرسول إلى القادر بالله كان في تلك الساعة يحكي مناماً رآه في تلك الليلة
هو ما حكاه عبد الله بن عيسى كاتب مهذب الدولة قال: كنت أحضر عند القادر بالله
كل أسبوع مرتين، فكان يكرمني، فدخلت عليه يوم فوجدته قد تأهب لم تجر به عادته، ولم
أر منه ما ألفت من كرامته فاختلفت بي الظنون، فسألته عن سبب ذلك فإن كان لزلة مني
اعتذرت عن نفسي فقال: بل رأيت البارحة في منامي كأن نهركم هذا الصليق قد اتسع
فصار مثل دجلة دمغات على جانبه متعجباً منه، ورأيت عليه قنطرة عظيمة فقلت من قد
حدث نفسه بعمل هذه القنطرة على هذا البحر العظيم؟ ثم صعدتها - وهي محكمة -
فبينا أنا عليها أتعجب منها إذا رأيت شخصاً يتأملني من ذلك الجانب فقال: أتريد أن
تعبر؟ قلت: نعم، فمد يده حتى وصلت إلي فأخذني وعبر بي فهالني، وتعاظمني فعله،
فقلت: من أنت؟ قال: علي بن أبي طالب وهذا الأمر صائر إليك ويطول عمرك فيه
فأحسن إلى ولدي وشيعتي!
قال: فما انتهى القادر إلى هذا القول حتى سمعنا صياح الملاحين وغيرهم فسألنا عن ذلك
فإذا هم الواردون إليه لإصعاده ليتولى الخلافة، فخاطبته "يا أمير المؤمنين" وقال مهذب
الدولة بخدمته أحسن قيام، وحمل إليه من المال وغيره ما يحمله كبار الملوك إلى الخلفاء
وشيعه، فسار القادر إلى بغداد، فلما وصل جبل انحدر بهاء الدولة وأعيان الناس إليه
واستقبلوه وساروا في خدمته، فدخل دار الخلافة في ثاني عشر شهر رمضان وبايعه بهاء
الدولة والناس، وخطب له في ثالث عشر الشهر المذكور.
وجدد أمر الخلافة وعظم ناموسها وحمل إليه ما نهب من دار الخلافة، ولم يخطب له في
جميع خراسان بل كانت الخطبة فيها للطائع لله وحلف له بهاء الدولة على الطاعة والقيام
بشروط البيعة، وحلف القادر له بالوفاء والخلوص، وأشهد عليه أنه قلده ما وراء بابه.

تسليم الطائع
لله إلى القادر وما يفعله معه

وفي شهر رجب سنة اثنتين وثمانين وثلاثمائة سلم بهاء الدولة الطائع لله إلى الخليفة القادر

بالله، فأنزله في حجرةٍ من خاص حجره، ووكل به من ثقات خدمه من يقوم بخدمته وبالغ في
الإحسان إليه، وكان الطائع يطلب الزيادة في الخدمة كما كان أيام الخلافة فيؤمر له بذلك.
حكي عنه أن القادر أرسل إليه طبيباً فقال: من هذا يتطيب أبو العباس؟ يعني القادر
فقالوا: نعم! فقال: قولوا له عني: في الموضع الفلاني كندوج فيه طيب مما كنت أستعمله،
فليرسل إلى بعضه ويأخذ الباقي لنفسه! ففعل ذلك، وأرسل إليه القادر يوما عدسية فقال:
ما هذا؟ قالوا: عدس وسلق! فقال: أو قد أكل أبو العباس من هذا؟ قال: نعم! قال:
قولوا له عني: كلما أردت أن تأكل عدسية لم اختفيت فما كانت العدسية تعوزك، ولم تقلدت
هذا الأمر؟ فأمر حينئذ القادر أن تفرد له جارية من طباخاته تحضر له ما يلتمسه في كل
يوم، فأقام على هذا إلى أن توفي.
وفي سنة ثلاث وثمانين وثلاثمائة عقد نكاح القادر بالله على بنت بهاء الدولة على صداق
مبلغه مائة ألف دينار، وماتت قبل النقلة إليه.
وفيها اشتد الغلاء بالعراق وبيعت الكارة الدقيق بمائتين وستين درهماً، والكر الحنطة بستة
آلاف وستمائة درهم غياثية.
وفي سنة ست وثمانين وثلاثمائة توفي العزيز بالله صاحب مصر، وولي بعده ابنه الحاكم.
وفي سنة تسع وثمانين انقرضت الدولة السامانية وملك الترك ما وراء النهر.
وفيها عمل أهل باب البصرة ببغداد يوم السادس والعشرين من ذي الحجة زينة عظيمة
وفرحاً كثيراً، وعملوا في ثامن عشر المحرم مثل ما تعمل الشيعة في يوم عاشوراء. وسبب
ذلك أن الشيعة بالكرخ كانوا ينصبون القباب ويعلقون الثياب للزينة في اليوم الثامن عشر من
ذي الحجة، وهو يوم الغدير. وكانوا يعملون - يوم عاشوراء - المآثم والنوح، ويظهرون الحزن
لمقتل الحسين، فعلم أهل باب البصرة مقابل ذلك بعد يوم الغدير بثمانية أيام مثلهم وقالوا: يوم
دخول النبي صلى الله عليه وسلم وأبو بكر رضي الله تعالى عنه الغار! وعملوا بعد
عاشوراء بثمانية أيام مثل عمل الشيعة يوم عاشوراء وقالوا: هذا يوم قتل مصعب بن الزبير
رضي الله عنهما.

وفي سنة تسعين وثلاثمائة ظهر في سجستان معدن الذهب الأحمر.
البيعة لولي العهد
وفي شهر ربيع الأول سنة إحدى وتسعين وثلاثمائة أمر القادر بالله بالبيعة لولده أبي الفضل
بولاية العهد، ولقبه الغالب بالله. وكان سبب ذلك أن أبا عبد اله بن عثمان الواثقي من ولد
الواثق بالله كان من أهل نصيبين، فقصد بغداد ثم سار إلى خراسان وعبر النهر إلى هارون
بن أيلك بغراخان، وصحبه الفقيه أبو الفضل التميمي وأظهر أنه رسول من الخليفة إلى
هارون يأمره بالبيعة لهذا الواثقي وأنه ولي عهده. فأجاب بغراخان إلى ذلك وبايع له
وخطب له ببلاده، فبلغ ذلك القادر فعظم عليه وأرسل إلى بغراخان في معناه فلم يصغ إلى
رسالته. فملا توفي هارون وولي بعده أحمد بغراخان كاتبه الخليفة في معناه، فأمر بإبعاده
فحينئذ بايع القادر لولده، وأحضر حجاج خراسان وأعلمهم ذلك.
وأما الواثقي فإنه خرج من عند أحمد بغراخان وقصد بغداد فعرف بها، فطلب منها
فهرب إلى البصرة ثم إلى فارس وكرمان، ثم إلى بلاد الترك، فلم يتم له ما أراد، وأرسل
الخلفية إلى الملوك يطلبه فضاقت عليه الأرض، فسار إلى خوارزم فأقام بها ثم فارقها،
فأخذه يمين الدولة محمود بن سبكتكين فحبسه إلى أن مات.
وفي سنة إحدى وأربعمائة خطب قرواش بن المقلد أمير بني عقيل للحاكم العلوي صاحب
مصر بالكوفة والموصل والأنبار والمدائن وغيرها من أعماله ثم قطعت في السنة.
وفي سنة إحدى عشرة وأربعمائة مات الحاكم صاحب مصر وولي بعده ابنه الظاهر
لإعزاز دين الله.
وفي سنة اثنتي عشرة وأربعمائة توفي علي بن هلال المعروف بابن البواب، وإليه انتهى
الخط، ونقل عنه إلى وقتنا هذا، ودفن بجوار أحمد بن حنبل، وكان يقص بجامع بغداد،
وقيل إنه مات في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة ورثاه المرتضى.
الفتنة بمكة
وفي سنة أربع عشرة وأربعمائة في يوم النفر الأول وكان يوم الجمعة، قام رجل من أهل مصر
بإحدى يديه سيف مسلول والأخرى دبوس، بعد فراغ الإمام من الصلاة فقصد الحجر

الأسود فضربه ثلاث ضربات بالدبوس وقال: إلى متى يعبد الحجر الأسود ومحمد وعلي؟
فليمنعني مانع من هذا، فإني أريد هدم هذا البيت! فخاف أكثر من حضر وتراجعوا عنه
وكاد يفلت، فثار به رجل فضربه بخنجره فقتله، وقطعه الناس وأحرقوه، وقتل ممن اتهم
بمصاحبته جماعة وأحرقوا، وثارت الفتنة، وكان الظاهر من القتلى أكثر من عشرين رجلاً
غير ما أخفى منهم.
وألح الناس في ذلك اليوم على المغاربة والمصريين بالنهب والسلب، فلما كان الغد ماج الناس
واضطربوا وأخذوا أربعة من أصحاب ذلك الرجل فقالوا: نحن مائة رجل! فضربت أعناق
الأربعة. وتقشر بعض وجه الحجر من الضربات، فأخذ ذلك الفتات وعجن بلك وأعيد إلى
موضعه.
وفي سنة ثماني عشرة وأربعمائة سقط بالعراق جميعه برد كبار وزن الواحدة رطل
ورطلان، وأصغره كالبيضة، فأهلك الغلات ولم يصح منها إلى القليل، هكذا حكاه ابن
الأثير في تاريخه الكامل.
وفيها في آخر تشرين الثاني هبت ريح باردة بالعراق جمد منها الماء والخل، وبطل دوران
الدواليب التي على دجلة.
وفي سنة تسع عشرة وأربعمائة انقطع الحج من العراق، فمضى بعض حجاج خراسان إلى
كرمان وركبوا في البحر إلى جدة وحجوا!.
ذكر البيعة لولي العهد
كان القادر بالله قد جعل ولاية العهد لولده أبي الفضل كما قدمناه فمات فلما كان في سنة
إحدى وعشرين وأربعمائة مرض القادر وأرجف بموته، فجلس جلوساً عاماً وأذن للخاصة
والعامة فدخلوا عليه. فلما اجتمعوا قام الصاحب أبو الغنائم فقال: خدم مولانا أمير
المؤمنين داعون له بالبقاء وشاكرون لما بلغهم من نظره لهم وللمسلمين باختيار الأمير أبي
جعفر لولاية العهد! فقال القادر للناس: قد أذنا لكم في العهد له! وكان أراد أن يبايع له قبل
ذلك فنهاه عنه الحسن ابن حاجب النعمان، فلما عينه القادر الآن جلس على السرير الذي
كان قائماً عليه. وألقيت الستارة التي على القادر، فتقدم الحاضرون وخدموا ولي العهد

وهنئوه، وتقدم أبو الحسن ابن "حاجب النعمان فقبل يده وهنأه فقال له أبو جعفر: ورد الله
الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً وكفى الله المؤمنين القتال" يعرض له بإفساده رأي القادر
فيه فأكب على تقبيل قدميه وتعفير خده بين يديه، فقبل عذره. ودعي لأبي جعفر على
المنابر يوم الجمعة لست بقين من جمادى الأولى، ومات أبو الحسن ابن حاجب النعمان في
نفس السنة.
ملك الروم مدينة الرها
وفي سنة اثنتين وعشرين وأربعمائة ملك الروم مدينة الرها وكانت بيد نصير الدولة بن
مروان صاحب ديار بكر، ملكها من صاحبها عطير في سنة ست عشرة وأربعمائة ثم
مات عطير فشفع صالح بن مرادس صاحب حلب إلى نصير الدولة في إعادتها إلى ابن
عطير وإلى ابن شبل بينهما، فقبل شفاعته وسلمها إليهما. وكان في الرها برجان حصينان
أحدهما أكبر من الآخر فتسلم ابن عطير الكبير وابن شبل الصغير، وبقيت المدينة معهما
إلى هذه السنة. فراسل ابن عطير أرمانوس ملك الروم وباعه حصنه من الرها بعشرين ألف
دينار وعدة قرى من جملتها القرية التي عرفت بسن ابن عطير، وتسلموا البرج الذي له
ودخلوا البلد فملكوه وهرب منه أصحاب ابن شبل. وقتل الروم المسلمين، وخربوا
المساجد، فسمع نصير الدولة الخبر فسير جيشاً كثيفاً إلى الرها فحصرها وفتحها عنوة،
واعتصم من بها من الروم بالبرجين واحتمى النصارى بالبيعة التي لهم، فحصرهم المسلمون
بها وأخرجوهم وقتلوا أكثرهم ونهبوا البلد، وبقي الروم بالبرجين. فسير إليهم ملكهم
عسكراً نحو عشرة آلاف مقاتل، فانهزم أصحاب ابن مروان من بين أيديهم، ودخل الروم
البلد ونهبوا ما جاورهم من بلاد المسلمين وصالحهم ابن وثاب النميري على حران وسروج
وحمل إليهم خراجاً.
وفاة القادر بالله
وشيء من أخباره وسيرته
كانت وفاته رحمه الله في اليوم الحادي والعشرين من ذي الحجة سنة اثنتين وعشرين

وأربعمائة، وعمره ست وثمانون سنة وعشرة أشهر. وكانت مدة خلافته إحدى وأربعين
سنة وأربعة أشهر إلا أياماً. وكان حليماً كريماً خيراً يحب الخير وأهله ويأمر به، وينهى عن
الشر ويبغض أهله.و كان حسن الاعتقاد، وصنف كتاباً على مذهب السنة. وكان يخرج
من داره في زي العامة ويزور قبور الصالحين كقبر معروف الكرخي وغيره.
قال القاضي الحسين بن هارون: كان بالكرخ ملك ليتيم وكان له قيمة جيدة، فأرسل إلى
ابن حاجب النعمان - وهو حاجب القادر بالله - يأمرني أفك الحجر عنه ليشتري بعض
أصحابه ذلك الملك فلم أفعل فأرسل إلي يستدعيني فقلت لغلامه: تقدمني حتى ألحقك
وخفته وقصدت قبر معروف الكرخي فدعوت الله أن يكفيني شره وهناك شيخ فقال: على
من تدعو؟ فذكرت له الخبر ووصلت إلى الحاجب فأغلظ لي في القول ولم يقبل عذري، فأتاه
خادم برقعة ففتحها فقرأها فتغير لونه واعتذر إلي ثم قال: كتبت إلى الخليفة رقعة؟ قلت لا
وعلمت أن ذلك الشيخ كان الخليفة!
وقيل إنه كان يقسم إفطاره كل ليلة ثلاثة أقسام، فقسم يتركه بين يديه، وقسم يرسله إلى
جامع الرصافة، وقسم يرسله إلى جامع المدينة يفرقه على المقيمين فيهما. فاتفق أن الفراش
حمل الطعام ليلة إلى جامع المدينة ففرقه على الجماعة، فأخذوا إلا شاباً فإنه رده، فلما
صلوا المغرب خرج الشاب وتبعه الفراش فوقف على باب فاستطعم فأطعموه كسيرات
فأخذها وعاد إلى الجامع فقال له الفراش: ويحك أما تستحي.. ينفذ إليك الخليفة الله
بطعام حلال فترده وترجع فتأخذه من الأبواب؟ فقال: والله فلما احتجت طلبت! فعاد
الفراش وأخبر القادر بالله فبكى وقال له: راع مثل هذا واغتنم أجره وأقم إلى وقت
الإفطار.
ومناقبه كثيرة مشهورة وكان أبيض نقي الجسم كث اللحية طويلها يخضب. ودبر الملك في
أيامه بهاء الدولة إلى أن مات، ثم ابنه سلطان الدولة أبو شجاع إلى أن مات، ثم أخوه أبو
علي شرف الدولة إلى أن مات، ثم أخوه أبو طاهر جلال الدولة.

وكان القادر بالله من الأولاد أبو الفضل الغالب بالله مات في حياته، وأبو جعفر عبد الله
القائم، وأبو القاسم ومات في حياته أيضاً.
وزراؤه: محمد بن أحمد الشيرازي الصاحب، وسعيد بن نصر بن علي الفيروزابادي،
وسعيد بن الحسن بن برتك البصري، وعلي بن عبد العزيز ابن حاجب النعمان، ثم ابنه
أبو الفضل محمد بن علي.
حجابه: أبو الفتح محمد بن الحسين السعيدي، ثم أبو القاسم بكران، ثم ولده أبو منصور
وغيرهم، نقش خاتمه "لا إله إلا الله محمد رسول الله" وقيل "حسبي الله ونعم الوكيل"
خلافة القائم بأمر الله
هو أبو جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي العباس أحمد بن إسحاق ابن المقتدر بالله أبي
الفضل جعفر، وقد تقدم ذكر نسبه. وأمه أم ولد اسمها بدر الدجى، وقيل: قطر الندى
وقيل: علم، وكانت أرمنية وقيل: رومية. وهو الخليفة السادس والعشرون من الخلفاء
العباسيين، بويع له البيعة العامة بعد وفاة أبيه في الحادي والعشرين من ذي الحجة في سنة
اثنتين وعشرين وأربعمائة. وصلى بالناس عشاء المغرب في صحن السلام من دار الخلافة،
وكان أبوه قد بايع له بولاية العهد سنة إحدى وعشرين كما ذكرناه، وأول من بايعه الآن
الشريف أبو القاسم المرتضى، وأنشد:
فإما مضى جبل وانقضى فمنك لنا جبل قد رسى
وإما فجعنا ببدر التمام فقد بقيت منه شمس الضحى
فكم حزن في محل السرور وكم ضحك في خلال البكى
فيما صارماً أغمدته يد لنا بعدك الصارم المنتضى
وأرسل القائم بأمر الله قاضي القضاة أبا الحسن الماوردي إلى الملك أبي كاليجار ليأخذ
عليه البيعة،ويخطب له في بلاده، فأجاب وبايع وخطب له في بلاده، وأرسل إليه الهدايا
جليلة وأمواله كثيرة.
ذكر الحوادث في أيام القائم
في منتصف شعبان سنة سبع وعشرين وأربعمائة توفي الظاهر صاحب مصر، وولي بعده
ابنه المستنصر.
وفي سنة اثنتين وثلاثين وأربعمائة كان ابتداء الدولة السلجقية على ما نذكره إن شاء الله
تعالى في أخبارهم.

وفي ستة خمس وثلاثين وأربعمائة أظهر المعز بن باديس الدعوة للدولة العباسية، وخطب
ببلاده للخليفة القائم بأمر الله فسيرت إليه الخلع والتقليد.
وفي سنة إحدى وأربعين أربعمائة في ذي القعدة ارتفعت سحابة سوداء مظلمة ليلاً فزادت
ظلمتها على ظلمة الليل، وظهر في جوانب السماء كالنار المضطرمة، وهب ريح قلعت
روشن دار الخليفة، ثم انكشف ذلك في بقية الليل.
وفي سنة ثلاثٍ وأربعين وأربعمائة في يوم الأربعاء سابع صفر وقت العصر ظهر ببغداد
كوكب غلب نوره على نور الشمس له ذؤابة نحو ذراعين، وسار سيراً بطيئاً، ثم انقض
والناس يشاهدونه.
وفي سنة أربع وأربعين وأربعمائة زلزلت الأرض نحورستان وأرجان وغيرها زلازل كثيرة
كان معظمها بأرجان فخرب كثير من بلادها، وانفرج جبل كبير بالقرب من أرجان فانصدع
فظهر في وسطه درجة بالآجر والجص وقد خفيت في الجبل، فعجب الناس من ذلك!
وفي سنة سبع وأربعين وأربعمائة وصل طغرلبك السلجقي إلى بغداد وخطب له بها،
وانقرضت الدولة البويهية.
وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة تزوج الخليفة القائم بأمر الله بأرسلان خاتون واسمها
خديجة ابنة داود أخي السلطان طغرلبك، وقبل الخليفة النكاح لنفسه.
وفي سنة ثمان وأربعين وأربعمائة في العشر الثاني من جمادى الآخرة ظهر وقت السحر في
السماء ذؤابة بيضاء طولها نحو عشرة أذرع في رأي العين وعرضها ذراع، وبقيت كذلك إلى
نصف شهر رجب واضمحلت.
وفيها أمر الخليفة القائم بأمر الله أن يؤذن بالكرخ والمشهد وغيرهما الصلاة خير من النوم
وأن يتركوا حيي على خير العمل ففعلوا ذلك.
وفي سنة تسع وأربعين وأربعمائة اشتد الغلاء ببغداد والعراق حتى بيعت الكارة الدقيق
السميذ بثلاثة عشر ديناراً والكارة الشعير والذرة بثمانية دنانير، ومقدار الكارة وأكل الناس
الميتة والكلاب وغيرها وكثر الوباء، حتى عجز الناس عن دفن الموتى فكانوا يجعلون
الجماعة في الحفيرة.

وفيها كثر الوباء ببخارى حتى قيل: إنه مات في يوم واحد ثمانية عشر ألف إنسان من
أعمال بخارى، وهلك في هذه الولاية في مدة الوباء ألف ألف وستمائة ألف وخمسون ألفاً،
وكان بسمرقند مثل ذلك، ووجد ميت وقد دخل عليه تركي يأخذ لحافاً عليه فمات التركي
وطرف اللحاف بيده، وبقيت أموال الناس سائبة لا تجد من يجمعها!
أرسلان البساسيري
وابتداء حاله وما كان منه إلى أن تغلب على بغداد وقطع خطبة القائم بأمر الله وخَطَب
للمستنصر العلوي صاحب مصر كان أبو الحارث البساسيري مملوكاً تركياً من مماليك بهاء
الدولة بن عضد الدولة البويهي، وهو منسوب إلى مدينة بساسير من بلاد فارس، كان سيده
الأول منها فقيل له: البساسيري لذلك. وأما ما وَلِيه من المناصب التي ترقّى منها إلى أن
صار منه ما صار، فإنه ولِي في سنة خمس وعشرين وأربعمائة حماية الجانب الغربي ببغداد،
لأن العيارين كان قد اشتد أمرهم وعظم فسادُهم وعجز عنهم نواب السلطان فاستعمل
لكفاءته ونهضته وذلك في سلطنة جلال الدولة أبي طاهر بهاء الدولة في حروبه وأبلى بين
يديه بلاء حسناً، فعظم شأنه وارتفع محلّه وعلت رتبته وتقدّم على الجيوش، وكان بينه وبين
العرب الذين خالفوا جلال الدولة وخرجوا عن طاعته وكاشفوه بالعداوة حروب كان النصر
في أكثرها له، ثم صار يخلف الملك الرحيم ببغداد. واستولى على الأنبار في سنة إحدى
وأربعين وأربعمائة وملكها من قرواش بن المقلَّد، واستولى على الدار، وملكها من سعيد بن
أبي الشول. ولما استولى الملك الرحيم على البصرة في سنة أربع وأربعين وأربعمائة وأخذها
من أخيه أبي علي بن أبي كاليجار سلَّمها إلى البساسيري فنهض فيها وضبطها وأوقع
بالأكراد والأعراب في سنة خمس وأربعين وأربعمائة - وكانوا قد أفسدوا في البلاد - فقتل
منهم خلْقاً كثيراً وغنم أموالهم وأجلاهم عن البلاد. ثم أتى بغداد ووقع بينه وبين الخليفة
القائم بأمر الله وحشةٌ عظيمةٌ في سنة ست وأربعين وأربعمائة لأسباب يطول شرحها أدّت

إلى إسقاطه مشاهرات الخليفة ومشاهرات رئيس الرؤساء الوزير وحواشي الدار، ودام
ذلك من شهر رمضان إلى ذي الحجة! ثم سار إلى الأنبار فمنعه أبو الغنائم بن المحلبان من
دخولها فحاصرها ونصب عليها المجانيق، وفتحها عنْوةً ونهبها وأسر من أهلها خمسمائة
رجل ومائة من بني خفاجة وأُسر أبو الغنائم. وعاد إلى بغداد وهو بين يديه على جمل
وعليه قميصٌ أحمر وعلى رأسه برنس وهو مقيّد، وأتى إلى مقابل التاج وقبّل الأرض وعاد
إلى منزله وهو يجعل الذّنْب كله لرئيس الرؤساء وزير الخليفة - ويقول لست أشكو إلا منه
فإنه أخرب البلاد.
وكاتب السلجوقية وأطمعهم في البلاد، ثم توجه البساسيري إلى واسط، فلما كان في سنة
سبع وأربعين وضع رئيس الرؤساء الأتراك البغداديين على البساسيري وسلبه ونسب ما يقع
من النقص إليه، ففعلوا ذلك وزادوا عليه حتى حضروا إلى دار الخلافة في شهر رمضان
واستأذنوا في قصد دور البساسيري ونهبها فأذن لهم في ذلك، فنهبوا دوره وأحرقوها،
ووكلوا بنسائه وأهله ونوابه، ونهبوا دوابه وجميع ما يملكه ببغداد. وأطلق رئيس الرؤساء
لسانه في البساسيري وذمة ونسبه إلى مكاتبة المستنصر صاحب مصر، وأرسل الخليفة إلى
الملك الرحيم يأمره بإبعاد البساسيري فأبعده، وكانت هذه الحالة من أعظم الأسباب في
ملك السلطان طغرلبك العراق.
ووصل السلطان طغرلبك إلى بغداد إثر هذه الحادثة وملكها، وانقرضت الدولة البويهية،
فعند ذلك أظهر البساسيري الخلاف وجاهر بالعصيان، وانضم إليه نور الدولة دبيس بن
مزيد. التقوا هم وقريش بن بدران صاحب الموصل وكان مع قريش قتلمش السلجوقي -
وهو ابن عم طغرلبك - واقتتلوا فكانت الهزيمة على قريش وقتلمش، وكانت هذه الواقعة
عند سنجار في سنة ثمان وأربعين وأربعمائة. ثم صار قريش بن بدران مع البساسيري
ونور الدين دبيس، فساروا إلى الموصل وخطبوا بها للمستنصر بالله العلوي صاحب مصر
- وكانوا قد كاتبوه بطاعتهم فأرسل إليهم الخلع عن مصر - فلما بلغ ذلك السلطان طغرلبك

سار إلى الموصل وديار بكر لإخلائها من البساسيري وغيره من المفسدين، فاستولى على
الموصل وأعمالها وسلمها إلى أخيه إبراهيم ينال وعاد إلى بغداد في سنة تسع وأربعين
وأربعمائة فأقام بها إلى سنة خمسين وأربعمائة. ثم فارقها وتوجه نحو بلاد الجبل فعاد
البساسيري إلى الموصل واستولى عليها وحصر قلعتها أربعة أشهر، وملكها فهدمها وعفى
أثرها، وكان السلطان قد فرق عساكره فكتب إلى أخيه إبراهيم واستدعاه، فحضر إليه
إلى بلاد الجبل فسار أخيه إبراهيم واستدعاه، فحضر إليه إلى بلاد الجبل فسار السلطان
جريدة في ألفي فارس إلى الموصل فوجد البساسيري وقريش بن بدران قد فارقاها.
فسار إلى نصيبين ليتبع آثارهم ويخرجهم من البلاد، ففارقه أخوه إبراهيم ينال إلى همذان
فكاتبه البساسيري وأطمعه في السلطنة، فأظهر إبراهيم العصيان على السلطان طغرلبك
فسار طغرلبك إلى همذان في منتصف شهر رمضان سنة خمسين وأربعمائة، واشتغل بحرب
أخيه حتى ظفر به، ثم عرض له ما شغله عن العود إلى بغداد.

ذكر استيلاء أبي الحارث البساسيري على العراق
وخروج الخليفة القائم بأمر الله من بغداد
والخطبة للمستنصر بالله العلوي صاحب مصر وقطع الدعوة العباسية

قال: ولما اشتغل السلطان طغرلبك بحرب أخيه قصد البساسيري بغداد، فلما وصل إلى
هيت أمر الخليفة الناس بالعبور إلى الجانب الشرقي، وكان الأتراك كلهم قد التحقوا
بالسلطان إلى همذان.وكان الخليفة قد كتب إلى نور الدولة دبيس يأمره بالوصول إلى بغداد
فورد إليهم في مائة فارس، فلما قوي الإرجاف بوصول البساسيري أرسل دبيس بن مزيد
إلى الخليفة وإلى رئيس الرؤساء الوزير يقول: الرأي عندي خروجكما من البلد معي، فإنني
أجتمع أنا وهزارسب بواسط على دفع عدوكما. فأتاه الجواب أن يقيم حتى يقع الفكر في
ذلك، فقال: العرب لا تطيعني على المقام، وأنا أتقدم إلى ديالي فإذا انحدرتم سرت في
خدمتكم! وسار وأقام يديالي ينتظرهما فلم ير لذلك أثراً، فسار إلى بلده.

ثم وصل البساسيري إلى بغداد في يوم الأحد ثامن ذي القعدة ومعه أربعمائة غلام في غاية
الضر والفقر، فنزل مشرعة باب البصرة. وركب عميدُ العراق ومعه العسكر والعوام وأقاموا
بإزاء عسكر البساسيري وعادوا، وخطب البساسيري بجامع المنصور للمستنصر العلوي
صاحب مصر فأذن حي على خير العمل وعقد الجسر وعبر عسكره إلى الثانية للمصري
بجامع الرصافة، وجرى بين الطائفتين حروب في أثناء الأسبوع.
وكان عميدُ العراق يشير على رئيس الرؤساء وزير الخليفة بالتوقف عن المناجزة، ويرى
المناجزة ومطاولة الأيام انتظار لقدوم طغرلبك، ولما يراه من ميل العوام للبساسيري. فاتفق في
بعض الأيام مع القاضي الهمذاني حضر إلى رئيس الرؤساء واستأذنه في الحرب وضمن له
قتل البساسيري فأذن له من غير علم عميد الدولة، فخرج ومعه الخدم والهاشميون والعجم
والعوام إلى الخليفة فاستخرجهم البساسيري حتى أبعدوا، ثم حمل عليهم فعادوا منهزمين،
وقتل جماعة منهم، ومات في الزحمة جماعة، ونهب باب الأزج. وكان رئيس الرؤساء واقفاً
دون الباب فدخل الدار وهرب كل من في الحريم، ورجع البساسيري إلى معسكره.
واستدعي الخليفة عميد العراق وأمره بالقتال على سور الحريم فلم يرعهم إلا والزعقات قد
علت ونهب الحريم، ودخلوا الباب النوبى. فركب الخليفة لابساً السواد وعلى كتفه البردة
وبيده سيف على رأسه اللواء، وحوله زمرة من العباسيين والخدم بالسيوف المسلولة، فرأى
النهب قد وصل إلى باب الفردوس من داره، فرجع إلى ورائه ومضى نحو عميد العراق.
فوجده قد استأمن إلى قريش فعاد وصعد إلى المنظرة.
وصاح رئيس الدولة يا علم الدين يعني قريشاً أمير المؤمنين يستدنيك فدنا منه فقال له رئيس
الرؤساء: قد أنالك الله منزلة لم ينلها أمثالك، وأمير المؤمنين يستذم منك على نفسه وأهله
وأصحابه بذمام الله تعالى وذمام رسوله صلى الله عليه وسلم وذمام العربية. قال: أذم الله
تعالى! قال: ولي ولمن معه؟ قال نعم! وخلع قلنسوته وأعطاها الخليفة، وأعطى رئيس
الرؤساء ذماماً. فنزل إليه الخليفة ورئيس الرؤساء وسارا معه فأرسل إليه اليساسيري:

أتخالف ما استقر بيننا وتنقض ما تعاهدنا عليه؟ فقال قريش لا! وكانا قد تعاهدا على
المشاركة في الذي يحصل لهما وأن لا يستبد أحدهما دون الآخر بشيء، فاتفقا على أن
يسلم قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيري لأنه عدوه ويترك الخليفة عنده!
مقتل رئيس الوزراء
وعميد العراق
قال ولما أرسل قريش رئيس الرؤساء إلى البساسيري قال له: مرحباً بمهلك الدول ومخرب
البلاد! فقال: العفو عند المقدرة! فقال له البساسيري قدرت فما عفوت وأنت صاحب
طيلسان، وركتب الأفعال الشنيعة مع حرمي وأطفالي، فكيف أعفوا أنا وأنا صاحب
السيف؟ وأمر به فحبس إلى آخر ذي الحجة، ثم أخرجه من محبسه مقيداً وعليه جبة
صوف وطرطور من لبد أحمر وفي رقبته - مخنقة جلد بعير وهو يقرأ قل الله مالك الملك
تؤتي الملك من تشاء وتنزع الملك ممن تشاء الآية... وطيف به محال بغداد وهو على جمل
وراءه من يصفعه.
فلما اجتاز بالكرخ بصق أهل الكرخ في وجهه لأنه كان يتعصب عليهم! وجيء به إلى
البساسيري وقد نصبت له خشبة فأنزل من على الجمل وألبس جلد ثور قد سلخ في ذلك
اليوم، وجعلت قرونه على رأسه وعلق بكلو بين من حديد، فلم يزل يضطرب إلى آخر النهار
ومات، فقال بعض الشعراء في هذه الواقعة:

أقبلت الرايات مبيضة يقدمهن الأسد الباسل
وولت السوداء منكوسة ليس لها من ذلة سائل
انطر إلى الباغي على جدعه والدم من أوداجه سائل

يعني رئيس الرؤساء، قال: ودخل البساسيري داره ونهب ما فيها وشهر حرمه وأمر بنقض
داره وقال عند ذلك: فواحدة بواحدة جزاءُ! قال: وكان رئيس الرؤساء حسن التلاوة
جيد المعرفة بالنحو.
وقتل البساسيري عميد العراق وكان فيه شجاعة وله فتوة، وهو الذي بنى رباط شيخ
الشيوخ. وأما الخليفة فإن قريشاً نقله إلى معسكره راكباً وعليه السوادُ والبردة وبيده
السيف وعلى رأسه اللواء وأنزله في خيمه، وأخذ أرسلان خاتون ابنة أخي السلطان

طغرلبك فسلمها إلى أبي عبد الله بن جردة ليقوم بخدمتها.
ونهبت دار الخلافة وحريمها أياماً، ثم سلم قريش الخليفة إلى ابن عمه مهارش بن المجليى
وهو رجل فيه دين وله مروءة فحمله في هودج وسار به إلى حديثة عانة فنزل بها، و لما
وصل إلى الأنبار شكا البرد، فأنفذ إلى مقدمها يطلب منه شيئاً يلبسه فأرسل إليه جبة فيها
قطن ولحافاً.
قال وركب البساسيري يوم عيد النحر عبر إلى المصلى بالجانب الشرقي وعلى رأسه الألوية
المصرية، فأحسن إلى الناس وأجرى الجرايات على المتفقهة ولم يتعصب لمذهب، وأقام
بالعراق إلى ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة.
واشتغل السلطان طغرلبك في هذا لمدة بأمر أخيه إبراهيم حتى ظفر به وقتله، ومات
أخوه داود بخراسان فاحتاج طغرلبك إليه في المقام حتى قرر القواعد بعده لإلب أرسلان
ابن أخيه داود ثم عاد إلى العراق.
عود الخليفة إلى بغداد
وخروج البساسيري منها وقتله
قال: ولما فرغ السلطان طغرلبك من أخيه إبراهيم ينال وقتله، وقتل ابنيه معه - وكان قد
خرج عليه مراراً فعفا عنه، وإنما قتله في هذه الوقعة لأنه علم أن الذي جرى على الخليفة
كان بسببه فلهذا لم يعف عنه - عاد إلى العراق وليس له هم إلا إعادة الخليفة القائم بأمر
الله إلى داره. فأرسل إلى البساسيري وقريش في إعادة الخليفة إلى داره على أن لا يدخل
طغرلبك إلى العراق، فلما وصلت مقدمته إلى قصر شيرين خرج حرم البساسيري وأولاده،
ورحل أهل الكرخ بنسائهم وأولادهم في دجلة وعلى الظهر.
وكان دخول البساسيري بغداد في سادس ذي القعدة سنة خمسين وأربعمائة، وخروجه
منها في سادس ذي القعدة سنة إحدى وخمسين وأربعمائة ووصل طغرلبك إلى بغداد وقد
أرسل من الطريق الإمام أبا بكر أحمد المعروف بابن فورك إلى قريش ابن بدران يشكره على
فعله بالخليفة وحفظه وصيانته ابنة أخيه امرأة الخليفة، ويعرفه أنه أرسل أبا بكر بن فورك
لإحضارهما. ولما سمع قريش بقصد طغرلبك العراق أرسل إلى مهارش يقول له: إنا أودعنا

الخليفة عندك ثقة بأمانتك لينكشف بلاء الغز عنا والآن فقد عادوا وهم عازمون على
قصدك، فارحل بأهلك إلى البرية فإنهم إذا عملوا أن الخليفة عندنا في البرية لم يقصدوا
العراق ونتحكم عليهم بما نريد فقال مهارش: إن الخليفة قد استحلفني بعهود لا أخلص
منها.
وسار مهارش ومعه الخليفة في حادي عشر ذي القعدة سنة إحدى وخمسين إلى العراق
فوافيا ابن فورك في الطريق، وأرسل إلى طغرلبك الخيام العظيمة والسرادقات والخيل بمراكب
الذهب وغير ذلك من التحف فلقوه.
ووصل الخليفة إلى النهروان في الرابع العشرين من ذي القعدة، وخرج السلطان إلى خدمته
وقبل الأرض بين يديه وهنأه بالسلامة واعتذر من تأخره. فشكر له ذلك وقلده سيفاً وقال:
لم يبق مع أمير المؤمنين من داره سواه وقد تبرك أمير المؤمنين به!.
قال: ولم يبق ببغداد من أعيانها من يستقبل الخليفة غير القاضي أبي عبد الله بن
الدامغاني وثلاثة نفر من الشهود.
وتقدم السلطان في المسير ووصل إلى بغداد، وجلس إلى الباب النوبي مكان الحاجب،
ووصل القائم بأمر الله فقام طغرلبك وأخذ بلجام بغلته حتى صار إلى حجرته. وكان
وصوله يوم الاثنين لخمس بقين من ذي القعدة، وكانت السنة مجدبة، ولم ير الناس فيها مطراً
فجاء المطر في تلك الليلة.
قال: ولما استقر الخليفة القائم بأمر الله أنفذ السلطان جيشاً عليهم خمار تكين الطغرائي في
ألفي فارس نحو الكوفة، وسار في أثرهم فلم يشعر دبيس والبساسيري إلا والسرية قد
وصلت إليهم في ثامن ذي الحجة من طريق الكوفة، فجعل أصحاب دبيس ابن مزيد يرتحلون
بأهليهم فيتبعهم الأتراك فيتقدم دبيس ليرد العرب إلى القتال فلا يرجعون! فمضي، ووقف
البساسيري وقاتل فسقط عن فرسه ووقع في وجهه ضربة، ودل عليه بعض الجرحى فأخذه
كمشتكين، وأتى عميد الملك الكندري وزير السلطان وقتله، وحمل رأسه إلى السلطان فأمر
بحمله إلى دار الخليفة، فطيف به على قناة في نصف ذي الحجة، ومضى، ومضى نور الدولة

دبيس إلى البطيحة.
وفي سنة ثلاث وخمسين وأربعمائة رتب الخليفة أبا تراب الاثيري في الأنهار وحضور
المواكب ولقبه حاجب الحجاب، واستوزر أبا الفتح منصور بن أحمد بن دارست، بعد أن
شرط على نفسه أن يخدم بغير إقطاع ويحمل مالاً.
وفي سنة أربع وخمسين وأربعمائة عقد السلطان طغرلبك على ابنة الخليفة القائم بأمر الله
وحمل مائة ألف دينار، ولم يقع مثل هذا فيما تقدم، وامتنع الخليفة من ذلك ثم أجاب إليه.
وفي هذه السنة عزل ابن دارست عن الوزارة ووليها أبو نصر ابن جهير.
وفيها عم الرخص جميع الأصقاع، فبيع بالبصرة ألف رطل من الثمر بثمانية قراريط.
وفي سنة خمس وخمسين وأربعمائة وصل السلطان بابنة الخليفة في شهر المحرم، وسار من
بغداد في شهر ربيع الأول إلى الري فمرض بها وتوفي لثمان خلون من شهر رمضان..
وفيها ملك ألب أرسلان بعد عمه طغرلبك.
وفي سنة ست وخمسين وأربعمائة عادت ابنة الخليفة زوجة السلطان طغرلبك وسير
السلطان في خدمتها الأمير إيتكين السليماني وجعله شحنةً على بغداد وسأل ألب أرسلان
أن يخطب له ببغداد واقترح أن يخاطب بالوالد المؤيد فأجيب إلى ذلك، ولقب ضياء الدين
عضد الدولة وجلس الخليفة جلوساً عاماً وشافه الرسل بتقديم ألب أرسلان في السلطنة
وسير إليه الخلع.
وفيها في شهر ربيع الأول ظهر ببغداد والعراق وخوزستان وكثير من البلاد أن جماعة من
الأكراد خرجوا يتصيدون فرأوا في البرية خيماً سوداً، وسمعوا فيها لطماً شديداً وسمعوا
فيها قائلاً يقول: قد مات سيدوك ملك الجن وأي بلد لم يلطم أهله عليه ويعملون له المأتم قلع
أصله وأهلك أهله! فخرج كثير من النساء في البلاد إلى المقابر يلطمن وينحن وينشرن
شعورهن، وخرج رجال من سفلة الناس يفعلون ذلك.
قال ابن الأثير: وقد جرى في أيامنا نحن في الموصل وما والاها إلى العراق وغيره من الناس
فظهر أن امرأة من الجن يقال لها أم عنقود مات ابنها عنقود وأن كل من لا يعمل له مأتماً
أصابه هذا المرض! فكثر فعل ذلك، وكانوا يقولون:

يا أم عنقود اعذرينا قد مات عنقود وما درينا
وكان النساء يلطمن وكذلك الأوباش!
وفي سنة سبع وخمسين وأربعمائة ابتدى بعمارة المدرسة النظامية ببغداد، وكملت
عمارتها في ذي القعدة سنة تسع وخمسين وأربعمائة.
وفي سنة ثمان وخمسين وأربعمائة في العشر الأوسط من جمادى ظهر كوكب كبير له ذؤابة
طويلة ممتدة إلى وسط السماء عرضها نحو ثلاثة أذرع في رأي العين وهو بناحية المشرق،
وبقي إلى السابع والعشرين من الشهر وغاب.
وفيها في جمادى الآخرة كان بخراسان والجبال زلزلة عظيمة بقيت تتردد أياماً تصدعت
منها الجبال زلزلة عظيمة بقيت تتردد أياماً تصدعت منها الجبال وأهلكت خلقاً كثيراً،
وانخسفت منها عدة قرى، وخرج الناس إلى الصحراء.
وفيها ولدت صبية بباب الأزج لها رأسان ورقبتان ووجهان وأربع أيد على بدن واحد.
وفي سنة تسع وخمسين وأربعمائة في ذي القعدة قتل الصليحي صاحب اليمن وخطب بها
للدولة العباسية.
وفي سنة ستين وأربعمائة كانت زلزلة عظيمة بمصر وفلسطين خرجت الرملة، وطلع الماء
من رؤوس الآبار، وهلك من أهلها خمسة وعشرون ألف نسمة، وانشقت صخرة بيت
المقدس ثم عادت بإذن الله تعالى، وانحسر البحر عن الساحل مسيرة يوم فنزل ا لناس إلى
أرضه يلتقطون منه فرجع الماء عليهم فأهلك منهم خلقاً كثيراً.
وفيها عزل فخر الدولة بن جهير عن الوزارة ثم أعيد في سنة إحدى وستين بشفاعة نور
الدولة دبيس بن مزيد فمدحه أبو الفضل فقال:
قد رجع الحق إلى نصابه وأنت من دون الورى أولى به
ما كنت إلا السيف سلته يد ثم أعادته إلى قرابه
وهي قصدية طويلة.
وفيها في شعبان احترق جامع دمشق، وكان سبب ذلك أنه وقع بين المغاربة والمشارقة
حرب فاحرقوا داراً مجاورة للجامع فاتصل الحريق بالجامع، فدثرت محاسنه وزال ما كان فيه
من الأعمال النفيسة.
وفي سنة اثنتين وستين ورد رسول صاحب مكة محمد بن أبي هاشم بإقامة للخطبة
الخليفة القائم بأمر الله والسلطان ألب أرسلان بمكة إسقاط خطبة صاحب مصر وترك

الأذان بحي على خير العمل فأعطاه السلطان ثلاثين ألف دينار وخلعا نفيسة وأجرى له في
كل سنة عشرة آلاف دينار. وخطب محمود بن صالح بن مرداس صاحب حلب لهما أيضاً
في سنة ثلاث وستين على ما نشرحه في أخبار الدولة السلجقية فقال أبو عبد الله بن عطية
بمدح الخليفة:
كم طائعٍ لك لم تجلب عليه ولم تعرف لطاعته غير التقى سببا
هذا البشير بإذعان الحجاز وذا داعي دمشق وذا المبعوث من حلبا
وفيها خرج أرمانوس ملك الروم في مائتي ألف إلى خلاط وأسر على ما نذكره - إن شاء
الله - في أيام ألب أرسلان.
وفي سنة أربع وستين وأربعمائة عزل إيتكين السليماني من شحنكية بغداد واستعمل عليها
سعد الدولة كوهر آيين، وكان سبب عزل السليماني أنه كان قد سار إلى السلطان ألب
أرسلان واستخلف ابنه شحنة بغداد فقتل أحد مماليك الدارية فأنفذ قميصه من الديوان
إلى السلطان ووقع الخطاب في عزله، فورد إلى بغداد في ربيع الأول من هذه السنة وقصد
صدار الخلافة وسأل العفو عنه وأقام أياماً فلم يجب إلى ذلك، وكان نظام الملك يعتني
بالسليماني فأضاف إلى إقطاعة تكريت، فكوتب واليها من ديوان الخلافة بالتوقف عن
تسليمها. فملا رأى السلطان ونظام الملك إصرار الخليفة على الغضب على السليماني
عزلاه، وسيرا سعد الدولة إليها، فتلقاه الناس وجلس له الخليفة.
وفي سنة خمس وستين وأربعمائة قتل السلطان ألب أرسلان وملك بعده ابنه السلطان
ملكشاه. وفيها أقيمت الدعوة العباسية ببيت المقدس قدسه الله...
غرق بغداد
وفي سنة ست وستين وأربعمائة غرق الجانب الشرقي وبعض الغربي من بغداد، وسبب
ذلك أن دجلة زادت زيادة عظيمة وطفح الماء من البرية مع ريح شديدة، وجاء الماء إلى
المنازل ونبع من البلاليع والآبار بالجانب الشرقي، وهلك خلق كثير تحت الهدم،وشدت

الزواريق تحت التاج خوف الغرق. وقام الخليفة يتضرع ويصلي وعليه البردة وبيده القضيب،
وغرق من الجانب الغربي مقبرة أحمد بن حنبل ومشهد باب التنين وتهدم سوره، ودخل الماء
من شبابيك البيمارستان العضدي.
وفاة القائم بأمر ال
له وشيء من سيرته
كانت وفاته في ليلة الخميس ثالث عشر شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة، وكان سب
بوفاته أنه كان قد أصابه مأشر فافتصد ونام فانتفخ فصاده وخرج منه دم كثير ولم يشعر،
فاستيقظ وقد ضعف وسقطت قوته. فأيقن بالموت وأحضر ولي عهده ووصاه وأحضر
نقيب العباسيين ونقيب الطالبيين وقاضي القضاة وغيرهم مع الوزير ابن جهير وأشهدهم
على نفسه أنه جعل ابن ابنه أبا القاسم ولي عهده.
ولما توفي غسله الشريف أبو جعفر بن أبي موسى الهاشمي، وصل عليه المقتدي بأمر الله.
ومات وله من العمر ست وسبعون سنة وثلاثة أشهر وخمسة أيام، ومدة خلافته أربع
وأربعون سنة وثمانية أشهر إلا أياماً. وقيل هذا يكون عمره ستاً وسبعين سنة وتسعة
أشهر وخمسة أيام.
وكان جميلاً أبيض مشرباً بحمرة، حسن الوجه والجسم، ورعا ديناً زاهداً قوي اليقين بالله
تعالى، وله عناية بالأدب ومعرفة حسنةٌ بالكتابة، ولم يكن يرضى عن أكثر ما يكتب من
الديوان ويُصلح أشياء منه. وكان مؤثراً للعدل والإحسان؛ مريداً لقضاء حوائج الناس؛ لا
يرى أن يمنع ما يطلب منه، حُكي عن محمد بن علي بن عامر الوكيل قال: "دخلتُ يوماً إلى
المخزن فلم يبقَ أحدٌ إلا وأعطاني قصةً فامتلأت أكمامي فقلت في نفسي لو كان الخليفة
أخي لأَعرض عن هذه كلها فألقيتها في البِرْكة والقائم ينظر ولا أشعر، فلما دخلت عليه أمر
الخدم بإخراج الرِّقاع من البِركة فأُخرجت ووقف عليها، ووقّع بأغراض أصحابها ثم قال
لي: يا عامي ما حملك على هذا؟ فقلت: خوف الضجر منها!
فقال: لا تعود إلى مثلها فإنا
ما أعطيناهم من أموالنا شيئاً.
ومما يُحكى من جملة كرمه أن أحد السلاطين في أيامه سأله أن يتقدّم باعتقال وزرائه وذكر

أنهم استولوا على أمواله فخرج توقيعه "ليست دارنا دار حبْسٍ وسجنٍ بل هي دار
طُمأنينَة وأمن" وكان له شعر رائق فمنه قوله:
قالوا: الرحيل، فأنشبت أظفارها في خدّها وقد اعتقلن خِضابا
واخضرّ تحت بَنانها فكأنما غَرست بأرض بنفسجٍ عِنّابا
وفي أيامه أسلم من كفار الأتراك ألف خركاه وضَحّوا بثلاثين ألفَ رأسٍ من الغنم وقيل:
أكثر من ذلك.
ولم يخلف ولداً لأن ابنه ذخيرةَ الدين توفي في ذي القعدة سنة سبع وأربعين وعمره خمس
عشرة سنةً.
وزراؤه وكتابه: كتب له عميد الرؤساء أبو طالب محمد بن أيوب، ثم رئيس الرؤساء أبو
القاسم علي بن الحسن بن مسلمة - وزر له ولقّبه بهذا اللقب وبجمال الورى - ووَزَرَ له
بعده أبو الفتح منصور بن أحمد بن دارست، ثم فخر الدين أبو نصر محمد بن محمد بن
جُهير. قضاته: قاضي القضاة أبو عبد الله الحسن بن علي بن ماكولا البصري إلى أن مات،
فولّى أبا عبد الله محمد بن علي الدامغاني شيخ أصحاب أبي حنيفة. حُجّابه: أبو منصور
بن بكران ثم أبو عبد الله الحسن بن علي المردوسي.
خلافة المقتدي بأمر الله
هو أبو القاسم عبد الله بن ذَخيرة الدين أبي العباس أحمد بن القائم بأمر الله، وأُمّه أمّ ولدٍ
اسمها أرجوان وقيل شراب، وتدْعى قرة العين. وهو الخليفة السابع والعشرون من الخلفاء
العباسيين، بويع له بعد وفاة جدّه بأمر الله في يوم وفاته وهو يوم الخميس لثلاث عشرة خلت
من شعبان سنة سبع وستين وأربعمائة. وكان القائم جده قد عهد له كما ذكرنا، فلما مات
القائم حضر مؤيد الملك بن نظام الملك والوزير فخر الدولة بن جهير وابنه عميد الدولة
والشيخ أبو إسحاق وأبو نصر الصباغ ونقيب النقباء طرّاد والنقيب المعمر بن محمد
وقاضي القضاة أبو عبد الله الدامغاني وغيرهم من الأعيان والأتابكة فبايعوه، وكان أول من
بايعه الشريف أبو جعفر محمد بن أبي موسى الهاشمي بعد فراغه من غسل القائم وأنشد:
إذا سيد منا مضى قام سيدٌ
وأُرْتج عليه فقال المقتدي:

قؤول بما قال الكرام فعول
ولما فرغوا من البيعة صلى المقتدى بأمر الله بهم العصر.
ذكر الحوادث في أيام المقتدي
في ذي القعدة ملك الأقسيس دمشق وخطب بها للمقتدي بأمر الله، وكان آخر من خَطَب
بها للمصريين.
وفيها ملك نصر بن محمود بن مرداس مدينة منبج من الروم.
وفيها قدم سعد الدولة بن
كوهر آيين شحنةً إلى بغداد من قِبَل السلطان ملكشاه ومعه العميد أبو نصر ناظراً على
أعمال بغداد.
وفي سنة تسع وستين وأربعمائة قدِم أبو نصر ابن الأستاذ أبي القاسم القُشيْريّ حاجّاً،
وجلس في المدرسة النظامية يعِظ الناس، وفي رباط شيخ الشيوخ، وجرى له مع الحنابلة
فتنٌ لأنه كلّم على مذهب الأشعري ونصَره. وكثر أتباعه والمتعصبون له، فثار الحنابلة ومن
تبعهم من سوق المدرسة النظامية وقتلوا جماعةً من المتعصبين للقشيري كالشيخ أبي
إسحاق وشيخ الشيوخ وغيرهما من الأعيان، فجرى بين الطائفتين أمور عظيمة. فنسب
أصحاب نظام الملك ذلك إلى الوزير فخر الدولة بن جُهير وكتب أبو الحسين محمد بن علي
بن أبي القصر الواسطي الفقيه الشافعي إلى نظام الملك:
يا نظام المُلك قد حلّ ببغداد النظامُ
وابنك القاطن فيها مستلانٌ مستضام
وبها أودى له قتلى غلام فغلام
والذي منهم تبقّى سالماً فيه سهام
يا قِوام الدين لم يبق ببغداد قوامُ
عظُم الخَطْب فللحرب اتصالٌ ودوام
فمتى لم يحسم الداء بأيديك الحسام
ويكفّ القوم في بغداد قتلٌ وانتقام
فعلى مدرسة فيها ومنْ فيها السلام
واعتصام بحريمٍ لك من بعْد حرام
فلما اتصل ذلك بنظام الملك عظم عليه فأعاد سعد الدولة كوهر آيين شحنةً إلى العراق في
سنة إحدى وسبعين، وحمله رسالةً إلى الخليفة تتضمن الشكوى من بني جهير ويسأل عَزْل
فخر الدولة عن الوزارة، فلما وصل إلى بغداد وأبلغ الخليفة الرسالة أمر فخر الدولة بلزوم
داره واستوزره بعده أبا شجاعٍ محمد بن الحُسين! قال: ولما بلغ ابن جهير تغيّر نظام الملك

عليه أرسل ابنه عميد الدولة إليه يستعطفه، فسار إليه قبل وصول كوهر آيين إلى بغداد، ولم
يزل يتعطفه حتى عاد إلى ما ألفه منه وزوّجه بابنته. فعاد إلى بغداد فلم يردّ الخليفة أباه إلى
الوزارة وأمرهما بملازمة منازلهما فأرسل نظام الملك إلى الخليفة في إعادة بني جهير إلى
الوزارة فأعيد عميد الدولة إليها وأذن لأبيه فخر الدولة بفتح بابه، وذلك في صفر سنة اثنتين
وسبعين وأربعمائة.
وفي سنة إحدى وسبعين وأربعمائة ملك تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان دمشق على ما
نذكره إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة السُّلجقية.
وفي سنة أربع وسبعين وأربعمائة في شوال توفي نور الدولة أبو الأغرّ دُبيس بن علي مَزيد
الأسدي، وولى بعده أبو كامل منصور ولقِّب بهاء الدولة.
وفيها أرسل الخليفة الوزير فخر الدولة إلى السلطان ملكشاه بأصبهان يخطب ابنته للخليفة
فسار إليه وخطبها، فتقررت القاعدة على أن يكون الحِمل المعجل خمسين ألف دينارٍ وأن لا
يبقى الخليفة سرولاً زوجةً غيرها فأجيب إلى ذلك.
الفتنة ببغداد بين الشافعية والحنابلة
وفي سنة خمس وسبعين كانت الفتنة بين الطائفيين، وسببها أنه ورد إلى بغداد الشريف أبو
القاسم البكري المقرئ الواعظ وكان أشعريّ المذهب، وكان قد قصد نظام الملك فأحبّه
ومال إليه وسيّره إلى بغداد، وأحرى عليه الجراية الوافرة. وكان يعِظ بالمدرسة النظامية،
ويذكر الحنابلة ويعيبهم ويقول "وما كفر سُليمان ولكن الشياطين كفروا" وما كفر أحمد ولكن
أصحابه كفروا ثم قصد يوماً دار قاضي القضاة أبي عبد الله الدامغاني فجرى بينه وبين
قومٍ من الحنابلة مشاجرة أدّت إلى الفتنة. وكثر جمعه فكبس دورٍ بني الفرّاء وأخذ كتبهم
ومنها كتاب الصفات لأبي يعلى فكان يقرأه بين يديه وهو جالس على الكرسي للوعظ،
وشنّع عليهم وجرى له معهم خصومات وفتن. ولقّب البكريّ من الديوان بعَلَم السُّنّة،
ومات ببغداد ودفن عند قبر أبي الحسن الأشعري رحمهما الله تعالى.
رسالة إلى السلطان ملكشاه
وفي ذي الحجة سنة خمسٍ وسبعين وأربعمائة أرسل الخليفة المقتدي الشيخ أبا إسحاقٍ

الشيرازي برسالة إلى السلطان تتضمن الشكوى من العميد أبي الفتح بن أبي الليث عميد
العراق، وأمره أن يُنهي إليه وإلى نظام ما يجري على أهل البلاد من النُّظّار. فسار الشيخ،
فكان الشيخ كلما وصل إلى مدينةٍ من بلاد العجم يخرج أهلها إليه بنسائهم وأولادهم
يتمسحون بركابه ويأخذون من تراب بغلته للتبرك، وكن في صُحبته جماعةٌ من أعيان
أصحابه فلما وصل إلى ساوة خرج إليه جميع أهلها وسأله كل من فقهائها أن يدخل بيته فلم
يفعل. ولقيَه أرباب الصناعات ومعهم ما ينشرونه على محفته، فخرج الخبازون ينثرون الخبز
وهو ينهاهم فلم ينتهوا، وكذلك أصحاب الفاكهة والحلوى وغيرهم، وخرج إليه الأساكفة
وقد عملوا مداساتٍ لطافاً تصلح لأرجل الأطفال ونثروها فكانت تسقط على رؤوس
الناس فكان الشيخ يتعجب ويذكر ذلك لأصحابه بعد رجوعه ويقول: ما كان حظكم من
ذلك النثار؟ فقال بعضهم: ما كان حظ سيدنا منه! فقال الشيخ: أما أنا فتغطيت بالمحفة!
يقول ذلك وهو يضحك.
قال: ولما وصل الشيخ إلى السلطان وإلى نظام الملك أكرماه، وأجيب إلى جميع ما التمسه
من الخليفة. ولما عاد أهين عميد العراق، ورفعت يده عن جميع ما يتعلق بحواشي الخليفة.
وفيها قدم مؤيد الملك بن نظام الملك إلى بغداد من أصفهان ونزل بالمدرسة النظامية،
وضرب على بابه الطبول في أوقات الصلوات الخمس، فأُعطيَ مالاً جزيلاً حتى قطع ذلك،
فأرسل الطبول إلى تكريت والله تعالى أعلم.
عزل عميد الدولة
عن الوزارة وميسر والده إلى ديار بكر
وفي سنة ست وسبعين وأربعمائة في صفر عزل عميد الدولة فخر الدولة بن جهير عن
الوزارة، ووصل في يوم عزله له رسول من السلطان ومن نظام الملك إلى الخليفة يطلبان معه
أن يرسل إليهما بني جهير فأذن لهم. فساروا بجميع أهلهم ونسائهم، فصادفوا من السلطان
ومن نظام الملك الإكرام والاحترام، وعقد السلطان لفخر الدولة بن جهير على ديار بكر
وخلع عليه وأعطاه الكوسات وسيّر معه العساكر وأمره أن يأخذها من بني مروان، وأن

يخطب لنفسه ويذكر اسمه على السكة، فسار إليها.
قال: ولما فارق بنو جهير بغداد رتّب الديوان أبو الفتح المظفر ابن رئيس الرؤساء، ثم عزله
في السنة وولى أبا شجاع محمد بن الحسين وخلع عليه خلع الوزراء.
وفي سنة سبع وسبعين وأربعمائة استولى عميد الدولة على الموصل.
وفيها فتح سليمان بن قُتُلمِش السُّلجقي صاحب الروم أنطاكية وكانت بيد الروم من سنة
ثمانٍ وخمسين وثلاثمائة.
وفي شهر صفرٍ انقضّ كوكبٌ من الشرق إلى الغرب كان حجمه وضوؤه كالقمر، وسار مدىً
بعيداً على مهْلٍ في نحو ساعة.
وفي سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة استولى الفَرنج على مدينة طُليطلة وأخذوها من المسلمين
على ما نذكره - إن شاء الله تعالى - في أخبار الأندلس.
وفيها في شهر ربيع الأول هاجت ريح عظيمة سوداء بعد العشاء، وكثرُ الرَّعْدُ والبرق
وسقط على الأرض رملٌ أحمر وترابٌ كثيرٌ، وكانت النيران تضطرم في أطراف السماء،
وكان أكثر ذلك بالعراق والمَوْصل، فألقت النخل، وسقط معها صواعق في كثير من البلاد ثم
انجلى ذلك نصف الليل.
وفيها في شهر ربيع الأول توفي أبو المعالي عبد الملك بن عبد الله بن يوسف الجويني إمام
الحرمين، ومولده سنة سبع عشرة وأربعمائة.
وفي سنة تسع وسبعين وأربعمائة ملك السلطان ملكشاه مدينة حلب واللاذقية وكفر طاب
وأفامية.
وفيها من شهر ربيع الأول توفي بهاء الدولة أبو كامل منصور بن دُبيس بن علي بن مزيد
الأسدي صاحب الحلة والنيل وولى ابنه سيف الدولة صدقة.
وفيها أُسقط اسم العلويّ صاحب مصر من الحرْمين الشريفين وذُكر اسم الخليفة المقتدي
بأمر الله.
وفيها أُسقطت المكوس من العراق.
وفي سنة ثمانين وأربعمائة في المحرم زُفّت ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة، ونُقل جهازُها
على مائةٍ وثلاثين جملاً مجللة بالديباج الرومي، وكان أكثر الأحمال الذهب والفضة، وثلاث
عماريات، وعلى أربعةٍ وسبعين بغلاً مجللة بأنواع الديباج الملكي وأجراسها وقلائدها من

الذهب، وعلى ستة منها اثنا عشر صندوقاً من فضة فيها من الجواهر والحلي ما لا تقدر
قيمته، وأما البغال ثلاث وثلاثون فرساً من الخيول السوابق عليها مراكب الذهب. وسار
أمام الجهاز سعد الدولة والأمير برسق وغيرهما؛ وكانت ليلة مشهورة، فلما كان من الغد
أحضر الخليفة أمراء السلطان لِسِماط أمر بعمله حُكي أنه عُمل فيه أربعون ألف منٍّ من
السكر. وخلع الخليفة على جميع أمراء السلطان ومن له ذكرٌ في العسكر وأرسل الخلع إلى
جميع الخواتير وولدت في هذه السنة من الخليفة ولداً وهو أبو الفضل جعفر.
وفي سنة إحدى وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع الآخر أمر الخليفة بإخراج الأتراك الذين مع
الخاتون زوجته من حريم دار الخلافة، وكان سبب ذلك أن تركياً منهم اشترى فاكهة من
طواف فتكالما فشتمه الطواف فضربه التركي فشجّه، فاجتمعت العامة وشنّعوا أو
استغاثوا، فأمر الخليفة بإخراج الأتراك فأُخرجوا على أقبح صورة.
وفي سنة اثنتين وثمانين وأربعمائة أرسل السلطان ملكشاه إلى الخليفة يطلب ابنته طلباً لا
بد منه، وسبب ذلك أنها كانت قد أرسلت إليه تشكو من إطراح الخليفة لها وإعراضه
عنها فأذن لها في المسير، فسارت في شهر ربيع الأول ومعها ابنها من الخليفة فوصلت إلى
أصفهان فأقامت إلى ذي القعدة وتوفيت.
وفي سنة أربع وثمانين وأربعمائة في شهر ربيع الأول عُزل الوزير أبو شجاع، وكان عزله في يوم
الخميس فقال:
تولاها وليس له عدوٌّ   وفارقها وليس له صديق
فلما كان من الغد يوم الجمعة خرج من داره إلى الجامع ماشياً فاجتمع عليه خلق كثير،
فأمر أن لا يخرج من بيته، واستنيب في الوزارة أبو سعد بن موصلايا كاتب الإنشاء وأرسل
الخليفة إلى السلطان يستدعي منه عميد الدولة بن جهير يستوزره، فسُيِّر إليه فاستوزره في
ذي الحجة من السنة.
وفيها ملك الفرنج جزيرة صِقِلية.
وفيها في تاسع شعبان كان بالشام وكثيرٍ من البلاد زلازل، ففارق الناس مساكنهم وانهدم

بأنطاكية كثير من المساكن والدور، وهلك تحتها خلق كثير، وخُرّب من بروجها تسعون
برجاً.
وفي سنة خمسٍ وثمانين وأربعمائة قُتل نظام الملك في عاشر شهر رمضان.
وفيها توفي السلطان ملكشاه وملك بعده ابنه محمود.
وفي سنة سبع وثمانين وأربعمائة خطب للسلطان بركيارق بن ملكشاه ببغداد في يوم الجمعة
رابع المحرم.
وفاة المقتدي
بأمر الله وشيء من أخباره
كانت وفاته في يوم السبت خامس عشر المحرم سنة سبع وثمانين وأربعمائة فجأة، وكان قد
أُحضر إليه تقليد السلطان بركيارق ليعلّم عليه فقرأه ثم قُدِّم فأمل منه وغسل يديه وعنده
قهرمانتُه شمس النهار فقال لها: ما هذه الأشخاص التي قد دخلت علي بغير إذن - قالت
- فالتفتُّ فلم أر شيئاً فرأيته قد تغيّرت حالته واسترخت يداه ورجلاه وانحلت قوّته
فسقط إلى الأرض، فظننتها غشيةً لحقته، فحللت أزرار ثوبه فوجدته قد ظهرت عليه
أمارات الموت، فتماسكت وقلت لجارية عندي: ليس هذا وقت إظهار الجزع والبكاء!
وأحضرت الوزير وأعلمته الحال فشرعوا في البيعة لولي العهد، وجهّزوا المقتدي وصلى عليه
ابنه المستظهر بالله ودُفن.
وكان عمره ثمانياً وثلاثين سنة وثمانية أشهرٍ وسبعة أيام، وخلافته تسع عشرة سنة وخمسة
أشهر ويومين، وكان عظيم الهمة شديد العزمة، ولم يكن له أعوان على ذلك تذبُّ عنه بل
كانت له دعوة مجابة، وكانت أيامه كثيرة الخير واسعة الرزق. وعظُمت الخلافة فيها أكثر ممن
كان قبله، وعُمّر عدة محال في خلافته منها البصلية والقطيعية والحلبية والمعيدية والأجمة
ودرب القبار وخزانة الهراس والخانونتين.
قال: وأمر بنفي المغنّيات والمفسدات من بغداد، وأمر ببيع دورهن ومنع دخول الحمام إلا
بمئزر، وقلع الهرادي والأبراج التي للطيور، ومنع من اللعب بها لأجل الاطلاع على حرم
الناس، ومنع من إجراء ماء الحمامات إلى دجلة، وألزم أربابها بحفر آبار للمياه، ومنع
الملاحين من حمل النساء والرجال مجتمعين.

ووزر له: من ذكرناهم. قضاته: أبو عبد الله الدامغاني إلى أن مات، ثم أبو بكر محمد بن
المظفر الشامي الشافعي حجابه: أبو عبد الله بن دوشتى ثم أبو منصور بن محمد محمد.
خلافة المستظهر بالله
هو أبو العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي
العباس أحمد بن القائم بأمر الله، وهو الخليفة الثامن والعشرون من الخلفاء العباسيين قال:
ولما مات المقتدي بأمر الله أُحضر ولده المستظهر بالله وأُعلم بموته فبايعه الوزير، وركب إلى
السلطان بركيارق فأعلمه الحال، وأخذ بيعته للمستظهر بالله. فلما كان في اليوم الثالث من
وفاة المقتدي أظهر موته، وحضر عِزُّ المُلْك بن نظام الملك وزير بركيارق، وأمر السلطان
جميع أرباب المناصب بالجلوس للعزاء والبيعة للمستظهر بالله. فبويع له البيعة العامة في
السادس عشر من المحرم سنة سبعٍ وثمانين وأربعمائة، وله من العمر ستة عشر سنة
وشهران.
ذكر الحوادث في أيام المستظهر بالله
في سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة كان بين الملوك السلاجقة وبين بعضهم حروبٌ كثيرة تذكرها
إن شاء الله تعالى في أخبارهم.
وفيها شَرَع الخليفة في عمل سورٍ على الحريم، وأمر الوزير عميد الملك بالجدّ في عمارته.
وفيها في شهر ربيع الأول خُطب لولي العهد أبي الفضل منصور بن المستظهر بالله.
وفي سنة تسع وثمانين وأربعمائة اجتمع ستة كواكب في برج الحوت، وهي الشمس والقمر
والمشتري والزهرة والمريخ وعطارد فحكم المنجمون بطوفانٍ يكون في الناس، وأحضر
الخليفة ابن عسون المنجم فسأله فقال: إن في طوفان نوح اجتمعت الكواكب السبعة في برج
الحوت والآن فقد اجتمع منها فيه ستة وليس فيها زحل، فلو كان فيها لكان مثل طوفان
نوح، ولكن أقول إن مدينة أو بقعة من الأرض يجتمع فيها عالم كثير من بلاد كثيرة فيغرقون،
فخافوا على بغداد لكثرة من يجتمع فيها! فأُحكمت المواضع التي يُخشى منها الانفجار
والغَرق. واتفق أن الحجاج نزلوا في المناقب فأتاهم سيل عظيم فأغرق أكثرهم، ونجا من

تعلّق بالجبال، وذهب المال والدواب والأزواد وغير ذلك، فخلع الخليفة على المنجم!
وفي سنة تسعين وأربعمائة كان ابتداء الدولة الخوارزمية وفيها خطب الملك رضوان بولايته
بالشام للمستعلى صاحب مصر، ثم رجع عن ذلك وأعاد الخطبة للدولة العباسية.
وفي سنة إحدى وتسعين وأربعمائة كان ابتداء استيلاء الفَرنج على بلاد السواحل
الشامية، وملكوا مدينة أنطاكية ومعرة النعمان وبيت المقدس، وغير ذلك على ما نذكره في
أخبار العلويين ملوك مصر، فإن أكثر ذلك كان في ولايتهم.
وفي سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قُتل أبو القاسم ابن إمام الحرمين أبي المعالي الجويني
بنيسابور - وكان خطيبها - فاتهم العامة أبا البركات الثعلبي أنه هو الذي سعى في قتله،
فوثبوا به فقتلوه وأكلوا لحمه.
وفي سنة ثلاث وتسعين وأربعمائة في شهر رمضان عُزل عميد الدولة من وزارة الخلافة
وأُخذ من ماله خمسة وعشرون ألف دينارٍ، وتوفي في سادس عشر شوال.
وفي سنة أربع وتسعين وأربعمائة ملك الفرنج مدينة سروج من ديار الجزيرة، وقتلوا كثيراً من
أهلها، ونهبوا أموالهم وسبوا حريمهم، ولم يسلم إلا من انهزم، وملكوا مدينة حيفا وهي
بقرب عكا، وملكوا أرسوف بالأمان وأخرجوا منها أهلها، وملكوا قَيْسارية بالسيف
وقتلوا أهلها.
وفيها تقدم أمر الخليفة المستظهر بالله بفتح جامع القصر وأن يُصلّى فيه التراويح ولم تَجْرِ
بذلك عادة، وأمر الخليفة بالجهْر بالبسملة وبالقنوات على مذهب الإمام الشافعي.
وفي سنة خمس وتسعين وأربعمائة في شهر رمضان استوزر الخليفة سديد الملك أبا المعالي
بن عبد الرزاق ولقبه عَضُد الدولة.
وفيها بنى سيف الدولة صدقة بن مزيد الحلّة بالجامعين وسكنها وإنما كان يسكن وهو
وأباؤه في البيوت العربية.
وفي سنة ست وتسعين وأربعمائة في منتصف شهر رجب قُبض على الوزير سديد الملك
وحُبس بدار الخليفة، وأعيد أمين الدولة أبو سعيد بن موصلايا إلى الوزارة، ثم استوزر في

شعبان زعيم الرؤساء أبا القاسم بن جهير واستقدمه من الحلة، وكان عند سيف الدولة
صدقة، ولما حضر خلع عليه وجلس في الديوان ولُقّب قوام الدين.
وفي سنة سبع وتسعين وأربعمائة توفي السلطان بركيارق بأصفهان وخُطب لابنه ملكشاه
بالجوامع ببغداد.
وفي سنة خمسمائة في صفر عُزل الوزير أبو القاسم ابن جُهير فقصد دار سيف الدولة
صدقة ببغداد ملتجئاً إليها فأرسل من أخذه وحمله إليه، فأمر الخليفة بنقْض داره، وكان في
ذلك عبرة لمن يعتبر، فإن أباه أبا نصرٍ كان قد بناها بأنقاض دور الناس فخُربت عن قريب،
ولما عزل استنيب في الوزارة قاضي القضاة أبو الحسن الدامغاني، ثم تقررت الوزارة في المحرم
سنة إحدى وخمسمائة لأبي المعالي هبة الله بن محمد عبد المطلب وخلع عليه.
وفي سنة إحدى وخمسمائة في شهر رجب قُتل الأمير سيف الدولة صدقة بن منصور بن
دُبيس بن مزيد الأسدي أمير العرب، وهو الذي بني الحلة السيفية بالعراق وكان قد عظُم
شأنه واتَّسع جاهه واستجار به كبار الناس وصغارهم.
وفيها في شهر رمضان ورد القاضي فخر المُلك أبو علي بن عمار صاحب طرابلس الشام
إلى بغداد مستنفراً على الفَرَنج، فأنزله الخليفة وأكرمه وأجرى عليه الجِرايات العظيمة،
وأحضر معه من التقدمة والهدية من الأعلاق النفيسة والخيل العربية، وغير ذلك ما لم يوجد
مثله عند ملك، وأقام ببغداد إلى أن رحل السلطان محمد عن بغداد في شوال. فتقدم إلى
الأمير حسين بن أتابك قتلغتكين أن يسيّر معه العساكر التي سيّرها إلى المَوْصل مع أولاد
مودود، وخلع عليه السلطان خِلَعاً سنية وأعطاه شيئاً كثيراً وودعه: وسار مع الأمير
حسين فلم يُجْدِ ذلك نفعاً.
وفيها عَزلَ الخليفة وزيره مجد الدين هبة الله بن المطلب برسالة من السلطان، ثم أُعيد إلى
الوزارة بإذن السلطان محمد، وشَرَط عليه شروطاً منها العدل وحُسن السيرة وأن لا
يستعمل أحداً من أهل الذمة.
وفي سنة اثنتين وخمسمائة في نيسان زادت دجلة زيادة عظيمة انقطعت منها الطرق،

وغرقت الغلال الشتوية والصيفية، وحدث غلاءٌ عظيم بالعراق، وعدم الخيرُ، وأكل الناس
التمر والباقلاء الأخضر، وأما أهل السَّواد فإنهم لم يأكلوا في شهر رمضان ونصف شوال إلا
الحشيش والتوت.
وفيها في شهر رجب عُزل وزير الخليفة أبو المعالي هبة الله بن المطلب، ووَزَر أبو القاسم
علي بن نصر بن جهير.
وفيها في شعبان تزوّج الخليفة المستظهر بالله ابنة السلطان ملكشاه وهي أخت السلطان
محمد، وتولّى قبول العقد بوكالة الخليفة نظامُ الملك وزير السلطان، والصداق مائة ألف دينار،
ونثرت الجواهر والدنانير، وكان العقد بأصفهان، وخَطَب خُطبه النكاح القاضي أبو العلاء
صاعد بن محمد النيسابوري الحنفي.
وفيها تولى مجاهد الدين بهروز شَحْنكية بغداد.
وفي سنة ثلاث وخمسمائة في حادي عشر ذي الحجة ملك الفَرَنْج طرابلس وجبيل وبيروت
وبانياس.
وفي سنة أربع وخمسمائة ملوا صيداً في شهر ربيع الأول، وفيها في شهر رمضان المبارك
زُفّت ابنة السلطان ملكشاه إلى الخليفة المستظهر بالله فزُيّنت بغداد لذلك.
وفي سنة خمسٍ وخمسمائة تُوفي الإمام أبو حامد الغزالي رحمه الله.
وفي سنة سبع وخمسمائة توفي أبو القاسم علي بن جهير وزير الخليفة، ووزر بعده الربيب
أبو منصور ابن الوزير أبي شجاع محمد بن الحسين وزير السلطان.
وفي سنة ثمانٍ وخمسمائة في جُمادى الآخرة كانت زلزلةٌ شديدة بديار الجزيرة والشام
وغيرها، فخَرَّبتْ كثيراً من الرُّها وحران وسميساط ويالس وغيرها، وهلك كثيرٌ من الخَلْق
تحت الرَّدم.
وفي سنة إحدى عشرة وخمسمائة تُوفي السلطان محمد بن ملكشاه وملك ابنه محمود بن
محمد.
وفيها غرقت مدينة سنجار وكان سبب ذلك أن المطر دام فيها ليلاً ونهاراً واشتد، وجاء
السيل في واديها وأفسد الشباك الذي يجري فيه الماء في سورها، فاجتمع الماء وعظم على

السور حتى ألقاه، وهجم على المدينة بشدةٍ وقوة فلم يطقِ الناس ينتقلون عنه، فخرب كل
ما مرّ به من البلد، وغرق جمعٌ كثيرٌ من الناس. ومن عجيب ما حكي أن الماء حَمَل مهْداً
فيه مولود فتعلّق النهد بشجرة زيتون، ثم نقُص الماء والمهد معلّق بالشجرة، فسلِم المولود.
وفيها تناثرت النجوم بديار الجزيرة جميعها - الموصل وغيرها - وكثير من البلاد، وكانت
الكواكب تنزل حتى تقْرُب من الأرض ثم تضمحل فلا يوجد لها أثر.
وفيها في يوم عرفة كانت زلزلةٌ بالعراق والجزيرة وكثير من البلاد، وخرّبت ببغداد دواراً
كثيرةً بالجانب الغربي.
وفاة المستظهر
بالله وشيء من أخباره وسيرته
كانت وفاته في سادس عشر ربيع الآخر سنة اثنتي عشرة وخمسمائة وكان عمره إحدى
وأربعين سنةً وستة أشهرٍ. خلافته خمْسٌ وعشرون سنةً وثلاثة أشهر، وكانت دعوتُه قائمةً
بالمغرب، قام بها أمير المسلمين يوسف بن تاشفين ولم تزل إلى أن ظهر محمد بن تومرت على
ما نذكره في أخبار ملوك المغرب إن شاء الله تعالى.
وكان المستظهر بالله - رحمه الله - لَيِّن الجانب كريم الأخلاق مشكور السعي، يحب
اصطناع المعروف وفِعْل الخير ويسارع إلى أعمال البرّ والمثوبات، لا يردّ مكرمة تُطلب منه.
وكان كثير الوثوق بمن يُولِّيه، غير مصغٍ إلى سعاية ساعٍ ولا راجعٍ إلى قوله. وكانت أيامه أيام
سرور للرعية، وكان يسره ذلك، وكان حسن الحظ جيّد التوقيعات. ولما توفي صلى عليه
ابنه المسترشد بالله، كبّر أربعاً، ودُفن في حجرة له كان يألفها.
أولاده: أبو منصور الفضل المسترشد، وأبو عبد الله محمد المقتفي، وأبو طالب، وأبو
الحسن. وكان له من الوزراء مَنْ قدّمنا ذِكرهم في أخباره، ومضى في أيامه ثلاثة سلاطين
خطب لهم بالحضْرة وهم: تاج الدولة تتش بن ألب أرسلان، وبركيارق ومحمد بن ملكشاه.
ومن عجب الاتفاق أنه لما توفي السلطان ألب أرسلان توفي معه القائم بأمر الله، ولما توفي
السلطان ملكشاة توفي بعده المقتدي بأمر الله، ولما توفي السلطان محمد توفي بعده الخليفة
المستظهر بالله.

خلافة المسترشد
هو أبو منصور الفضل بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد، وهو الخليفة التاسع والعشرون
من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه في سادس عشر شهر ربيع الآخر سنة
اثنتي عشرة وخمسمائة. وكان وليّ عهد أبيه الخليفة المستظهر وخُطِب له في خلافة أبيه
ثلاثاً وعشرين سنة.
قال: وبايعه أخَزاه أبو عبد الله محمد - وهو المقتفي لأمر الله - وأبو طالب العباسي،
وعمومته بنو المقتدي بأمر الله، وغيرُهم من الأمراء والقضاة والأئمة والأعيان. وكان المتولي
لأخْذ البيعة القاضي أبو الحسن الدامغاني - وكان نائباً عن الوزارة - فأقر المسترشد
عليها، ثم عزله واستوزر أبا شجاع محمد بن الربيب أبي منصور وزير السلطان محمود.
هرب أبي الحسن
أخي المسترشد بالله وعوده
قال: ولما اشتغل الناس ببيعة المسترشد ركب أخوه الأمير أبو الحسن بن المستظهر بالله
سفينةً ومعه ثلاثة نفر وانحدروا إلى المدائن، وسار منها إلى دُبيس بن صَبدَقة بالحلّة فأكرمه
دُبيس ورتّب له الإقامات الكثيرة. فلما علم المسترشد بالله خبره أهمّه ذلك وأقلقه،
وأرسل إلى دبيس يطلب منه إعادته فأجاب "إنني عبد الخليفة وواقفٌ عند أمره وقد
استذمّ بي ودخل منزلي ولا أكرِهه على أمرٍ أبداً". وكان الرسول نقيب النقباء شرف الدين
علي بن طرّاد الزيني، فقصد الأمير أبا الحسن وتحدّث معه في العَوْد وضمن له كل ما يريد،
فأجاب إلى ذلك وقال: إنني لم أفارق خِدمة أخي لشرٍّ أريده، وإنما الخوف حملني على ذلك،
فإذا أمّنني قصدته!
وتكفّل له دبيس إصلاح الحال والمسير معه إلى بغداد، فعاد النقيب وأعلم الخليفة فأجاب
إلى ما طلب ثم تأخّر بعد ذلك ولم يحضر وأقام عند دبيس إلى ثاني عشر صفر سنة ثلاث
عشرة. وسارعن الحلة إلى واسط وكثر جمعه وقوي الإرجاف بأمره، وملك مدينة واسط
وخيف جانبه، فتقدم الخليفة المسترشد بالله بالخطبة لولد أبي جعفر المنصور وجعله وليّ

عهده وعمرُه اثنتا عشرة سنةً. فخطب له في ثاني شهر ربيع الأول ببغداد وكتب إلى البلاد
بذلك، وأرسل إلى دُبيس في معنى الأمير أبي الحسن وأنه الآن فارق جِواره ومدَّ يده إلى
بلاد الخليفة وأمره بقصده ومُعاجَلته قبل فوْته. فأرسل دُبيس العساكر إليه ففارق واسط
وقد تحيّر هو وأصحابه فضلوا الطريق، وصادفتْهم عساكر دُبّيس فنهبوا أثقاله وهرب
الأكراد من أصحابه والأتراك، وعاد الباقون.
وبقي الأمير أبو الحسن في عشرةٍ من أصحابه وهو عطشان وبينه وبين الماء خمسة
فراسخ، وكان الزمان قيظاً فأيقن بالتلف. وكان معه بدويان فأراد الهرب منهما فلم يقدر،
وأخذاه وقد اشتد به العطش فسقياه الماء وحملاه إلى دُبيس فسيره إلى بغداد وسلمه إلى
الخليفة بعد أن بذل له عشرة آلاف دينار. وكان بين خروجه وعوده أحدَ عَشَر شهراً، ولما
دخل على المسترشد بالله قبّل وقدَمه وقبّله المسترشد وبكيا، وأنزله في دار حسنة كان
يسكنها قبل أن يلي الخلافة، وحمل إليه الخَلَع والتحف وأمّنه.
وفيها نُقل الخليفة المسترشد بالله من دار الخلافة إلى الرصاقة، ونُقل كل من كان مدفوناً
بها.
ظهور قبور الأنبياء
قال: ابن الأثير وأحال على حمرة بن أسد بن علي بن محمد التميمي أنه ذكر في تاريخه: وفي
سنة ثلاث عشرة وخمسمائة ظهر قبر إبراهيم الخليل وقبرا ولديْه إسحاق ويعقوب صلى الله
عليهم وسلم بالقرب من المقدس، ورآهم الناس ولم تَبْلَ أجسادهم، وعندهم قناديل من
ذهب وفضة.
وفيها توفي قاضي القُضاة أبو الحسن علي بن محمد الدامغاني، مولده في شهر رجب سنة
تسع وأربعين وأربعمائة، وولى القضاء بباب الطَّاقِ من بغداد إلى المَوْصل وعمره شت عشرة
سنة ولم يكن ذلك لغيره. ولما ولي القضاء بعده الأكمل أبو القاسم علي بن طراد بن محمد
الزيني، وخُلع عليه في ثالث صفر.
وفي سنة أربع عشرة وخمسمائة خرج الكرج - وهم الخزر - إلى دار الإسلام ومعهم
القفجاق وغيرهم من الأمم، وحاصروا مدينة تفليس، ودام الحصار إلى سنة خمس عشرة

فملكوها عَنوةً.
وفي سنة خمس عشرة كانت زلزلة تضعضع منها الركن اليماني في البيت الحرام - زاده الله
شرفاً - وانهدم بعضُه وتشعّث بعض حرم النبي صلى الله عليه وسلم.
وفيها ظهر بمكة إنسان علويٌّ أمر بالمعروف ونهى عن المنكر، وكثر جمعه ونازع أمير مكة
ابن أبي هاشم وقَوِي أمرُه، وعزم على أن يخطُب لنفسه، ثم ظفر به ابن أبي هاشم ونفاه
عن الحجاز إلى البحرين، وكان هذا العلوي من فقهاء المدرسة النظامية ببغداد.
وفي سنة ست عشرة وخمسمائة قبض الخليفة المسترشد بالله على وزيره جلال الدولة
صدقة وأقيم نقيب النقباء علي بن طراد في نيابة الوزارة، فأرسل السلطان إلى الخليفة أن
يستوزر نظام الدين أحمد بن نصر بن نظام الملك فاستوزره وخلع عليه.
وفيها ظهر بديار بكر بالقرب من قلعة ذي القرنين معدن نحاس.
حرب دبيس بن صدقة
وفي سنة سبع عشرة وخمسمائة كانت الحرب بين دُبَيس بن صدقة وبين الخليفة، وكان
سبب ذلك أن دُبيساً كان عنده عفيف خادم الخليفة مأسوراً، فأطلقه وحمّله رسالة فيها
تهديدٌ للخليفة، وبالغ في وعيده ولبس السواد وجزَّ شعره، وحلف لينهبنّ بغداد ويخربها
فاغتاظ الخليفة لهذه الرسالة وغضب، وتقدم إلى البرسقيّ بالتبريز إلى حرب دُبَيس، فبرز في
شهر رمضان سنة ست عشرة.
وتجهز الخليقة وبرز من بغداد، واستدعى العساكر فأتاه سليمان بن مهارش صاحب
الحديثة، وأتاه قِرواش بن مسلم وغيرهما. وأُرسل دُبَيسٌ إلى نهر الملك فنبهه وعمل
أصحابه كلّ عظيم من الفساد فوصل أهل نهر الملك إلى بغداد، فأمر الخليفة فنودي ببغداد
"لا يتخلّف من الجند أحدٌ ومن أحبّ الجندية فليحضرْ" فجاء خلق كثير ففرّق فيهم
الأموال والسلاح فلما علم دُبَيس الحال كتب إلى الخليفة يستعطفه ويسأله الرِّضى عنه، فلن
يُجب إلى ذلك. وأخرجت خيام الخليفة في العشرين من ذي الحجة سنة عشرة فنادى أهل
بغداد: النفير النفير الغراة الغراة! وكثر الضجيج من الناس وخرج عالَم كثيرٌ لا يُحصَون

كثرةً وبرز الخليفة لست بقين من ذي الحجة سنة ست عشرة، وعبر دجلة وعليه قباءٌ
أسود وطرحة، وعلى كتفه البردة وفي يده القضيب وفي وسطه منطقة حديد صينيّ.
وسار في سنة سبع عشرة إلى النيل ونزل بالمباركة، وعبأ البرسقيّ أصحابه ووقف الخليفة
وراء الجمْع في خاصّته وجعل دُبَيس أصحابه صفّاً واحداً وجعل الرَّجّالة أمام الخيّالة
بالسلاح وكان قد وعد أصحابه بنهب وسبي النساء. فلما تراءت الفئتان بادر أصحاب
دبيس وبين أيديهم الإماء يضربن بالدفوف والمخانيث بالملاهي، ولم يُرَ في عسكر الخليفة غير
قارئٍ ومسبّحٍ وداعٍ. فقامت الحرب على ساق، فلما رأى الخليفة ذلك جرّد سيفه وكبّر
وتقدم للقتال، فانهزم دُبَيسٌ وحُملت الأسرى بين يدي الخليفة فأمر بقتلهم فضربت أعناقهم
صَبراً.
وكان عسكر دبيس عشرة آلاف فارسٍ واثني عشر ألفَ راجلٍ، وعسكر البرسقي ثمانية
آلاف فارسٍ وخمسة آلاف راجلٍ، ولم يُقتل من أصحاب الخليفة غير عشرةٍ وجُعلت نساء
دُبَيسٍ وسراريه تحت الأسر.
وعاد الخليفة إلى بغداد فدخلها في يوم عاشوراء من السنة وأما دُبَيسٌ بن صدقة فإنه لما
انهزم نجا بفرسه وسلاحه واتبعه الخيل ففاتها. وعبر الفرات فرأته عجوز فقالت له: دبير
جئت؟ فقال دبير من لم يجيء! واختفى خبره بعد ذلك وأُرجِف بقتله ثم ظهر أنه قصد
غُزَيَّة من عرب نجد، وطلب منهم أن يحالفوه فامتنعوا عن ذلك وقالوا لا نُسْخِط الخليفة
والسلطان! ثم رحل إلى طائفة من الأعراب واتفق معهم على قصد البصرة وأخذها،
فساروا إليها ودخلوها ونهبوها وقُتل مقدّم عسكرها فتجهز البرسقي لقتاله. فسمع دبيس
ذلك ففارق البصرة وسار على البرّ إلى قلعة جعبر والتحق بالفرنج وحضر معهم حصار
حلب وأطمعهم في أخْذها فلم يظفروا وعادوا عنها في سنة ثماني عشرة ثم فارقهم والتحق
بالملك طغرل ابن السلطان محمد، وأقام معه وحسّن له قصد العراق.
وفيها في صفرٍ أمر المسترشد ببناء بغداد وأن يجيء ما يخرج عليه من البلد فشقّ ذلك

على الناس، وجُمع منه مال كثير. فلما علم كراهة الناس لذلك أمر بإعادة ما أخذ منهم
فسروا بذلك، وقيل إن الوزير أحمد بن نظام الملك بذَل من ماله خمسة عشر ألف دينار
وقال: "نقسط الباقي على أرباب الدولة" وكان أهل بغداد يعملون بأنفسهم فيه ويتناوبون
العمل.
وفي سنة ثماني عشرة وخمسمائةٍ ملك الفرنج مدينة صور من نواب العلوي المصري.
الإختلاف مع السلطان محمود
وفي سنة عشرين وخمسمائة وقع الاختلاف بينهما وسببه أن يرنقش شحنة بغداد جرى
بينه وبين نواب الخليفة منافرةٌ فهدده الخليفة بسببها فخاف على نفسه، فسار عن بغداد
إلى السلطان وشكا إليه حذره جانب الخليفة، وأعلمه أنه قاد العساكر وباشر الحرب
وقويت نفسه ومتى لم تعالجه بقصد العراق ودخول بغداد ازداد قوة وجمعاً ومنعك عنها،
فتوجه السلطان نحو العراق، فأرسل إليه الخليفة يعرّفه البلاد وما أهلها عليه من الضعف
والرهن بسبب دبيس بن صدقة وأن الغلاء قد اشتدّ لعدم الغلاّت والأقوات، وطلب أن
تتأخّر هذه الدفعة إلى أن ينصلح الحال ثم يعود إلى البلاد ولا مانع له عنها وبذل له على
ذلك مالاً عظيماً.
فلما سمع السلطان هذه الرسالة قوي عنده ما ذكر برنقش وصمّم على العزم وجدّ في
السير فلما بلغ الخليفة عبر هو وأهله وجيوشه ومن عنده من أولاد الخلفاء إلى الجانب
الغربي في ذي القعدة مظهِراً الغضب والانتزاح عن بغداد إن قصدها السلطان، فبكى الناس
بكاءً شديداً لخروجه من داره فبلغ ذلك من السلطان كل مبلغ واشتدّ عليه، وأرسل إلى
الخليفة يستعطفه ويسأله العوْد إلى داره فأعاد الجواب "أنه لا بد من عودة هذه الدفعة فإن
الناس هلكى لشدة الغلاءِ وخراب البلاد" وأنه لا يرى في دينه أن يُزاد ما بهم! فغضب
السلطان ورحل نحو بغداد، وأقام الخليفة بالجانب الغربي وأرسل عفيفاً نُوّاب السلطان،
وكان بها عماد الدين زنكي فقاتله فانهزم عسكر الخليفة وقُتل منهم جماعةٌ وأُسِر مثلهم،
وتغافل زنكي عن عفيف حتى نجا لمودةٍ كانت بينهما.

ثم إن الخليفة جمع السفن وسدّ أبواب دار الخلافة سوى باب النوبي، وأمر صاحب الباب
بالمقام فيه لحفظ الدار ولم يبقَ من حواشي الخليفة بالجانب الغربي سواه. ووصل السلطان
إلى بغداد ونزلوا في دور الناس، فشكا الناس إليه ذلك، وأمر بإخراجهم، وبقي بها من له
دار. وبقي السلطان يراسل الخليفة في العَوْد ويطلب الصُلح وهو يمتنع، وكان يجري بين
العسكرين مناوشةٌ والعامة من الجانب الشرقي يسبّون السلطان أقبح سبٍّ وأفحشه.
ثم دخل جماعةٌ من عسكر السلطان إلى دار الخلافة ونهبوا التاج، فضجّ الناس ونادوا:
الغزاة الغزاة! وأقبلوا من كل ناحية، وخرج الخليفة من السرادق والشمسية على رأسه
والوزير بين يديه، وأمر بضرب الكوسات والبوقات ونادى بأعلى صوته: يا آل هاشم! وأمر
بتقديم السفن، ونصب الجسر وعبر الناس دفعة واحدة وكان له في الدار ألف رجلٍ قد
أخفاهم في السرداب، فظهروا وعسكر السلطان قد اشتغل بالنهب فأسر منهم جماعة من
الأمراء، ونهب العامّة دار وزير السلطان ودور جماعةٍ من الأمراء ودار عز الدين المستوفي
ودار الحكم أوحد الزمان، وقُتل خلق كثيرٌ ممن في الدروب.
ثم عبر الخليفة إلى الجانب الشرقي ومعه ثلاثون ألف مقاتلٍ من أهل بغداد والسواد وأمر
بحفْر الخنادق فحُفرت بالليل وحُفظت بغداد من عسكر السلطان، ووقع الغلاء عند
العسكر واشتد الأمر عليهم وكان القتال كل يوم عند أبواب البلد وعلى شاطئ دجلة.
وعزم عسكر الخليفة أن يكبسوا عسكر السلطان فغدر بهم الأمير أبو الهيجاء الكردي
صاحب إربل وخرج كأنه يريد القتال فالتحق بالسلطان!
وكان السلطان قد أرسل إلى عماد الدين زنكي وهو بواسطٍ يأمره بالحضور بنفسه ومعه
المقاتلة في السفن وعلى الظهر، فجمع كل سفينة بالبصرة وقد شحنها بالرجال المقاتلة.
وسار إلى بغداد فلما قاربها أمر من معه بلبْس السلاح وإظهار ما عندهم من الجلَد
والنهضة وسارت السفن في الماء والعسكر في البر على شاطئ دجلة وقد انتشروا وملأوا
الأرض. فرأى الناس ما ملأ قلوبهم هيبةً، وعزم السلطان على الجد في القتال، فعندها

أجاب الخليفة المسترشد بالله إلى الصلح، وترددت الرسائل بينهما فاصطلحا.
وأقام السلطان ببغداد إلى عاشر شهر ربيع الآخر سنة إحدى وعشرين، وحمل الخليفة
إليه من المال ما استقرت القاعدة عليه، وأهدى إليه سلاحاً وخيلاً وغير ذلك. ومرض
السلطان ببغداد فأشار عليه الأطباء بمفارقتها فرحل إلى هَمَذان فلما وصلها عوفى من
مرضه، ودام في الملك إلى سنة خمس وعشرين فتوفي. وملك بعده ابنه داود بن محمود بن
محمد بن ملكشاه على ما نذكره.
وفي سنة شت وعشرين وخمسمائة قبض المسترشد بالله على وزير شرف الدين علي بن
الزينبي واستوزر أنوشران بن خالد بعد الامتناع منه.
حصار الموصل
وفي سنة سبع وعشرين وخمسمائة حاصر الخليفة المسترشد بالله المؤْصل في العشرين من
شهر رمضان المبارك، وسبب ذلك أنها كانت قد صارت في مملكة عماد الدين زنكي وكان
قد حضر إلى بغداد لما وقعت الحرب بين السلطان مسعود السُّلجقي وبين أخيه سُلجوق
شاه على ما نذكره في أخبار السلجقية وظهر منه مباينة للخليفة المسترشد بالله، فلما
كانت هذه السنة واشتغل الملوك السلجقية بقتال بعضهم بعضاً قصد جماعةٌ من الأمراء
السلجقية باب المسترشد بالله وصاروا معه.
واتفق أن الخليفة المسترشد بالله أرسل الشيخ بهاء الدين أبا الفتوح الواعظ الإسفرايني
برسالة إلى عماد الدين زنكي فيها خشونة فأداها أبو الفتوح وزاد عليها ثقةً منه بقوة الخليفة
وناموس الخلافة فقبض عليه زنكي وأهانه ولقيه بما يكره. فأرسل الخليفة إلى السلطان
مسعود بن محمد يعرّفه ذلك وأنه على قصد المؤْصل وحصْرها، وتمادتِ الأيام إلى شعبان
فسار الخليفة في النصف منه في ثلاثين ألف مقاتل. فلما قارب الموصل فارقها زنكي في
بعض عساكره إلى سنجار ونزل بقية العسكر بها مع نائبه نصير الدين جقر دِزدارها فنازلها
الخليفة وضيّق على من بها.
وكان عماد الدين يركب كل ليلة ويقطع الميرة عن العسكر ويأخذ من ظفر به من عسكر

الخليفة، ودام الحصار ثلاثة أشهر فتضايقت الأمور بالعسكر الخليفي ولم يبلغه عمّن بها أنهم
احتاجوا إلى ميرة ولا وهنوا، فعاد إلى بغداد في الماء في شبارة فوصل يوم عرفة من السنة.
وفي سنة سبع وعشرين أيضاً اشترى الإسماعيلية بالشام حصن القدموس من صاحبه ابن
عمرون، وصعدوا إليه، وقاموا بحرْب من يحاربهم من المسلمين والفَرنْج.
وفي سنة ثمانٍ وعشرين وخمسمائة عَزَل الخليفة أنوشروان بن خالد، وألزم داره، وأعيد إلى
الوزارة شرف الدين على ابن طرّاد الزيني.
حرب السلطان مسعود
بن محمد وأسره
وفي سنة تسع وعشرين وخمسمائة كانت الحرب بين الخليفة والسلطان في شهر رمضان.
وكان سبب ذلك أن السلطان مسعود توفي أخوه الملك طغرل في المحرم من هذه السنة
بهَمَذان، وكان بينهما من العداوة والحروب ما نذكره في أخبارهم إن الله. وكان الخليفة يُعين
السلطان مسعود على أخيه ويساعده ويُقوّيه، وكان السلطان مسعودٌ قد انهزم من أخيه
طغرل ورحل إلى بغداد، فأعانه الخليفة لجميع ما يحتاج إليه وأمره بالمسير إلى همذان ووعده
أن يسير معه ويعينه على حرب أخيه. وكان البقش السلاحي وغيْرُه من الأمراء قد
التحقوا بالخليفة وصاروا معه واتفق أن إنساناً أُخِذ فوُجد معه ملطفاتٌ من طغرل إلى
بعض الأمراء وخاتمه بإقطاع لهم فلما رأى الخليفة ذلك قبض على أمير منهم اسمه غلبك
ونهب ماله فاستشعر غيره من الأمراء الذين مع الخليفة، فهربوا إلى عسكر السلطان
مسعود؛ فأرسل الخليفة إليه في إعادتهم فلم يفعل، فعظم ذلك على الخليفة وحدث بينهما
نفرةٌ ووحشةٌ أوجبت تأخّره عن المسير معه فأرسل إليه يأمره بالمسير معه حتماً.
فبينما هم في ذلك إذ ورد الخبر بوفاة طغرل، فسار مسعود من يوْمه واحتوى على مملكة
الجبل، فلما استقرّ بهمذان فارقه جماعةٌ من أعيان الأمراء خَوفاً منهم على أنفسهم. منهم
برنقش البازدار، وقزل، وسنقر الخمارتكين والي همذان وعبد الرحمن بن طغايرك ومعهم

دبيس، وأرسلوا إلى الخليفة يطلبون أمانة ليحضروا إلى خدمته فقيل للخليفة إنها مكيدة
لأن دبيس بن صدقة معهم. فساروا نحو خوزستان واتفقوا مع برسق بن برسق، فأرسل
الخليفة إلى الأمراء سديد الدولة بن الأنباري بتوقيعات يطيِّب قلوبهم، وأمرهم بالحضور
فعزموا على قبْض دبيس بن صدقة ليتقربوا به إلى الخليفة، فهرب إلى السلطان مسعود.
وسار الأمراء إلى بغداد في شهر رجب فأكرمهم وقطع خطبة السلطان مسعود من بغداد.
وبرز الخليفة في العشرين من شهر رجب على عزم المسير لحرب مسعود، وأقام بالشفيعي،
فهرب منه بكبه صاحب البصرة إليها، فراسله وبذل له الأمان فلم يعُد. فتوقف الخليفة عن
المسير، فحسّن له الأمراء الرحيل، وضعّفوا أمر السلطان مسعود، فسيّر مقدّمته إلى حلوان
فنهبوا البلاد وأفسدوا فلم يُنكر عليهم. ثم سار في ثامن شعبان والتحق به الأمير برسق
بن برسق فبلغت عِدّته سبعة آلاف فارسٍ، وتخلّف بالعراق مع إقبال الخادم ثلاثة آلاف
فارس وكان السلطان في ألفٍ وخمسمائة فارس.
وكان أكثر أصحاب الأطراف يكاتبون الخليفة ويبذلون له الطاعة فاستصلح السلطان
أكثرهم، فعادوا إليه، فصار في نحو خمسة عشر ألف فارس، فأرسل الملك داود بن
السلطان محمود إلى الخليفة يشير عليه بالميل إلى الدينوري ليحصّن نفسه ومَنْ معه فلم يفعل
المسترشد بالله. وسار حتى بلغ دايمرج، وعبأ أصحابه.
وسار السلطان مسعودٌ إليهم فوافاهم في عشر رمضان، فانحازت ميْسرة الخليفة إلى
السلطان وقاتلت الميمنة قتالاً ضعيفاً، ودارت عساكر السلطان حول عسكر الخليفة وهو
ثابت لم يتحرك من مكانه، فانهزم عسكره وأُخذ هو أسيراً ومعه جمع كثير من أصحابه
منهم: شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي وقاضي القضاة، وصاحب المخزن ابن طلحة،
وابن الأنباري، والخطباء، والفقهاء والشهود وغيرهم. وأُنزل الخليفة في خيمة وأخذ ما في
عسكره، وحُمل الأعيان إلى قلعة سرجهان ولم يقتل في هذه المعركة أحد البتة.
وعاد السلطان إلى همذان، وأمر فنُودي "من تبعنا من البغداديين إلى همذان قتلناه" فرجع

الناس كلهم على أقبح صورة وسير السلطان الأمير بكبه المحمودي شحنةً إلى بغداد
فوصلها في رمضان. فقبض جميع أملاك الخليفة وأخذ غلاّتها، وثار جماعةٌ من عامة بغداد
فكسروا المنبر والشباك، ومنعوا من الخطبة وخرجوا إلى الأسواق يحثون التراب على
رؤوسهم ويصيحون ويبكون، وخرج النساء حاسراتٍ في الأسواق يلطمن ويبكين، واقتتل
أصحاب الشحنة والعامة فقُتل من العامة ما يزيد على مائة وخمسين رجلاً.
مقتل المسترشد بالله
كان مقتله في يوم الأحد سابع عشر ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة على باب
مراغة، وذلك أن السلطان سار في شوال من همذان إلى مراغة لقتال الملك داود ابن أخيه
محمود، وكان قد عصى عليه، فنزل على فرسخين منها والمسترشد معه وقد وكل به من
يحفظه. وترددت الرسائل بينهما في تقرير قواعد الصلح على مال يؤديه الخليفة للسلطان وأنه
لا يعود يجمع العساكر ولا يخرج من داره فأجاب السلطان إلى ذلك. وركب الخليفة وحمل
الغاشية ولم يبق إلا عَوْد الخليفة إلى بغداد، فوصل الخير أن الأمير قرآن خوان قد ورد
رسولاً من السلطان سنجر فتأخّر مسير المسترشد لذلك وخرج الناس إلى لقائه مع
السلطان. وفارق الخليفة بعض الموكلين به وكانت خيمته منفردةً عن العسكر فقصده أربعةٌ
وعشرون رجلاً من الباطنية فدخلوا عليه فقتلوه وجرحوه ما يزيد على عشرين جراحة،
ومثلوا به فجدعوا أنْفة وأُذنيه وتركوه عريان وقُتل نفَرٌ من أصحابه، منهم: أبو عبد الله بن
سكينه وبقي الخليفة حتى دفنه أهل مراغة. وقُتل من الباطنية عشرة وقيل بل قُتلوا كلهم،
وقد قيل إن السلطان سنجر أرسلهم لقتله.
وقُتل رحمه الله تعالى وله ثلاث وأربعون سنة وثلاثة أشهر. ومدة خلافته سبع عشرة سنة
وسبعة أشهرٍ ويومٌ واحد وكان رحمه الله شهماً شجاعاً كبير الإقدام بعيد الهِمّة وكان
فصيحاً بليغاً حسن الخط.
قال: ولما قُتل حُمل إلى باب مراغة وخرج أهلها حفاة حاسرين رؤوسهم فبلغوا جنازته

وكسروا المنابر. وقال: وصل الخبر إلى بغداد في يوم الجمعة لست بقين من ذي القعدة
فاجتمع الرجال والنساء وناحوا عليه في الطرقات وكسروا منابر الجوامع وأكثروا الشناعات
وسبّوا السلطان سنجر ومسعوداً أقبح سبٍّ من غير مراقبة ولا حِشمة: ولما قتل ولي بعده
ابنه الخليفة الراشد بالله.
خلافة الراشد بالله
هو أبو جعفر منصور بن المسترشد بالله أبي منصور الفضل بن المستظهر بالله وهو الخليفة
الثلاثون من الخلفاء العباسيين بويع له عند وصول الخبر بمقتل أبيه في يوم الاثنين السابع
والعشرين من ذي القعدة سنة تسع وعشرين وخمسمائة. وكتب السلطان مسعود بن محمد
السلجقي إلى بكبه الشحنة ببغداد، فبايع له، وحضر الناس البيعة. وحضر بيعته واحد
وعشرون رجلاً من أولاد الخلفاء وبايع له الشيخ أبو النجيب ووعظه وبالغ في الموعظة.
ذكر الحرب بين عسكر الخليفة الراشد بالله وعسكر السلطان مسعود
وفي سنة ثلاثين وخمسمائة وصل يرنقش الزكوي من عند السلطان مسعود يطالب الخليفة
بما كان استقر على أبيه المسترشد بالله من المال وهو أربعمائة ألف دينار فقال الخليفة: لا
شيء عندي والمال جميعه كان مع المسترشد فنُهب! ثم بلغ الراشد بالله أن يرنقش يريد
الهجْم على دار الخليفة وتفتيشها ليأخذ المال، فيجمع العساكر وأعاد عمل السور. فلما
علم يرنقش بذلك اتفق هو وشحنة بغداد على أن يهجموا على دار الخليفة يوم الجمعة فبلغ
ذلك الراشد فاستعد لمنْعهم وركب يرنقش ومعه الأمراء البكجية والعسكر، واجتمعوا في
نحو خمسة آلاف فارس ولقيهم عسكر الخليفة فاقتتلوا، وأعان العامة عسكر الخليفة
فأخرجوا عسكر السلطان ونهبت العامة دار السلطنة.
ثم حضر الملك داود بن محمود بعسكر أذربيجان واجتمع الأطراف ببغداد على الخروج
عن طاعة السلطان مسعود وفيهم عماد الدين زنكي وغيره، وولى الملك داود يرنقش بازدار
شحنكية بغداد. واتفق أن الخليفة قبض على ناصح الدولة أبي عبد الله الحسن ابن جهير

أستاذ الدار وكان هو السبب في ولايته، وقبض على جمال الدولة إقبال المسترشدي وعلى
غيرهما من أعيان الدولة، فتفرقت نيّات أصحابه عليه فشفع أتابك زنكي في إقبال. وخرج
موكب الخليفة مع وزيره جلال الدين أبي الرضي بن صدقة إلى عماد الدين زنكي يهنئه
بالقدوم، فأقام الوزير عنده وسأله أن يمنعه من الخليفة فأجابه إلى ذلك. وعاد الموكب بغير
وزير، وأرسل زنكي منْ حرس دار الوزير ثم أصلح حاله مع الخليفة وأعاده إلى وزارته. ثم
جدّ الخليفة في عمارة السور فأرسل الملك داود من قلع أبوابه وخرّب قطعةً منه، فانزعج
الناس ببغداد ونقلوا أموالهم إلى دار الخلافة، وقُطعت خطبة السلطان، وخُطب للملك
داود، وجرت الأيمان بين الخليفة والملك داود وعماد الديكي زنكي. ووصلت الأخبار
بمسير السلطان مسعود إلى بغداد لقتال ابن أخيه داود وزنكي. ثم وصلت رسل السلطان
إلى الخليفة بالبذْل من نفسه الطاعة والموافقة والتهديد لمن اجتمع عنده، فعرض الخليفة
الرسالة عليهم وكلمهم في قتاله، فكلٌّ رأى ذلك ووافقهم الخليفة!

مسير الراشد إلى الموصل
وخلعه

كان سبب ذلك أن السلطان مسعوداً لما بلغه اجتماع العساكر والملوك والأمراء ببغداد
على خلافه والخُطبة للملك داود ابن أخيه جمع العساكر وسار إلى بغداد ونزل بالملكية،
فسار بعض العسكر وطاردوا عسكره وعادوا، ونزل السلطان على بغداد وحصرها نيِّفاً
وخمسين يوماً، فلم يظفرْ منها بشيء. ثم عاد إلى النهروان عازماً على العوْد إلى همذان
فوصل إليه طرنطاي صاحب واسط ومعه سفنٌ كثيرةٌ، فعاد إلى بغداد وعبر إلى غرب
بدجلة واختلفت كلمة العسكر البغدادي فعاد الملك داود إلى بلاده في ذي القعدة وتفرق
الأمراء.

وكان زنكي بالجانب الغربي فعبر إلى الخليفة وسار إلى الموصل. ودخل السلطان بغداد
واستقر بها، وذلك في نصف ذي القعدة سنة ثلاثين وخمسمائة. قال وأمر السلطان فجمع القضاة والشهود والفقهاء وعُرض عليهم اليمين التي حلف بها

الراشد وفيها بخط يده "إنني متى جندت أو خرجت أو لقيت أحداً من أصحاب السلطان
بالسيف فقد خلعت نفسي من الأمر" فأفتوا بخروجه من الخلافة، وقيل إن الوزير شرف
الدين علي بن طراد الزينبي وكاتب الإنشاء ابن الأنباري وصاحب المخزن كمال الدين
طلحة كانوا منذ أسرهم مع المسترشد، فحضروا الآن معه، واجتمعوا في يوم الاثنين لأربع
عشرة ليلة بقيت من ذي القعدة سنة ثلاثين، وكتبوا محضراً شهد فيه جماعةٌ من العُدول بما
صدر من الراشد من الظُّلم وأخذ الأموال بغير حقها وسفْك الدماء وشُرب الخمور
وارتكاب المحارم، واستفتوا الفقهاء فيمن فعل ذلك هل تصِح معه إمامة أم لا؟ وهل يجوز
للسلطان أن يخلعه ويستبدل به من أهل بيت من هو خير منه طريقةً وديناً؟ فأفتى الفقهاء
بخلعه وفسْخ عهده والاستبدال به غيره، وعُرضت الفُتيا والمحضر على السلطان فقال: هذا
أمر قلدتكم إياه وأنا بريء منه عند الله! ثم خُلع وقُطعت خطبته من بغداد وسائر البلاد
في ذي القعدة وبويع بعده للمقتفي.
وكانت خلافته أحد عشر شهراً وأياماً، وكتب السلطان إلى أتابك زنكي في القبض عليه
وإرساله إلى بغداد فمنع من ذلك فارس الإسلام زين الدين علي بن بكتكين صاحب إرْبِل
رحمه الله وقال: واللّه لا سلّمناه حتى تُراق دماؤنا! واعتذر إلى السلطان وقال: أنا أخرجه
من ولايتي؟ فأرسل أنت عسكراً للقبض عليه من غير جهتنا!
وأعد زين الدين جماعة من الأكراد فساروا بين يديه على طريق لا يعرفها كثيرٌ من الناس
فوصل إلى مراغة أذربيجان ونزل ببريّة أبيه وتلقّاه أهلها وولّوه أمرهم فأقام بها يسيراً ثم
ارتحل إلى الري فلما قرب من بلاد الباطنية جرّد عسكره لقتل من وجد منهم فقتل منهم
جماعة ثم تنقّلت به الحال وكابد الغربة ووصل إلى همذان وسار منها يريد إصفهان. فلما
كان في الخامس والعشرين من شهر رمضان سنة اثنتين وثلاثين وثب عليه نفر من الباطنية
- وكانوا في خدمته علي زي الخراسانية - فقتلوه وهو يريد القيْلولة وكان قد بلّ من أثر
مرض قد برأ منه ودفن في شهرستان على فرسخ من إصفهان، وقتل أصحابه الباطنية

الذين قتلوه. ولما ورد الخبر بمقتل الراشد بغداد جلسوا للعزاء في دار النوبة يوماً واحداً.
وكان الراشد بالله أشقر اللون حسن الصورة، مهيباً شديد القوة والبطش.
خلافة المقتفي لأمر الله
هو أبو عبد الله محمد وقيل الحسين بن المستظهر بالله أبي العباس أحمد بن المقتدي بأمر
الله أبي القاسم عبد الله، وأمه أم ولد تدعى ياعي. وهو الخليفة الحادي والثلاثون من
الخلفاء العباسيين بويع له بعد خلع ابن أخيه الراشد بالله في ثامن عشر ذي الحجة سنة
ثلاثين وخمسمائة. وذلك أنه لما خُلع الراشد بالله استشار السلطان مسعود بن محمد
السُّلجقي جماعة من أعيان بغداد فيهم الوزير شرف الدين علي بن طرّاد الزينبي وكمال
الدين صاحب المخزن وغيرهما فيمن يصلح أن يلي الخلافة فقال الوزير: أحد عمومة الراشد
بالله وهو رجل صالح! قال: من هو؟ قال: لا أقدر أن أفصح باسمه لئلا يُقتل: فتقدّم إليهم
بعمل محضرٍ فعُمل المحضر على ما نذكره فلما كمُل المحضر أُحضر القاضي أبو طاهرٍ
الكرخي وشهدوا عنده بما تضمّنه المحضر فحكم بفِسق الراشد وخلعه وحكم بعده
غيره. ولم يكن قاضي القضاة بغداد ليحكم فإنه كان بالمؤصل عند أتابك زنكي فلما كمل
ذلك ذكره الوزير للسلطان وذكر دينه وعفّته ولين جانبه، فحضر السلطان إلى دار الخلافة
ومعه الوزير وصاحب المخزن وغيرهما وأمر بإحضار الأمير أبي عبد الله بن المستظهر من
المكان الذي كان يسكن فيه، فأُحضر وأُجلس في الميمنة ودخل السلطان وتحالفا وقررا
القواعد بينهما. وخرج السلطان من عنده وحضر الأمراء وأرباب المناصب والقضاة
والفقهاء. ولُقّب المقتفي بأمر الله.
وقيل في سبب هذا اللقب أنه رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يليَ الخلافة
بستة أيام وهو يقول: إن هذا الأمر يصير إليك فاقتف بي فلقِّب بذلك ولما بويع له سُيِّرت
الكتب الحكيمة بخلافته إلى سائر الأمصار واستوزر شرف الدين علي بن طراد الزينبي،
وأرسل إلى الموصل فأحضر قاضي القضاة علي بن حسين الرينبي - وهو بن عم الوزير -

وأعاده إلى منصبه، وأقر كمال الدين صاحب المخزن على منصبه، وأجرى الأمور على
أحسن نظام.
قال: وأرسل السلطان مسعود إلى الخليفة في تقرير إقطاع يكون لخاصته فكان جوابه "إن في
الدار ثمانين بغلاً تنقل الماء من دجلة، فلينظر السلطان ما يحتاج إليه مَنْ يشرب هذا الماء
فتقرّرت القاعدة على أن يجعل له ما كان للمستظهر فأجاب إلى ذلك وقال السلطان لما بلغه
قوله: "لقد جعلنا في الخلافة رجلاً عظيماً نسأل الله تعالى أن يكفينا أمره" قال: وخُطب له
على سائر المنابر إلا في الموصل، فإنه لم يُخطب له فيها إلا في شهر رجب سنة إحدى
وثلاثين وخمسمائة.
وفي سنة إحدى وثلاثين وخمسمائة تزوج الخليفة المقتفي فاطمة أخت السلطان مسعود
وكان الصداق مائة ألف دينار، والوكيل في قبول النكاح وزير الخليفة علي بن طراد، ووكيل
السلطان في العقد وزيره الكمال الدَّركزيني.
وفيها في الرابع والعشرين من آيار ظهر بالشام سحاب أسود وأظلمت له الدنيا، وصار الجو
كالليل المظلم، ثم طلع بعد ذلك سحاب أحمر كأنه نار أضاءت له الدنيا، وهبّ ريح
عاصف ألقت كثيراً من الشجر، وكان أشد ذلك بحوران ودمشق وجاء بعد ذلك مطر
كثير وبَرَدٌ كِبار.
وفي سنة اثنتين وثلاثين وخمسمائة وصل ملك الروم صاحب القسطنطينية إلى الشام وملك
بزاغه بالأمان لخمس بقين من شهر رجب ثم غدر بأهلها فقتل منهم وسبى على ما نذكره
إن شاء الله تعالى في أخبار الدولة الأتابكية في أيام زنكي.
وفيها انقطعت كسوة الكعبة للاختلاف الواقع بين الملوك السلجقية فقام بكسوتها رامشت
الفارسي التاجر، وكان من التجار المسافرين إلى الهند - وهو كثير المال - فكساها من
الثياب الحَبرة وبكل ما وجد إليه السبيل، فبلغ ثمن الكسوة ثمانية آلاف دينار مصرية.
وفيها كانت زلزلة عظيمة بالشام والجزيرة وديار بكر والموصل والعراق وغير ذلك من البلاد
فخُرِّب كثير منها، وهلك عالم كثير تحت الردم. ثم كانت زلازل كثيرة هائلة بالشام والجزيرة

وكثير من البلاد في سنة ثلاث وثلاثين، وكانت متوالية عدة أيام كل ليلة عدة دفعات وكان
أشدها بالشام، فعدّوا في ليلة واحدة ثمانين مرةً. ففارق الناس مساكنهم، ولم تزل تتعاهد من
أربع صفر إلى تاسع عشر، وكان معها صوت وهدة شديدة.
وفي سنة أربع وثلاثين وخمسمائة جرى بين الخليفة المقتفي وبين الوزير علي بن طراد منافرةٌ،
وسببها أن الوزير كان يعارض الخليفة في جميع ما يأمر به فنفر الخليفة من ذلك، فغضب
الوزير ثم خاف فقصد دار السلطان واحتمى بها، فأَرسل الخليفة إليه في العَوْد إلى منصبه
فامتنع. فاستناب قاضي القضاة الزينبي، وأرسل الخليفة رسلاً إلى السلطان مسعود في
معنى الوزير فأرخص السلطان للخليفة في عزله فعزله، ثم عزل الزينبي من النيابة، وناب
سديد الدولة بن الأنباري.
وفيها كانت زلزلة عظيمة بكنجة وغيرها من أعمال أذربيجان وأرّان، وكان أشدها
بكنجة فخُرِّب منها كثيرٌ، وهلك عالم قيل كانوا مائتي ألف وثلاثين ألفاً وتهدّمت قلعةٌ
هناك.
وفيها ابتنى الخليفة بفاطمة أخت السلطان مسعود وكان يوم حمْلها إلى دار الخلافة يوماً
مشهوداً. وغُلِّقت بغداد عدة أيام، وتزوج السلطان مسعود بابنة الخليفة.
وفي سنة خمس وثلاثين وخمسمائة وصل رسول السلطان سنجر ملكشاه إلى المقتفي ومعه
بُردة النبي صلى الله عليه وسلم والقضيب، وكان أخذهما من المسترشد لما قُتل.
وفيها ملك الإسماعيلية حصن مصافٍ بالشام وكان واليه مملوكاً لبني مُنْقذ أصحاب
شيزر، فاحتالوا عليه ومكّروا به حتى صعدوا إليه فقتلوه وملكوا الحصن.
وفيها توفي سديد الدولة بن الأنباري فاستوزر الخليفة بعده نظام الدين أبا نصرٍ محمد بن
الأنباري وكان قبل ذلك أستاذ الدار.
وفيها بنيت المدرسة الكمالية ببغداد بناها كمال الدين أبو الفتوح حمزة بن علي صاحب
المخزن ولما فرغت درّس فيها الشيخ أبو الحسن بن الخل.
وفي سنة أربعين وخمسمائة اتصل بالخليفة عن أخيه أبي طالب ما كرهه فضيّق عليه
وعلى غيره من أقاربه.

وفي سنة اثنتين وأربعين وخمسمائة في جمادى الأولى خُطب للمستنجد بالله يوسف بن
المقتفي بولاية العهد.
وفي سنة أربع وأربعين استوزر الخليفة أبا المظفر يحيى ابن هُبيرة وكان قبل ذلك ديوان
الزِّمام فظهرت منه كفاءة عظيمة، فرغب الخليفة فيه
واستوزره يوم الأربعاء لأربع خلون من
شهر ربيع الآخر.
وفيها كانت زلزلةٌ عظيمة، فيقال إن جبلاً بالقرب من حلوان ساخ في الأرض.
وفي سنة سبع وأربعين مات السلطان مسعود بن محمد بن ملكشاه بهمذان فلما وصل
الخبر إلى بغداد بموته هرب شحنتها مسعود بلال إلى تكريت فاستظهر الخليفة المقتفي على
داره ودور أصحاب السلطان ببغداد وأخذ أموالهم وودائعهم، واستبدّ الخليفة بالأمر وقطع
خطبة الملوك السلجقية وفوّض الأمر إلى الوزير ابن هبيرة!
ذكر تفويض أمور الدولة والوزارة إلى الوزير
عون الدين بن هبيرة
وما أقطعه الخليفة من الإقطاعات
كان الخليفة المقتفي لأمر الله لما استخلف خاف أن لا يملِّك تركياً لما جرى على أخيه
المسترشد ولم يمكنه المبادرة بذلك فلما تمكّن وقوي أمره ومات السلطان مسعود فوّض
الأمور إلى الوزير عون الدين أبي المظفر يحيى بن هبيرة، ولقّبه بتاج الملوك ملك الجيوش
وأقطعه إقطاعاً عظيماً وهو: واسط وبطائحها والبصرة والحلّة، والنيل، والنعمانية، وقرسان
ونهر الملك، ونهر عيسى ودجيل والراذان، وطريق خراسان، والقرايا، والنجف،
والبندنيجَيْن وبادَرايا، وباكسايا، وهيت والأنبار، وعين التمر، وشفاثاً. وأقطعه إقطاع وزير
السلطان وأعانه على الاستعداد للحرب وجهزه بالجيوش فاستولى على الحلة والكوفة
وواسط ثم عاد إلى بغداد وكانت غيبته خمسة وعشرين يوماً.
حصر تكريت
وعود عسكر الخليفة عنها وأسر ابن الوزير
وفي سنة ثمان وأربعين وخمسمائة سيّر الخليفة المقتفي لأمر الله عسكراً إلى تكريت وأرسل
عليهم مقدّماً أبا المنذر بن الوزير عون الدين والأمير ترشك وهو من خواص الخليفة

وغيرهما، فجري بين أبي المنذر وبين ترشك منافرة اقتضت أن كتب ابن الوزير يشكو منه،
فأمر الخليفة بالقبض على ترشك فعرف ذلك فأرسل إلى مسعود صاحب تكريت وصالحه
وقبض على أبي المنذر ومَنْ معه من المقدمين، وسلّمهم إلى مسعود بلال فانهزم العسكر
وسار مسعود وترشك من تكريت إلى طريق خراسان فنهباها وأفسدا. فسار الخليفة
لدفعهما، فهربا من بين يديه فقصد تكريت وحصرها أياماً، ثم عاد بعد أن جرى بينه وبين
أهلها قتالٌ من وراء السور وقُتل من عسكر الخليفة جماعة بالنِّشاب.
ووقعة بكمزا
وفي سنة تسع وأربعين وخمسمائة أرسل الخليفة رسولاً إلى صاحب تكريت بسبب مَنْ
عنده من المأسورين فقبض على الرسول. فسيّر المقتفي عسكراً فخرج أهل تكريت فقاتلوا
عسكر الخليفة، فسير عسكراً آخر، فمانعوه. فسار الخليفة بنفسه ونَزَل على البلد فهرب
أهله، فدخل عسكر الخليفة فشغبوا ونهبوا بعضه، ونصب على القلعة ثلاثة عشر منجنيقاً
فسقط من أسوارها برجٌ، وبقي الجيش كذلك إلى الخامس والعشرين من شهر ربيع الأول
فأمر الخليفة بالقتال والزحف، فاشتد القتال، وكثرت القتلى، ولم يبلغ منها غَرَضاً، فعاد إلى
بغداد ودخلها في آخر الشهر.
ثم أمر الوزير عون الدين بالعَوْد إليها والاستعداد والاستكثار من آلات الحصار، فسار إليها
في شهر ربيع الآخر وضيق عليها، فبلغه الخبر أن مسعود بلال وصل إلى شهراباان ومعه
البغوش كون خر وترشك في عسكر كبير ونهبوا البلاد فعاد الوزير إلى بغداد وكان سبب
تحَوّل هذا العسكر أنهم حثّوا الملك محمداً على قصد العراق فلم يتهيأ له ذلك، فسير إليه
هذا العسكر وانضاف إليهم خلقٌ كثير من التركمان.
فخرج الخليفة إليهم فأرسل مسعود بلال إلى تكريت وأخرج منها الملك أرسلان ابن
السلطان طغرل بن محمد وكان محبوساً بها وقال: هذا سلطان نقاتل بين يديه بإزاء الخليفة!
والتقى العسكران عند بكمزا بالقرب من بعقوبا، ودامت الحرب بينهم والمناوشة ثمانية

عشر يوماً، ثم التقوا في آخر شهر رجب واقتتلوا فانهزمت ميمنة عسكر الخليفة وبعض
القلب حتى بلغت الهزيمة بغداد، ونُهبت خزائنه وقتل خازنه، فحمل الخليفة بنفسه هو وولي
عهده وصاح: يا آل هاشم كذب الشيطان! وقرأ "وردّ الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا
خيراً" وحمل هو وبقية العسكر فانهزم مسعود ومن معه، وظفر الخليفة، وغنم العسكر
جميع ما هو للتركمان من دواب وغنم وغير ذلك. وكانوا قد أحضروا نساءهم وأولادهم
وخركاهاتهم فأُخذ جميع ذلك، فبيع كل كبْش بدانقٍ وأخذ كون خر الملك أرسلان وانهزم
به إلى بلد النجف وقلعة الماهكي.
ورجع الخليفة إلى بغداد فدخلها في أوائل شعبان المبارك، فأتاه الخبر أن مسعود بلال
وترشك قصدا مدينة واسط فنهبا وخربا فسيّر إليهم الوزير في عسكره، فانهزم العجم،
ولحقهم عسكر الخليفة ونهب شيئاً كثيراً، وعاد إلى بغداد فلُقّب الوزير سلطان العراق ملك
الجيوش، وسيّر الخليفة عسكراً إلى بلد النجف فاحتوى عليه.
وفي سنة خمسين وخمسمائة سار الخليفة إلى دقوقاً فحصرها وقاتل من بها، ثم رحل عنها
ولم يبلغ غرضاً.
وفيها استولى شملة التركماني على خوزستان وصاحبها حينئذ ملكشاه محمود، فسيّر
إليه عسكراً فقاتلهم شملة وهزمهم وأسر وجوههم، ثم أحسن إليهم وأطلقهم، وأرسل إلى
الخليفة المقتفي لأمر الله يعتذر منه فقبل عذره.
وفي سنة إحدى وخمسين وخمسمائة حصر السلطان محمد بن محمود السلجقي بغداد،
وكان قد راسل الخليفة في الخطبة له ببغداد والعراق، فامتنع الخليفة من إجابته، فسار من
همذان وواعده قطب الدين صاحب المَوصل أن يرسل إليه العسكر، فقدم في ذي الحجة
ودام الحصار والقتال إلى شهر ربيع الأول سنة اثنتين وخمسين، فبلغ السلطان محمد أن أخاه
ملكشاه وإيلدكز وأرسلان طغرل دخلوا همذان واستولوا عليها، فرجع عن بغداد ولم يبلغ
رضا، وتفرقت العساكر.
وفي شهر ربيع الأول سنة إحدى وخمسين أطلق ابن الوزير ابن هبيرة من حبس تكريت
فتلقته المواكب وكان يوماً مشهوداً.

وفيها في شهر ربيع الآخر احترق أكثر بغداد، واحترقت دار الخلافة.
وفي سنة اثنتين وخمسين وخمسمائة كان بالشام زلازل كثيرةٌ خربت كثيراً من البلاد والقلاع
والأسوار، وهلك من العالم ما لا يحصى كثرةً. ومما يدل على ذلك ما حكاه ابن الأثير في
تاريخه الكامل "أن معلماً كان بمدينة حماه يعلِّم الصبيان، ففارق المكتب لحاجة عرضت له
فجاءت الزلزلة فخرّبت البلد وسقط المكتب على الصبيان فهلكوا عن آخرهم - قال -
فقال المعلم: فلم يأت أحد يسألني عن صبيٍّ كان له! فيدل على موت جميع أهليهم.
وفيها قلع الخليفة المقتفي لأمر الله باب الكعبة وعمل عوضة باباً مصفحاً بالفضة المذهبة،
وعمل لنفسه من الباب الأول تابوتاً يدفن فيه إذا مات!
وفي سنة أربع وخمسين وخمسمائة في ثامن عشر ربيع الأول كثرت الزيادة في دجلة فغرقت
بغداد، وتهدّمت الدور وسور المدينة وكثر الخراب ولم يعرف الناس حدودهم على التحرير،
بل بالتخمين.
وفيها مات السلطان محمد الذي حاصر بغداد بمرض السُّلّ.
وفيها عاد ترشك إلى بغداد ولم يعرفه أحد ولا شعر به إلا وقد ألقى نفسه تحت التاج
ومعه سيف وكفن. فرضي عنه الخليفة، وأذِن له في دخول الدار وأنعم عليه بمال!
وفاة المقتفي
لأمر الله وشيء من أخباره
كانت وفاة المقتفي لأمر الله في شهر ربيع الآخر سنة خمس وخمسين وخمسمائة، وقيل
لليلتين خَلَتا من شهر رجب. ومولده في ثاني عشر ربيع الآخر سنة تسع وثمانين وأربعمائة،
وكان عمره ستاً وستين سنة تقريباً، ومدة خلافته أربعاً وعشرين سنة وشهوراً. وكان
شيخاً أبيض الرأس واللحية طويلها، وكان حليماً كريماً عادلاً حسن السيرة جميل الرأي
وافر العقل، شجاعاً مقداماً يباشر الحروب بنفسه، وكان يحب جمْع المال. وفي أول خلافته
ولّى القضاء بمدينة السلام لرجل يعرف بابن المرخم، وجعله يتولى عقوبة عماله ووجوه دولته
وأخذ أموالهم، فقال بعض الشعراء في ذلك:
ضخِّمي ويْكِ والطِّمِي وَلِيَ ابن المرخم
وآه على الحكم والقضا وعلى كلِّ مُسلم

وأرى المقتفي الإما   م عن الحق قد عَمِي
فبلغ المقتفي ذلك فأخذ الشاعر بنكاله وعذبه وما زاده ذلك إلا تمادياً في حاله. وهو أول
من استبد بالعراق منفرداً عن سلطان يكون معه من أول أيام الدَّيلم وإلى هذا الوقت، وأول
خليفة تمكن من عسكره وأصحابه وحكم على الخلافة منذ تحكم المماليك على الخلفاء
في خلافة المستنصر بالله وإلى الآن، إلا أن يكون المعتضد بالله. وكان المقتفي يبذل الأموال
العظيمة لأصحاب الأخبار في جميع البلاد حتى لا يفوتَه منها شيءٌ، وكانت دعوته بالعراق
والحجاز والشام وخراسان.
خلافة المستنجد بالله
هو أبو المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي عبد الله محمد بن المستظهر بالله، وأمه أم
ولد تدعى طاوُس وقيل نرجس، رومية. وهو الخليفة الثاني والثلاثون من الخلفاء بويع له
بعد وفاة أبيه في شهر ربيع الأول في سنة خمس وخمسين وخمسمائة وقبل لليلتين خَلَتا من
شهر رجب منها والله تعالى أعلم.
قال: وكان للمقتفي حظية وهم أم ولده أبي علي. فلما اشتدّ مرضه وأيست منه، أرسلت
إلى جماعة من الأمراء وبذلت لهم الإقطاعات الكثيرة والأموال الجزيلة ليساعدوها على أن
يكون ولدها الأمير أبو علي خليفةً فقالوا: كيف الحيلة مع ولي العهد؟ فقررت أنها تقبض
عليه إذا دخل، وكان يدخل على أبيه في كل يوم فقالوا: لا بد لنا من أحد أرباب الدولة فوقع
اختيارهم على أبي المعالي بن الكيال الهراس فدعوْه إلى ذلك فأجابهم على أن يكون
وزيراً، فبذلوا له ما طلب. فلما استقرت القاعدة بينهم أحضرت عدّة من الجواري
وأعطتهن السكاكين وأمرتهن بقتل ولي العهد المستنجد بالله. كان له خصيٌّ صغيرٌ يرسله
في كل وقت يتعرف أخبار والده فرأى الجواري وبأيديهن السكاكين وبيد أبي علي وأمه
سيفين، فعاد إلى المستنجد وأخبره.
وأرسلت هي إلى المستنجد تقول: "إن والدك قد حضرته الوفاة فاحضر لتشاهده
"فاستدعى أستاذ الدار عضُد الدين، وأخذ معه جماعةً من الفراشيين، ودخل الدار وقد

لبس الدِّرع والسيف في يده، فلما دخل ثار به الجواري فضرب واحدةً منهن فجرحها
وجرح أخرى وصاح فدخل أستاذ الدار والفراشون فهرب الجواري وأخذ أخاه أبا علي
وأمه فسجنهما، وقتل من الجواري وغرَّق وجلس للمبايعة فبايعه أهله وأقاربه.
وأول من بايعه عمه أبو طالب ثم أخوه أبو جعفر بن المقتفي وكان أكبر من المستنجد، ثم
بايعه الوزير ابن هبيرة، وقاضي القضاة، وأرباب الدولة والعلماء. وخُطب له في يوم الجمعة،
ونُثرت الدنانير والدراهم.
وقال ابن هبيرة الوزير عنه: إنه قال "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في المنام منذ
خمس عشرة سنة فقال لي: يبقى أبوك في الخلافة خمس عشرة سنة فكان كما قال رسول
الله صلى الله عليه وسلم في المنام" ثم قال "رأيته قبل موت المقتفي بأربعة أشهر، فدخل في
باب كبير ثم ارُتقَى إلى رأس جبل وصلّى بي ركعتين وألبسني قميصاً ثم قال لي: قل "اللهم
اهدني فيمن هديت" وذكر دعاء القنوت".
قال: ولما ولي المستنجد بالله أقر ابن هبيرة على وزارته، وأصحاب الولايات على ولاياتهم،
وأزال المكوس والضرائب، وقبض على ابن المرخّم وأخذ منه مالاً كثيراً وأخذ كتُبه
فأحرق منها ما كان من علوم الفلاسفة. وقدم عضد الدين ابن رئيس الرؤساء - وكان
أستاذ الدار - فمكّنه وتقدّم إلى الوزير بأن يقوم له، وعزل قاضي القضاة علي بن أحمد
الدامغاني، ورتّب مكانه أبا جعفر عبد الواحد الثقفي وخلع عليه.
ملك قلعة الماهكي
وفي شهر رجب سنة سبع وخمسين وخمسمائة ملك الخليفة قلعة الماهكي، وسبب ذلك
أن صاحبها سنقر الهمذاني سلّمها إلى أحد ممالكيه ومضى إلى همذان فضعف مملوكه عن
حفظها ومقاومة من حولها من الأكراد والتركمان فأُشير عليه ببيعها من الخلية فراسل في
ذلك؛ فاستقرّ بينهما خمسة عشر ألف دينارٍ وسلاحٌ ومتاع وعدةٌ من القرى فسلّمها وتسلّم
ما استقر له وأقام ببغداد، ولم تزل هذه القلعة من أيام المقتدر بالله بيد التركمان إلى الآن.
إجلاء بني أسد من العراق

وفي سنة ثمانٍ وخمسين وخمسمائة أمر الخليفة بإهلاك بني أسد أهل الحلة المزيدية لما ظهر
من فسادهم ولما كان في نفسه منهم من مساعدتهم للسلطان محمد في حِصار بغداد، فأمر
يزدن بن قماج بقتالهم وإخراجهم من البلاد، وكانوا منبسطين في البلاد في البطائح. فتوجّه
إليهم وجمع العساكر الكثيرة، وأرسل إلى ابن معروف مقدم المقتفي. وهو بأرض البصرة
فجاء في خلْقٍ كثير وحصرهم وسكَّ عنهم الماء وضيّق عليهم فاستسلموا، فقتل منهم
أربعة آلافٍ ونادى فيمن بقي "من وُجد في الحلة المزيدية بعد هذا فقد حل دمه فتفرقوا في
البلاد، ولم يبق في العراق منهم من يُعرف، وسُلِّمت بطائحهم وبلادهم إلى ابن معروف.
وفي سنة ستين وخمسمائة في صفر قبض المستنجد بالله على الأمير ثوبة بن العقيلي وكان
قد قرُب منه قُرْباً عظيماً حتى كان يخلو معه، وأحبّه محبة عظيمة، فحسده الوزير ابن
هبيرة، فوضع كُتُباً من العجم مع قوم وأمرهم أن يتعرضوا ليؤخَذوا ففعلوا ذلك، وأُخذوا
وأُحضروا عند الخليفة.
وأظهروا الكتب بعد الامتناع الشديد فلما وقف الخليفة عليها خرج إلى نهر الملك يتصيّد
وكانت حلل ثوبة على الفرات، فحضر عنده فأمر بالقبض عليه، فقبض عليه وأُدخل بغداد
ليلاً وحبس فكان آخر العهد بعده بالحياة، ومات بعد ثلاثة أشهر، وكان ثوبة من أكمل
العرب مروءة وسخاء وعقلاً وإجادة، واجتمع فيه من الكمال ما تفرق في غيره.
وفيها في جمادى الأولى توفي الوزير عون الدين يحيى بن محمد بن هبيرة ومولده سنة تسعين
وأربعمائة ودفن بمدرسته التي هو بناها للحنابلة بباب البصرة، ولما مات قبض على أولاده
وأهله!
وفي سنة ثلاث وستين وخمسمائة استوزر الخليفة المستنجد بالله شرف الدين أبا جعفر
أحمد بن محمد بن سعيد المعروف بابن البلدي، وكان ناظراً بواسط، وظهر عن كفاءةٍ
عظيمةٍ، فأحضره الخليفة واستوزره وكان عضد الدين أستاذ الدار قد تحكم تحكماً
عظيماً، فتقدّم أمر الخليفة إلى وزيره بكفّ يده وأيدي أصحابه ففعل ذلك، ووكل بأخيه تاج

الدين وطالبه بحساب نهر الملك وكان يتولاه أيام المقتفي، وكذلك فعل بغيره، فحصّل أموالاً
جمّةً وخافه أستاذ الدار على نفسه فحمل مالاً كثيراً وأعطاه الورقة التي بخط الخليفة فقال
له: تعود إليه وتقول قد أوصلت الخطّ إلى الوزير! ففعل ذلك وأحضر أستاذ الدار قطب
الدين ويزدن وأخاه تنامش وعرض عليهم الخط فاتفقوا على قتل الخليفة. فدخل عليه يزدن
وقابماز فحملاه إلى الحمام وهو يستغيث وألقياه وأغلقا الباب علي وهو يصيح حتى مات.
وقبض على الحسين بن محمد المعروف بابن البستي وعلى أخيه الصغير، وكانا ابنيْ عمِّ
عضد الدين. وكان الصغير عامل البيمارستان فقطع يده ورجله؛ فقيل إنه كان يستخرج
المال بصنوج كبار ويحمله إلى الديوان بصنجة صحيحة وقيل غير ذلك، وجمل إلى
البيمارستان فمات.
وفاة المستنجد
بالله وشيء من أخباره وسيرته
كانت وفاته في تاسع شهر ربيع الآخر سنة وست وستين وخمسمائة ومولده في مستهل شهر
ربيع الآخر سنة عشرة
وخمسمائة. وكان عمره ستاً وخمسين سنة وثمانية أيام، ومدة خلافته أحد عشر سنة
وشهراً واحداً وستة أيام على القول الأول. وكان أسمر، تامّ القامة؛ طويل اللحية.
وكان سبب موته أنه مرض واشتد مرضه؛ وكان بجانبه أستاذ الدار عضد الدين أبو الفرج
ابن رئيس الرؤساء وقطب الدين قليماز المقتفوي - وهما من الأمراء ببغداد - فوصيا
الطبيب على أن يصف له ما يقتله فوصف له دخول الحمام فامتنع لضعفه، فأدخله وأغلق
عليه بابه فمات. وقيل إنه كتب إلى الوزير... النصراني ابن صفية يأمره بالقبض على
أستاذ الدار.
وكان رحمه الله من أحسن الخلفاء سيرةً، عادلاً في الرعية كثير الرفق بهم، وأطلق كثيراً
من المكوس حتى لم يترك بالعراق شيئاً منها. وكان شديداً على أهل العبث والفساد
والسعاية قال ابن الأثير الجزري في تاريخه الكامل "بلغني أن المستنجد قبض على إنسان

كان يسعى بالناس فأطال حبسه، فشفع فيه بعض خواصه، وبذل عنه عشرة آلاف دينار
فقال: "أنا أعطيك عشرة آلاف دينار وتحضر لي آخر أحبسه لأكف سره عن الناس!" ولم
يطلقه وردّ كثيراً من الأموال على أصحابها رحمه الله.
خلافة المستضيء بأمر الله
هو أبو محمد الحسن بن المستنجد بالله أبي المظفر يوسف ابن المقتفي لأمر الله أبي عبد
الله محمد بن المستظهر بالله، وأمّه أم ولد أرمينية تدعى غضّة وهو الخليفة الثالث والثلاثون
من الخلفاء العباسيين، بويع له بالخلافة يوم وفاة أبيه في التاسع من شهر ربيع الآخر في سنة
ست وستين وخمسمائة.
قال: ولما مات المستنجد بالله كان بين الوزير أبي جعفر ابن البلدي وبين أستاذ الدار عضد
الدين وقطب الدين عداوة شديدة لأن المستنجد كان يأمره بأشياء تتعلق بهما فيفعلها
فيظنان أنه هو الذي يسعى بهما فلما أُرجف بموت المستنجد ركب الوزير ومعه الأمراء
والأجناد وغيرهم بالعُدوة ولم يتحققوا موت الخليفة. فأرسل إليه أستاذ الدار يقول: إن أمير
المؤمنين قد خفّ ما به من المرض وأقبلت العافية إليه! فخاف الوزير أن يدخل دار الخلافة
بالجُند فربما أنكر عليه ذلك، فعاد إلى داره وتفرّق الناس عنه.
وكان عضد الدين وقطب الدين قد استعدا للهرب لما ركب الوزير خَوفاً أن يدخل الدار
فيأخذهما، فلما عاد أغلق أستاذ الدار أبواب دار الخلافة وأظهر موت الخليفة، وأحضر
ولده أبا الحسن محمداً وبايعه هو وقطب الدين بالخلافة، ولقباه بالمستضيء بأمر الله،
وشرطوا عليه شروطاً منها: أن يكون عضد الدين وزيراً، وابنه جمال الدين أستاذ الدار،
وقطب الدين أمير العسكر، فأجابهم إلى ذلك، وبايعه أهل بيته البيعة الخاصة في يوم وفاة
أبيه، وبايعه الناس من الغد في التاج بيعةً عامة، وأظهر العدل وفرق أموالاً جليلة المقدار.
مقتل الوزير أبي جعفر
بن محمد المعروف بابن البلدي
قال: ولما علم الوزير بوفاة الخليفة سقط في يده وقرع سنّه ندماً على عوْده، وأتاه من
يستدعيه للجُلوس للعزاء والبيعة للمستضيء، فمضى إلى دار الخلافة فلما دخلها صُرف

إلى موضع وقتل وقُطِّع وأُلقي في دجلة، وأخذا جميع ما في داره، فرأيا خطوط المستنجد
بالله بأمره بالقبض عليهما، وخطُّ الوزير وقد راجعه في ذلك وصرفه عنه، فندما على
قتله.
وفي سنة سبع وستين وخمسمائة أُقيمت الدعوة العباسية بالديار المصرية وخطب للخليفة
بها، وانقرضت الدولة العُبَيدية المنسوبة إلى العلوية بخلْع العاضد لدين الله، وكان ذلك على
يد السلطان الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب رحمه الله على ما نذكر ذلك مبيّناً
- إن شاء الله تعالى - في أخبار الدولة العُبَيدية.
وفيها عزل الخليفة وزيره عضد الدين من الوزارة لأن قطب الدين قايماز ألزمه ذلك فلم
يمكنه مخالفة، ثم قصد الخليفة إعادته في جُمادى الأولى سنة تسع وستين فثارت الفتنة بين
الخليفة وقايماز، وأغلق قايماز باب النوبي وباب العامة وبقيت دار الخلافة محاصرةً. فأجاب
الخليفة إلى ترك وزارته فقال قايماز: لا أقنع إلا بخروج عضد الدين من بغداد! فأمر
بإخراجه منها فالتجأ إلى صدر الدين عبد الرحيم بن إسماعيل وهو شيخ الشيوخ وصار
في رباطه فأجاره، ثم عاد إلى داره في جمادى الآخرة.
وفي سنة تسع وستين وخمسمائة زادت دجلة فتجاوزت كل زيادة كانت ببغداد منذ بنيت
إلى الآن بذراع وكسر. وخاف الناس الغرق وفارقوا البلد ونبع الماء من البلاليع، وخُرِّب
كثير من الدور وغرق البيمارستان العضدي، ودخلت المراكب من شبابكيه وكانت قد
تقلعت.
وفيها سقط الأمير أبو العباس أحمد - وهو الذي صار خليفة ولُقِّب الناصر لدين الله -
من قبة عالية إلى أرض التاج ومعه غلام له اسمه نجاح، فألقى نفسه بعده وسلِما جميعاً فقيل
لنجاح: لم ألقيت بنفسك؟ فقال: ما كنت أريد البقاء بعد مولاي! فرعى له الأمير أبو
العباس ذلك فلما صار خليفة جعله شرابيا وحكّمه في الدولة ولقبه الملك الرحيم عز الدين
وخدمه جميع أمراء العراق.
وفيها في شهر رمضان وقع ببغداد بَرَدٌ كبار ما رأى الناس مثله فهدم الدور وقتل جماعةً

من الناس والمواشي، فوُزنت بردةٌ منه فكانت سبعة أرطال، وكان عامته كالنارنج يكسر
الأغصان، قال ابن الأثير هكذا ذكره أبو الفرج بن الجوزي في تاريخه والعهدة عليه فيه.
هرب قطب الدين قايماز
من بغداد وعود عضد الدين إلى الوزارة
كان سبب ذلك وابتداؤه أن علاء الدين تنامش - وهو من أكابر الأمراء ببغداد - وقطب
الدين قايماز زوج أخته سيّرا عسكراً إلى العراق في شوال سنة سبعين وخمسمائة فنهبوا
الناس وبالغوا في أذاهم، فجاء جماعة منهم إلى بغداد واستغاثوا فلم يُغاثوا لضعف الخلافة
وتحكم قايماز وتنامش على الدولة، فقصدوا جامع القصر واستغاثوا ومنعوا الخطيب من
الخطبة فأنكر الخليفة ما جرى، فلم يلتفت قايماز وتنامش إلى قوله.
فلما كان في خامس ذي القعدة قصد قايماز دار ظهير الدين بن العطار صاحب المخزن -
وللخليفة به عناية تامة وبينهما صُحبة - فلم يراع قايماز الخليفة فيه، واستدعاه فهرب،
فأحرق قطب الدين قايماز داره وحالف الأمراء على المساعدة والمعاضدة له، وجمعهم
وقصد دار الخلافة لعلمه أن ابن العطار فيها.
فلما علم الخليفة ذلك صعد إلى سطح داره وظهر للعامة وأمر خادماً فصاح وقال للعامة:
مال قطب الدين لكم ودمه لي! فقصد الخلْق كلهم دار قطب الدين للنهب، فلم يمكنه المُقام
لضيق الشوارع، وغلبت العامة، فهرب من داره من باب فتحه من ظهرها لكثرة مَنْ على
بابها من الخلْق. وخرج من بغداد، ونهبت داره وسلبت نعمته في ساعة واحدة وتبعه
وتنامش وجماعة من الأمراء، فنهبت دورهم وأحرق بعضها، وأخذت أموالهم.
وسار قطب الدين إلى الحلة ومعه من التحق من الأمراء، فسيّر الخليفة إليه شيخ الشيوخ
صدر الدين فخدعه حتى سار عن الحلة نحو الموصل على البر فلحقه هو ومن معه عطش
عظيم فهلك أكثرهم ومات قايماز قبل وصوله إلى الموصل، ودُفن بظاهر باب العمادي
وكانت وفاته في ذي الحجة. ووصل تنامش إلى الموصل فأقام مدة ثم أمره الخليفة بالقدوم
إلى بغداد فسار إليها وبقي بغير إقطاع!

قال: ولما هرب قايماز أُعيد عضد الدين إلى الوزارة وقال بعض الشعراء في قطب الدين
قايماز وتنامش بن قماج:
إن كنت معتبراً بمُلكٍ زائلٍ وحوادث عنقية الإدلاج
فدعِ العجائب والتواريخ الأُلى وانظر إلى قَيْماز وابن قماج
عطَف الزمان عليهما فسقاهما من صرفه كأساً بغير مزاج
فتبدّلوا بعد القصور وظِلّها ونعيمها بمهامه وفِجاج
فليحذر الباقون من أمثالها نكبات دهرٍ خائنٍ مِزعاج
قال: وكان قطب الدين كريماً طلْق الوجه، محباً للعدل والإحسان، كثير البذل للمال؛ وإنما
كان يحمله على ما يقع منه تنامش بغير إرادته.
وفي سنة إحدى وسبعين وخمسمائة ولّى الخليفة المستضيء حَجَبة الباب أبا نصر علي بن
الناقد وكان الناس تلقبه في صغره قنبراً، فصار الناس يصيحون به بهذا اللقب إذا ركب.
فأمر أن يركب معه جماعة من الأتراك يمنعون الناس من ذلك، فامتنعوا فلما كان قبل العيد
بثلاثة أيام خلع عليه ليركب في الموكب، فاشترى جماعة من أهل بغداد شيئاً كثيراً من
القنابر وعزموا على إرسالها في الموكب فأُنهِي ذلك إلى الخليفة فعزله وولى ابن المعوج.
وفيها قبض الخليفة على عماد الدين صندل المقتفوي أستاذ الدار ورتّب مكانه أبا الفضل
هبة الله بن علي بن هبة الله بن الصاحب.
مقتل الوزير عضد الدولة
وولاية ظهير الدين بن العطار
كان مقتله رحمه الله في رابع ذي القعدة سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة، وهو أبو الفرج
محمد بن عبد الله بن هبة الله بن المظفر ابن رئيس الرؤساء أبي القاسم بن المسلمة وسبب
مقتله أنه عزم على الحج وعبر دجلة للمسير ومعه أرباب المناصب وهو في موكب عظيم،
وتقدم إلى أصحابه أن لا يمنعوا عنه أحداً، فلقيه إنسان كهل وقال: أنا مظلوم!
وتقدم إليه يسمع كلامه فضربه بسكين في خاصرته، فصاح الوزير: قتلني! ووقع إلى الأرض
وسقطت عمامته، فغطّى رأسه بكمه وضرب الباطني بسيف، وعاد إلى الوزير فضربه
بسكين وأقبل صاحب الباب ابن المعوج لينصر الوزير، فضربه الباطني بسكين، وقيل بل
ضربه رفيق له، وكان له رفيق ثالث فصاح وبيده سكين فقُتل ولم يصنع شيئاً. وأحرق

الثلاثة، وحمُل الوزير إلى دارٍ له هناك، وحُمل الحاجب إلى بيته فمات هو والوزير.
وكان الوزير قد رأى في منامه أنه يعانق عثمان بن عفان، قال ابن الأثير: وحكى عنه ولده
أنه اغتسل قبل خروجه وقال: هذا غسل الإسلام وأنا مقتول بلا شك! وكان له معروف
كثير وكانت داره مجمعاً للعلماء وسمع الحديث، وختمت أعماله بالشهادة وهو على قصد
الحج رحمه الله. ولما قتل حكم في الدولة ظهير الدين أبو بكر ابن منصور المعروف بابن
العطاء، وكان حسن السيرة وتمكن تمكّناً عظيماً.
فتنة ببغداد وهدْم بيعة اليهود
وفي سنة ثلاث وسبعين وخمسمائة كانت الفتنة ببغداد، وسببها أن قوماً من مسلمي
المدائن حضروا إلى بغداد وشكَوا من يهود المدائن وقالوا: لنا مسجد نؤذّن فيه ونصلي وهو
مجاور لبيعة اليهود، فقال لنا اليهود آذيتمونا بكثرة الآذان وأنهم اختصموا هم والمؤذن،
وكانت فتنة استظهر فيها اليهود. فلما شكوا أمرَ ابن العطار بحبْسهم فحُبسوا، ثم خرجوا
فقصدوا جامع القصر واستغاثوا قبل صلاة الجمعة فخفّف الخطيب الخطبة والصلاة،
فعادوا يستغيثون فأتاهم جماعةٌ من الجند ومنعوهم، فغضب عامة بغداد لذلك واستغاثوا،
وخلعوا طوابيق الجامع ورجموا الجند بها، ثم قصدوا دكاكين المخلطين لأن أكثرهم يهود
فنهبوها. فأراد حاجب الباب منعهم فرجموه فهرب منهم، وضربوا الكنيسة التي عند دار
البساسيري، وأحرقوا الورق الذي فيها يزعم اليهود أنه التوراة. واختفى اليهود فأمر الخليفة
بنقض الكنيسة التي بالمدائن وتُبنى مسجداً ونُصب بالرحبة أخشاب ليصلب عليها أقوام
من المفسدين فظنها العامة تخويفاً لهم لجل ما فعلوه باليهود، فجعلوا عليها جرذاناً ميتة،
فأخرج جماعة من الحبس من اللصوص فصلبوا عليها وسكنت الفتنة!
وفاة المستضيء بأمر الله
كانت وفاته لليلتين خلنا من ذي القعدة سنة خمس وسبعين وخمسمائة، ومولده في سنة
ست وثلاثين، وكان عمره أربعين سنة تقريباً، ومدة خلافته تسع سنين وسبعة أشهر إلا

أياماً. وكان رحمه عادلاً حسن السيرة في الرعية، كثير البذل للأموال، حليماً، قليل المعاقبة
على الذنوب، محباً للعفو والصفح عن المذنبين، وأولاده أبو العباس أحمد وأبو منصور
هاشم.
خلافة الناصر لدين الله
هو أبو العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله وأمه أم ولدٍ تركية اسمها زمُرّد وهو الخليفة
الرابع والثلاثون من الخلفاء العباسيين، بويع له بالبيعة العامة في يوم الأحد ثاني ذي القعدة
سنة خمس وسبعين وخمسمائة، وقام له بالبيعة ظهير الدين بن العطار وبايع له، فلما تمّت
البيعة صار الحاكم في الدولة أستاذ الدار مجد الدين الصاحب، وسيّر الرسل إلى الآفاق
يأخذ البيعة له.
القبض على ابن العطار
وموته
وفي سابع ذي القعدة قبض على ظهير الدين بن العطار الوزير ووُكل به في داره، ثم نقل إلى
التاج وقُيّد وأُخذت أمواله وطُلبت ودائعه وأخرج ميتاً في ليلة الأربعاء ثاني عشر الشهر
على رأس حمّال. فغمز به بعض الناس فثار به العامة وألقوه عن رأس الحمال وكشفوا عن
سَوأته، وشدّوا في ذكره حَبْلاً وسحبوه في البلد وكانوا يضعون بيده مغرفة ويقولون: وقع لنا
مولانا! إلى غير ذلك من الأفعال الشنيعة، ثم خلص منهم ودفن.
قال: وفعلوا به هذه الأفعال القبيحة مع حُسن سيرته فيهم وكفّه هم أموالهم وأعراضهم.
وفي سنة سبع وسبعين وخمسمائة كثرت المنكرات ببغداد فأقام حاجب الباب جماعة
لإراقة الخمور وأخذ المفسدات، فبينما امرأة منهن في موضع علمت بمجيء الحاجب
فاضطجعت وأظهرت أنها مريضة وارتفع أنينها، فرأوها على ذلك فانصرفوا عنها، فهمت
بالقيام فلم تستطع وعجزت وجعلت تصيح: الكرب الكرب! إلى أن ماتت.
وفي سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة قبض الخليفة على أستاذ الدار مجد الدين أبي الفضل بن
الصاحب وقتله، وكان قد تحكّم في الدولة ليس للخليفة معه حُكْم. وكان الذي سعى به
عند الخليفة وقبّح آثاره رجلٌ من صنائعه وأصحابه يقال له عبيد الله بن يونس فقبض عليه

الخليفة وقتله، وأخذ أمواله وكانت عظيمة. وكان رحمه الله حسن السيرة، واستوزر
الخليفة بعده أبا المظفر عبيد الله بن يونس في شوال، ولقبه جلال الدين، ومشى أكابر الدولة
في ركابه حتى قاضي القضاة، وكان ابن يونس هذا من شهوده، فكان يمشي ويقول: لعن الله
طول العمر!
انهزام عسكر الخليفة من طغرل
كان طغرل السلجقي قد قوي أمره في سنة ثلاث وثمانين وخمسمائة وكثر جمعه، وأرسل إلى
بغداد يقول: أريد أن يتقدم إليّ الديوان بعمارة دار السلطنة لأنزل فيها إذا قدمت! فرد
الخليفة رسوله بغير جواب، وأمر بنقض دار السلطنة فهدِّمت إلى الأرض وعفي أثرها
ووصل رسول قزل - وهو صاحب أران وأذربيجان وهمذان وإصفهان والري وما بينهما -
ببذل الطاعة والخدمة ويستنجد الخليفة على طغرل، فأكرم الخليفة رسوله ووعده بتجهيز
العساكر إليه، وجهّزها في سنة أربع وثمانين وخمسمائة، وقدم عليها الوزير جلال الدين عبيد
الله بن يونس وسيرهم لمساعدة قزل وكف السلطان طغرل عن البلاد، فسار العسكر في
ثالث صفر إلى أن قارب همذان، فلم يصل قزل إليهم، وأقبل طغرل في عساكره، والتقوا في
ثامن شهر ربيع الأول بمرج عند همذان، فلم تثبت عساكر الخليفة وانهزمت، وبقي الوزير
قائماً ومعه مصحف وسيف، فأسر وأُخذ ما معه من خزانة وسلاح وغيره، وعاد العسكر
إلى بغداد متفرقين.
وفي سنة خمس وثمانين وخمسمائة خُطب لولي العهد أبي نصر محمد بن الخليفة الناصر لدين
الله ببغداد، ونثرت الدنانير والدراهم، وأُرسل إلى البلاد في إقامة الخطبة له.
وفيها في شوال ملك الخليفة تكريت، وسبب ذلك أن صاحبها الأمير عيسى قتله إخوته
وملكوا القلعة بعده، فسير الخليفة إليهم عسكراً فحصروها وتسلموها، ودخل أصحابها
إلى بغداد فأعطوا إقطاعاً.
وفي سنة ست وثمانين وخمسمائة في شهر ربيع الأول ملك الخليفة الناصر لدين الله حديثة
عانة، وكان قد سيّر إليها جيشاً في سنة خمس وثمانين وخمسمائة فحاصروها وقاتلوا عليها

شديداً، وقتل من الفريقين خلْقٌ كثير، ودام الحصار فضاقت الأقوات على أهلها، فسلموها
على إقطاع عيّنوه، ووصل صاحبها وأهلها بغداد وأُعطوا إقطاعاً ثم تفرّقوا في البلاد،
واشتدت بهم الحاجة حتى تعرّض بعضهم للسؤال وبعضهم خدم الناس.
وفي سنة تسع وثمانين وخمسمائة أمر الخليفة الناصر لدين الله بعمارة خزانة الكتب
بالمدرسة النظامية ببغداد، ونقل إليها من الكتب النفيسة ألوفاً لا يُقدَر على مثلها.
وفيها في شهر ربيع الأول كملت عمارة الرباط الذي أمر الخليفة بإنشائه بالحريم الظاهري
غربي بغداد على دجلة.
وفيها ملك الخليفة قلعة من بلاد خوزستان، وسبب ذلك أن صاحبها سوسيان بن شملة
جعل عليها دِزداراً فأساء السيرة مع جندا فغدر به بعضهم فقتله وأرسل إلى الخليفة،
وأرسل إليها وملكها.
وفيها انقضّ كوكبان عظيمان بعد طلوع الفجر واصطدما وسمع صوت هدّة عظيمة وغلب
ضوؤهما ضوء القمر والنهار.
وفي سنة تسعين وخمسمائة قتل السلطان طغرل السلجقي في حرب كانت بينه وبين خوارزم
شاه البلاد.
ملك الخليفة خوزستان
وفي سنة تسعين أيضاً خلع الخليفة الناصر لدين الله على نائب الوزارة مؤيد الدين أبي عبد
الله محمد بن علي المعروف بابن القصاب خلع الوزارة، وسار في شهر رمضان من السنة
إلى بلاد خوزستان بالعساكر. وقد كان قد خدم بها أولاً وعرفها، فلما ولي نيابة الوزارة
ببغداد أشار على الخليفة الناصر لدين الله أن يرسله بعسكر ليملكها. واتفق وفاة
صاحبها ابن شملة التركماني واختلاف أولاده، فأرسل بعضهم إلى مؤيد الدين يستنجده،
فقوي طمعه فيها، فسار إليها ودخلها في سنة إحدى وتسعين، وملكها في المحرم منها،
وملك غيرها من البلاد والقلاع: منها قلعة الناظر، وقلعة كاكرد، وقلعة لاموج، وغيرها من
القلاع والحصون، وأنفذ بني شملة التركماني أصحاب خوزستان إلى بغداد فوصلوا في ربيع
الأول.

ملك الوزير همذان
وغيرها من بلاد العجم
قال: ثم ملك الوزير مؤيد الدين المذكور همذان في شوال سنة إحدى وتسعين وخمسمائة من
عسكر خوارزم شاه وولده، فتوجه الخوارزميون إلى الري فتبعهم الوزير ففارقوها من غير
قتال وتوجهوا إلى دامغان وبسطام وجرجان. فعاد عسكر الخليفة إلى الري فأقاموا بها، ثم
رحل الوزير إلى همذان فأقام بها نحو ثلاثة أشهر وأتته رسل خوارزم شاه بطلب إعادة البلاد
وتقرير قواعد الصلح فلم يُجب الوزير إلى ذلك. فسار خوارزم شاه محمد بن تكش إلى
همذان فوجد الوزير قد توفي في شعبان، فوقع بينه وبين عسكر الخليفة الناصر لدين الله
مصافٌّ في نصف شعبان سنة اثنتين وتسعين، فقُتل من العسكرَيْن خلقٌ كثير، وانهزم
عسكر الخليفة، وغنم الخوارزميون منهم شيئاً كثيراً، وملك خوارزم شاه همذان ونبش
الوزير وقطع رأسه وسيره إلى خوارزم وأظهر أنه قتله في المعركة، ثم رجع خوارزم شاه إلى
خراسان لموجب عرض له .
ملك أصفهان
وفي سنة إحدى وتسعين جهّز الخليفة جيشاً وسيّره إلى أصفهان، ومقدم الجيش سيف
الدين طغرل فقطع بلد اللحف من العراق، وكان بإصفهان عسكر الخوارزم شاه مع ولده،
وأهل إصفهان يكرهونهم. فكاتب صدر الدين الخحندي رئيس الشافعية الديوان العزيز
ببغداد يبذل من نفسه تسليم البلد إلى من يصل إلى الديوان العزيز بالعسكر. فلما وصلت
العساكر ظاهر إصفهان فار قها العسكر الخوارزمي إلى خراسان وتبعهم عسكر الخليفة،
فأخذوا من قدروا عليه من ساقِةِ العسكر، ودخل عسكر الخليفة إلى إصفهان وملكوها.
قال: واجتمع مماليك ابن البهلوان وقدّموا على أنفسهم كوكجة وهو من أعيان البهلوانية،
واستولوا على الري وما حولها من البلاد، وساروا إلى إصفهان لإخراج الخوارزمية منها،
فسمعوا بوصول عسكر الخليفة إليها. فأرسل إلى طغرل مملوك الخليفة يعرض نفسه على
خدمة الديوان وأظهر العبودية وأنه إنما قصد إصفهان في طلب العسكر الخوارزمي، وأنه

ساق في طلبهم فلم يدركهم.
قال: ثم سار عسكر الخليفة من أصفهان إلى همذان، وساق كوكجه خلْف العسكر
الخوارزمي إلى بلاد الإسماعيلية، وعاد فقصد إصفهان وملكها. فأرسل إلى بغداد يسأل
أن تكون له الريّ وجواره وساوة وقم وقاجان وما ينضم إليها، وتكون إصفهان وهمذان
وزنجان وقزوين لديوان الخليفة. فأجيب إلى ذلك، وكتب منشوره بما طلب، وأرسلت إليه
الخلع، فعظم شأنه وقوي أمره وكثُرت عساكره.
وفي سنة إحدى وستمائة يوم الجمعة رابع عشر جمادى الآخرة قُطعت الخطبة وليّ العهد
أبي نصر بن الخليفة الناصر لدين الله، وذلك أنه أظهر خطّه بدار الوزير نصير الدين الرازي
إلى أبيه يتضمن العجز عن القيام بولاية العهد، ويطلب الإقالة، وشهد عدلان أنه خطه وأن
الخليفة أقاله، وعُمل بذلك محضر شهد فيه القضاة والعلماء والعدول والفقهاء.
وفي سنة أربع وستمائة عُزل وزير الخليفة نصير الدين ناصر بن مهدي العلوي، وكان من
أهل الدين. قدم إلى بغداد لما ملك الوزير ابن القصّاب الرَّيَّ، فلقِيَ نصير الدين من الخليفة
قبولاً فجعله نائب الوزارة، ثم استوزره وجعل ابنه صاحب المخزن. فلما كان في الثاني
والعشرين من جُمادى الآخرة، عُزل وأُغلق بابه. وسبب عزله أنه ساءت سيرته مع أكابر
مماليك الخليفة حتى هرب من يده أمير الحج مظفر الدين سنقر المعروف بوجه السبع إلى
الشام في سنة ثلاثٍ وستمائة وكتب إلى الخليفة أن هذا الوزير لا يُبقى في خدمة الخليفة
أحداً من مماليكه، ولا شك أنه يريد أن يدّعي الخلافة، وأكثر الناس القوْل في ذلك وقالوا فيه
الشعر، فمنه قول بعضهم:
ألا مبلغٌ عني الخليفة أحمداً تَوَقَّ وُقيت السوء ما أنت صانع
وزيرك هذا بين أمرين فيهما فَعالُك يا خير البريّة ضائعُ
فإن كان حقّاً من سُلالة أحمدٍ فهذا وزير في الخلافة طامع
وإن كان فيما يدّعي غير صادقٍ فأضْيَع ما كانت لديه الصنائع
فعزله، وقيل في سبب عزله غير ذلك. ولما عزل عاد أمير الحج من مصر وعاد قشتمر،
وأقيم في نيابة الوزارة فخر الدين أبو المنذر محمد بن أمسنا الواسط، إلا أنه لم يكن
متحكماً.

وفيها أطلق الخليفة جميع حق البيع، وما يؤخذ من أرباب الأمتعة أن ابنه عز الدين نجاح
الشرابي توفيت فاشترى بقرةً لتذبح ويتصدق بلحمها، فرفعوا في حسابها مؤونة البقرة -
وكانت كثيرة - فوقف الخليفة على ذلك، فأمر بإطلاق المؤونة جميعاً.
وفيها في شهر رمضان أمر الخليفة ببناء دور بمحال بغداد يفطر فيها الفقراء وسُميِّت دور
الخلافة.
وفي سنة ستٍّ وستمائة في شهر ربيع الأول عُزل فخر الدين بن أمسينا عن نيابة الوزارة،
وأُلزم بيته، ثم نُقل إلى المخزن، وولى بعد لنيابة الوزارة مكين الدين محمد بن محمد بن القمي
كاتب الإنشاء ولقب مؤيد الدين، ونقل إلى دار الوزارة.
وفي سنة اثنتي عشرة وستمائة في العشرين من ذي القعدة توفي الملك المعظم أبو الحسن
على ولد الخليفة الناصر لدين الله - وهو الولد الصغير - فحصل للخليفة عليه ألم عظيم لم
يسمع بمثله، وأمر الخليفة أن لا يعزّوه به وكانت له جنازة عظيمة لم يُسمع بمثلها، ولم يبق
ببغداد منزل إلا وفيه نَعيٌ.
وفاة الناصر
لدين الله وشيء من أخباره وسيرته
كانت وفاته في أخر ليلة من شهر رمضان سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكانت علّته
عشرين يوماً إصابة دوسنطاريا. وكانت مدة خلافته ستاً وأربعين سنة وعشرة أشهر
وثمانية وعشرين يوماً، قال ابن الأثير: وكان قبيح السيرة في رعيته ظالماً، فخُرِّب في أيامه
العراق وتفرّق أهله في البلاد، فأخذ أموالهم وأملاكهم. وكان كثير التلوّن بفعل الشيء
وضده، فمن ذلك أنه عمل دور الضيافة ببغداد ثم قطعها، ثم عمل داراً لضيافة الحج
وأبطلها، وأطلق بعض المكوس التي جددها ببغداد ثم أعادها، وجعل جُلّ همه في رمي
البندق والطيور المناسيب وسراويلات الفتوة، وبطل الفتوة من البلاد أجمع إلا من لبس منه،
ومنع الطيور المناسيب لغيره إلا ما يؤخذ من طيوره، ومنع من الرمي بالبندق إلا من ادّعى
له وانتسب إليه. فأجابه الناس إلى ذلك إلا رجلاً واحداً يقال له ابن السفت فإنه فارق

العراق والتحق بالشام فأرسل إليه يرغبه بالمال الجزيل ليرمي عنه وينتسب إليه فأبى. فأنكر
عليه بعض أصحابه ذلك فقال: يكفيني افتخاراً أن كل رام في الدنيا رمى الخليفة إلا أنا!
والعجم ينسبون إلى الناصر أنه هو الذي راسل التتار وجرّأهم على البلاد، وهذه المصيبة
العظمى إن كانت!
خلافة الظاهر بأمر الله
هو أبو نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله، وهو
الخليفة الخامس والثلاثون من الخلفاء العباسيين. بويع له البيعة العامة بعد وفاة والده
الناصر لدين الله في شوال سنة اثنتين وعشرين وستمائة، وكان قد خلع من ولاية العهد
وقطعت خطبته كما تقدم، وإنما فعل ذلك أبوه لميله إلى ولده الصغير، فلما مات اضطر إلى
إعادته لولاية العهد.
قال: ولما ولِيَ الخلافة أظهر العدل والإحسان وأمر بإبطال المظالم وكف الأيدي عن الناس،
وأعاد على الناس ما كان أبوه قد اغتصبه من أموالهم وأملاكهم، وأبطل المكوس
والحوادث. فمن ذلك أن المخزن كان له صنجة للذهب تزيد على صنجة البلد نصف
قيراط في الدينار، فيقبضون بها المال ويصرفون بصنجة البلد، فسمع بذل فخرج خطه للوزير
أوله: "ويل للمطففين" إلى قوله "ليوم عظيم" قد بلغنا الأمر كذا وكذا فتعاد صنجة المخزن
إلى الصحيحة المتعامل بها. فكتب إليه بعض النواب يقول: "إن هذا نبلغ كبير وقد حسبناه
فكان في السنة الماضية خمسة وثلاثين ألف دينار" فأعاد عليه الجواب بالإنكار ويقول: لو
كان ثلاثمائة ألف دينار وخمسين ألفاً يطلق،! وأطلق زيادة صنجة الديوان وهي في كل دينار
حبة، وتقدم إلى القاضي أن كل من عرض كتاباً قديماً بمِلْكٍ صحيح يعيده إليه من غير
إذنه. وأقام رجلاً صالحاً لولاية الحشري وبيت المال وكان حنبلياً فقال: إن مذهبي أن
أُورث ذي الأرحام فإن أذن أمير المؤمنين أن أفعل ذلك وليِتُ وإلا فلا! فقال أعط كل ذي
حق حقه واتّق الله ولا تتّق سواه! وأبطل مطالعات حراس الدروب ببغداد بأخبار الناس
وقال "لا يُكتب إلينا إلا فيما يتعلق بمصالح دولتنا".

ومنه أنه لما ولي الخلافة وصل صاحب الديوان من واسط وكان وُجّه في خلافة الناصر
لتحصيل الأموال، فأحضر ما يزيد على مائة ألف دينارٍ وطالع بذلك، فأعاد الخليفة الظاهر
الجواب بإعادة المال إلى أربابه، فأُعيد إليهم. وأطلق مَنْ كان في السجون وأمر أن يُحمل إلى
القاضي عشرة آلاف دينار يوفي بها دين مَنْ هو في سجن الحاكم على شيء يعجز عنه.
وتصدّق في ليلة عيد الفطر وفرّق في العلماء وأهل الدين مائة ألف دينار، ولم تطُل مدّته في
الخلافة.
وكانت وفاته في رابع عشر رجب سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فكانت مدة خلافته منذ
أفضى إليه الأمر تسعة أشهر وأربعة عشر يوماً. قال: وأخرج قبل وفاته توقيعاً بخطه إلى
الوزير ليقرأه على أرباب الدولة مقال الرسول. إن أمير المؤمنين يقول ليس غرضاً أن يقال برز
موسومٌ أو نفذ مثال لا يبين له أثر، بل أنتم إلى أمام فعال أحوج منكم إلى إمام قوّال! فقرأ
المرسوم فإذا فيه بعد البسملة "اعلموا أنه ليس إمهالنا إهمالاً ولا إغضاؤنا إغفالاً ولكن
نبلوكم أيكم أحسن عملاً، وقد غفرنا لكم ما سلف من إخراب البلاد وتسريد الرعايا
وتقبيح الشنعة وإظهار الباطل الجليّ في البلاد وتشريد الحَسَن الخفيّ حيلة ومكيدة،
وتسمية الاستئصال والاحتياج استيفاءً واستدراكاً لأغراض انتهزتم فرصتها مختلسة من
براثن ليثٍ باسل وأنياب أسد مهيب، تتفقون بألفاظ مختلفة على معنى واحدٍ، وأنتم أمناؤه
وثقاته فتميلون إلى هواكم، وتمزجون باطلكم بحقّه فيطيعكم وأنتم له عاصون، ويوافقون
وأنتم له مخالفون. والآن فقد بدل الله سبحانه بخوفكم أمناً، وبفقركم غنىً، وبباطلكم
حقاً. ورزقكم سلطاناً يُقيل العَثرة ولا يؤاخذ إلا من أصرّ، ولا ينتقم إلا ممن استمر، يأمركم
بالعدل وهو يريده منكم وينهاكم عن الجَور وهو يكرهه لكم، يخاف الله تعالى فيخوفكم
مكْره ويرجو الله تعالى ويرغبكم في طاعته فإن سلكتم مسالك نواب خلفاء الله في أرضه
وأمنائه على خلقه وإلا هلكتم، والسلام" قال: ووجد في داره رقاع مختومة لم يفتحها فقيل
له: ما عليك لو فتحتها! فقال: لا حاجة لنا فيها كلها سعايات!

خلافة المستنصر بالله

هو أبو جعفر المنصور ولُقّب في خلافته بالمستنصر بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن
الناصر لدين الله أبي العباس أحمد، وهو الخليفة السادس والثلاثون من الخلفاء العباسيين.
بويع له بالخلافة بعد وفاة أبيه الظاهر بأمر الله في رابع عشر شهر رجب ثلاثٍ وعشرين
وستمائة، فسلك من العدل والخير والإحسان مسلك والده، ونادى بإفاضة العدل وأن يطالع
الناس بحوائجهم. ولما كان أول جمعة أتت في خلافته أراد أن يصلي الجمعة في المقصورة التي
يصلي فيها الخلفاء فقيل له إن المطبق الذي يسلُك إليها فيه خَراب لا يُسلك فركب فرساً
وسار إلى الجامع ظاهراً للناس بخادم وركاب دار وعليه قميص أبيض وعمامة بيضاء
بسكاكين حرير، ولم يترك أحداً يمشي في خدمته. وكذلك فعل في الجمعة الثانية حتى صلح
المطبق!
وفي سنة خمس وثلاثين وستمائة كانت وقعةٌ بين التتار وعساكر الخليفة، وكان مقدم
العسكر الحليفتي جمال الدين بكلك الناصري. وقتل من الطائفتين خلق كثير، فانهزم عسكر
الخليفة وهو أول مصاف كان بين التتار وعسكر الخليفة، ودامت أيام المنتصر إلى سنة
أربعين وستمائة.
وكانت وفاته بكرة يوم الجمعة لعشر خلون من جمادى الآخرة منها، وكان سبب وفاته أنه
فُصِد بمبضعٍ مسموم فتُوفي. وكانت مُدّة خلافته سبع عشرة سنة إلا ثلاثة وثلاثين يوماً،
وكان الناس في زمن خلافته في شُغلٍ شاغلٍ عن ضبط أيامه بالتاريخ، لما دهمهم من حادثة
التتار. فلذلك اختصرنا أيامه وسترد أخبار التتار وخروجهم وما استولوا عليه من الممالك
وما فعلوه بأهل البلاد مبيّناً عند ذكرنا للدولة الخوارزمية والجنكزخانية - إن شاء الله
تعالى.

خلافة المستعصم بالله

هو أبو أحمد عبد الله بن المستنصر بالله أبي جعفر المنصور بن الظاهر بأمر الله أبي نصر
محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس أحمد بن المستضيء بأمر الله أبي محمدٍ الحسن بن

المستنجد بالله أبي المظفر يوسف بن المقتفي لأمر الله أبي
عبد الله بن المستظهر بالله أبي
العباس أحمد بن المقتدي بأمر الله أبي القاسم عبد الله بن
ذخيرة الدين أبي العباس أحمد
بن القائم بأمر الله أبي جعفر عبد الله بن القادر بالله أبي
العباس أحمد بن إسحاق بن
المقتدر بالله أبي الفضل جعفر بن المعتضد بالله أبي العباس
أحمد بن الموفق بالله أبي أحمد
طلحة وهو الملقّب بالناصر - ولم يلِ الخلافة - بن المتوكل علي
الله أبي الفضل جعفر بن
المعتصم بالله أبي إسحاق محمد بن الرشيد أبي محمد هارون
بن المهدي أبي عبد الله
محمد بن أبي جعفر المنصور بن محمدين علي بن عبد الله بن
العباس - رضي الله عنه -
بن عبد المطلب، وهو الخليفة السابع والثلاثون من الخلفاء
العباسيين، بويع له بالخلافة بعد
وفاة أبيه المستنصر بالله في يوم الجمعة لعشر خلون من
جُمادى الآخرة سنة أربعين
وستمائة.
وكان متديّناً متمسكاً بمذهب السُّنّة والجماعة، وحسّن له أصحابه
جمْع الأموال والاقتصار
على بعض مَنْ ببغداد من الجُند، وقطْع الباقي، ومسالمة التتار
وحمْل القطيعة إليهم ليكفّوا
عنهم، وقالوا له: هؤلاء ملكوا معظم بلاد الإسلام ولم يقف أحدٌ
من الملوك أمامهم"! فأذعن
إلى ذلك.
وفي سنة ثلاث وأربعين وستمائة قصد التتار بغداد، حتى انتهوا
إلى ظاهرها ونهبوا ما
مرّوا عليه من البلاد، فخرجت إليهم العساكر الخليفتية فأجّجوا
النيران بالليل ورحلوا،
ودامت أيام المستعصم بالله إلى أن ملك التتار بغداد.
مقتل المستعصم بالله
وانقراض الدولة العباسية واستيلاء هولاكو على بغداد
كان مقتله في العشرين من المحرم سنة ستٍّ وخمسين
وستمائة عندما استولى هولاكو على
بغداد على ما نذكره إن شاء الله في أخبار التتار. ولما ملك
هولاكو بغداد أحضر الخليفة
المستعصم بالله وأمر أن يُجعل في عِدلٍ ويُداس بأرجل الخيل
حتى يموت، ففعل به ذلك ومن
عادة التتار أن لا يسفكوا دماء الملوك والأكابر، وسبَى كل من
حواه قصر الخلافة من

الحريم، واستولى على ذخائر الخلفاء، ونُهبت بغداد، وبذلوا السيف فيها سبعة أيام متوالية
ثم رُفع في اليوم الثامن. وكانت خلافة المستعصم بالله خمسة عشر سنة، وسبعة أشهر،
وعشرة أيام. وكان الذي بعث هولاكو على قصد بغداد أن الوزير مؤيد الدين محمد بن
العلقمي كان شيعياً والشيعة يسكنون بالكرخ وهي محلة مشهورة بالجانب الغربي من
بغداد، فأحدث أهلها حدَثاً فأمر الخليفة ينهبِهم فنهبهم العَوام، فوجد الوزير لذلك وكاتب
هولاكو، وأخذ في التدبير على الخليفة وقطع أرزاق الجند، وأضعفَهم حتى تمكّن التتار من
أخذ البلاد.
قال: ولما فتح هولاكو بغداد وأحضر الوزير المذكور فقال: كيف كانت حالك مع الخليفة؟
فذكر ما كان عليه من التقدّم ونفاذ الكلمة وكثرة الأتباع وأنه كان يركب في جمعٍ عظيم،
فقال: إذا كان هذا فعلك في حق من قدمك وأحسن إليك كيف يكون منك معنا؟ وأمر
بقتله. وقيل استبقاه وأنّ امرأته رأته في يوم وهو على برذون ليس معه أحد فنظرت إليه
وقالت: يا ابن العلقمي هكذا كنت في أيام أمير المؤمنين؟
أخبار خلفاء الدولة العباسية بالعراق
ومن ولى منهم ومدة خلافتهم
ولي منهم بالعراق سبعة وثلاثون خليفةً وهم: أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن
عبد الله بن العباس وهو السفاح، ثم المنصور أبو جعفر عبد الله أخوه، ثم المهدي أبو عبد
الله محمد بن أبي جعفر المنصور، ثم ابنه الهادي أبو محمد موسى، ثم أخوه الرشيد أبو
محمد هارون، ثم ابنه الأمين أبو عبد الله محمد، ثم أخوه المأمون أبو العباس عبد الله، ثم
أخوه المعتصم بالله أبو إسحاق محمد بن الرشيد وهو أول مَنْ أضاف إلى لقبه اسم الله عز
وجل، ثم ابنه الواثق بالله أبو جعفر هارون، ثم أخوه المتوكل على الله أبو الفضل جعفر، ثم
ابنه المنتصر بالله أبو جعفر محمد، ثم المستعين بالله أبو العباس أحمد بن المعتصم بالله، ثم
المعتز بالله أبو عبد الله محمد بن المتوكل، ثم المهتدي بالله أبو عبد الله محمد بن الواثق، ثم
المعتمد على الله أبو العباس أحمد بن المتوكل على الله، ثم المعتضد بالله أبو العباس أحمد

بن الموفق طلحة بن المتوكل، ثم المكتفي بالله أبو محمد علي بن المعتضد، ثم المقتدر بالله
أبو الفضل جعفر بن المعتضد وخلع مرتين فالأولى بويع لابن المعتز والثانية بويع للقاهرة، ثم
القاهر بالله أبو منصور محمد بن المعتضد، ثم الراضي بالله أبو العباس أحمد بن المقتدر، ثم
المتقي لله أبو إسحاق إبراهيم بن المقتدر، ثم المستكفي بالله أبو القاسم عبد الله بن
المكتفي، ثم المطيع لله أبو القاسم الفضل بن المقتدر، ثم الطائع لله أبو بكر عبد الكريم بن
المطيع، ثم القادر بالله أبو العباس أحمد بن إسحاق بن المقتدر، ثم القائم بأمر الله أبو جعفر
عبد الله بن القادر، ثم المقتدي بأمر الله أبو القاسم عبد الله بن ذخيرة الدين أبي العباس
أحمد بن القائم، ثم المستظهر بالله أبو العباس أحمد بن المقتدي، ثم المسترشد بالله أبو
منصور الفضل بن المستظهر، ثم الراشد بالله أبو العباس جعفر المنصور بن المسترشد، ثم
المقتفي لأمر الله أبو عبد الله محمد بن المستظهر، ثم المستنجد بالله أبو المظفر بن المقتفي
ثم ابنه المستضيء بأمر الله أبو محمد الحسن، ثم ابنه الناصر لدين أبو العباس أحمد، ثم
ابنه الظاهر بأمر الله أبو نصر محمد، ثم ابنه المستنصر بالله أبو جعفر المنصور، ثم ابنه
المستعصم بالله أبو أحمد عبد الله.
وكانت مدة خلافتهم منذ بويع أبو العباس السفاح وإلى أن قتل المستعصم بالله خمسمائة
وثلاثاً وعشرين سنة وعشرة أشهُرٍ وستة أيامٍ وانقرضت الدولة العباسية وانقطعت دعوتهم
من سائر أقطار الدنيا ثلاث سنين وخمسة أشهرٍ وعشرين يوماً إلى أن عادت بالديار المصرية
المحروسة في الدولة الظاهرية.
ذكر عود الدولة العباسية وقيامها بالديار المصرية المحروسة خلافة المستنصر بالله
هو أبو العباس أحمد بن الظاهر بأمر الله أبي نصر محمد بن الناصر لدين الله أبي العباس
أحمد، بويع له بالخلافة بالديار المصرية في التاسع من شهر رجب سنة تسع وخمسين
وستمائة. وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في هذا اليوم، فركب السلطان الملك الظاهر
ركن الدين بيبرس للقائه في موكب مشهودٍ، وأنزله بقلعة الجبل وأمر بإثبات نسبه. وحضر

الأمراء والوزير وقاضي القُضاة ونوّاب الحُكم والفقهاء والصلحاء وأكابر المشايخ وأعيان
الصوفية واجتمعوا بقاعة العمد بقلعة الجبل وأمر السلطان بإحضار العُربان الذين حضروا
مع الخليفة فحضروا وحضر خادم من البغاددة فسئلوا عنه هل هو أحمد بن الظاهر قالوا
أنه هو!
فشهد جماعة من القضاة الأكابر بالاستفاضة وهم: جمال الدين يحيى نائب الحكم بمصر
والفقيه علم الدين ابن رشيق صدر الدين مرهوب الجزري ونجيب الدين الحراني، وسديد
الدين التزمنتي نائب الحكم بالقاهرة أنه هو فأَسجل قاضي القضاة تاج الدين عبد الوهاب بن
الأغر وحلف على نفسه بثبوت نسبه وهو قائم على قدميه، ولقّب المستنصر بالله على
اسم أخيه. وبايعه السلطان على كتاب الله وسُنة رسوله صلى الله عليه وسلم والأمر
بالمعروف والنهي عن المنكر، والجهاد في سبيل الله، وأخذِ الأموال بحقها وصرفها في
مستحقها، ثم بايعه الناس على اختلاف طبقاتهم ومراتبهم.
ولما تمّت بيعته قلّد السلطان البلاد الإسلامية وما يضاف إليها وما يفتحه الله تعالى على
يديه من البلاد، وكتب السلطان إلى سائر الأعمال بأخذ البيعة له، وأن يُخطب باسمه على
المنابر، وتُنقَش السكّة باسمه واسم السلطان. وخطب الخليفة بالناس في يوم الجمعة السابع
عشر من شهر رجب بجامع القلعة، ونُثرت عليه الدنانير والدراهم، وخلع على السلطان
وطوقه يوم الاثنين.
واستخدم السلطان للخليفة من يحتاج إليه من أرباب الوظائف فجعل الأمير سابق الدين
بوزبا أتابك العسكر، وكتب له بألف فارس وجعل الطواشي بهاء الدين صندل شرابيا
وكتب له بخمسمائة فارس والأمير ناصر الدين محمد بن صريم خزندارا وكتب له بمائتي
فارس، والأمير نجم الدين أستاذ الدار وكتب له بخمسمائة فارس، والأمير سيف الدين بلبان
الشمسي دواداراً وكتب له بخمسمائة فارس. وأمر جماعة من العربان بالطبلخانات
واشترى للخليفة مائة مملوك جعلهم جمدارية وسلحدارية وأعطى كلاً منهم ثلاثة أرؤس خيل

وجملاً لعدته. واستخدم له صاحب ديوان وكُتّاب إنشاء وأئمة ومؤذنين وحكماء
وجرائحية، وغلماناً. وكمّل له البيونات وجهّوه وجهّز معه ملوك الشرق الذين كانوا قد
وصلوا إلى السلطان وهم: الملك الصالح عماد الدين إسماعيل بن الملك الرحيم صاحب
الموصل، وكتب له بالموصل وولاياتها ورساتقها ونصيبين وولاياتها، ودارا وأعمالها، والقلاع
العمادية وبلادها، وغير ذلك مما جاوره. وكتب للملك المجاهد سيف الدين إسحاق أخيه
بلاد الجزيرة، وكتب للملك المظفر علاء الدين على سنجار وأعمالها التي كانت بيده.
وأرسل إليهم الطبلخانات والسناجق، وتقدم إليهم بسفرهم صُحْبته إلى الشام ليُجَهِزَهم إلى
مستقرهم صحبة الخليفة.
مسيره إلى بلاد الشرق
وقتله
قال: وتوجه الخليفة والسلطان والملوك إلى الشام في سادس شوال من السنة، وكان مبلغ
النفقة على الخليفة والملوك ألف ألف دينارٍ وستين ألف عيناً، ووصلوا إلى دمشق. ونزل
الخليفة بجبل الصالحية في برية الملك الناصر، وجرد السلطان عسكراً صحبه الأمير سيف
الدين بلبان الرشيدي وشمس الدين سنقر الرومي وودع السلطان الخليفة والملوك وسفرهم
وأوصى الرشيدي والرومي ومن معهما أن يقيموا بجهة حلب وبر الفرات ومتى طلبهم
الخليفة ساروا إليه.
وسار الخليفة إلى دمشق وعبر الفرات - ولم يتأنّ في أمره - فوصل عانة والحديثة. فخرج
عليه مقدم من مقدمي التتار اسمه أورداي ومعه تمانا، فالتقوا واقتتلوا فاستشهد الخليفة،
وقتل أكثر من كان معه.
وأما عن الملك الصالح فإنه دخل الموصل وملكها واستقرّ بها، فسار إليه أورداي المذكور
وحاصره، وملك البلد، وصلبه هو وابنه على باب الموصل، وانهزم أخواه الملك المجاهد
والمظفر عليّ إلى الديار المصرية، فأقاما بها إلى أن ماتا في الدولة المنصورية السيفية، رحمهما
الله.
وانقضت الخلافة، وانقرضت الدولة العباسية ثانية من سائر الأرض، وتعطّلت المنابر من

ذكر دعوتهم إلى أن عادت بالديار المصرية أيضاً ببيعة الخليفة الحاكم بأمر الله أبي العباس
أحمد.
خلافة الحاكم بأمر الله
هو أبو العباس أحمد بن محمد بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي الفتى بن الحسن
بن الخليفة الراشد بالله بن جعفر المنصور بن المسترشد بالله وقد تقدم نسبه مستوفى. بويع
له بالخلافة بالديار المصرية في يوم الخميس الثاني من المحرم سنة إحدى وستين وستمائة.
وذلك أنه وصل إلى الديار المصرية في سنة ستين وستمائة، فلما كان في هذا اليوم جلس
السلطان الملك الظاهر مجلساً عاماً، وحضر الخليفة راكباً إلى الإيوان الكبير بقلعة الجبل.
وجلس إلى جانب السلطان. وبايعه بعد ثبوت نسبه كما بايع المستنصر، ثم قلّد السلطان
أمور البلاد والجيوش. وبايعه الناس على اختلاف طبقاتهم، وكان ذلك بحضور الرسل ومن
وفد من التتار.
وخطب يوم الجمعة بجامع القلعة، ثم خطب مرةً ثانية في ثامن عشر شعبان بحضور رسل
بركة، ودعا للسلطان وللملك بركة وصلى بالناس. وحُجب السلطان الملك المنصور حسام
الدين لاجين المنصوري من البرج وأسكنه بالمناظر الصالحية المعروفة بالكبش ووسّع عليه
في رزقه ورزق أولاده.
وحجّ في هذه السنة ورجع، فكان بالمناظر إلى أن مات. وكانت وفاته في الثامن عشر من
جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة في دولة السلطان الملك الناصر الثانية وصلى عليه
الشيخ كريم الدين عبد الكريم الأبُلّي الصوفي - شيخ الصوفية بمشهد السيدة نفيسة -
ودفن بجوار المشهد. وكانت مدة خلافته أربعين سنة وأربعة أشهر، وستة عشر يوماً. وهو
أول خليفة دُفن بمصر من الخلفاء العباسيين، رحمه الله.
خلافة المستكفي بالله
هو أبو الربيع سليمان بن الحاكم بأمر الله وهو الثالث من خلفاء بني العباس بمصر،
والخليفة الأربعون من خلفائهم. بويع له يوم وفاة والده الحاكم بأمر الله في الثامن عشر من
جمادى الأولى سنة إحدى وسبعمائة وخُطب له على المنابر وحضر مع السلطان الملك

الناصر مصافّ مرْج الصُّفر الذي انهزم فيه التتار في ثاني شهر رمضان سنة اثنتين
وسبعمائةٍ.
واستمر في صحبة السلطان، يركب معه إلى الصيد وإلى الميدان، ويلعب الكرة. وسكن
بمناظر الكبش وغيرها من المساكن الحسنة المُتْرفة على نهر النيل، ورتّب له من النفقات
والكساوي وغير ذلك ما يحتاج إليه هو ومن عنده. وكذلك رتّب لابن أخيه إبراهيم، ولم
يحجر السلطان عليهما، بل يركب كل منهما متى شاء ويزور من شاء.
الباب الخامس من القسم الخامس من الفن الخامس
الدولة الأموية ببلاد الأندلس
كان ابتداء هذه الدولة في سنة ثمانٍ وثلاثين، وقيل تسع وثلاثين ومائةٍ، في خلافة أبي جعفر
المنصور الثاني من الخلفاء العباسيين، وأول من ملك بلاد الأندلس من بني أمية أبو المظفر
عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان. وقيل كنيته أبو المطرّف، وقيل
أبو سليمان، وقيل أبو زيد، وأمه بربرية من سبْي أفريقية واسمها راح ولقّب عبد الرحمن
بالداخل عند دخوله. وكان استيلاء عبد الرحمن على الأندلس في سنة ثمانٍ وثلاثين
ومائة. وقيل تسع وثلاثين. وكان سبب دخوله إليها واستيلائه عليها أنه لما قتل مروان بن
محمد، وانقرضت الدولة الأموية، وقتل من قتل من بني أمية، وتشتتوا في البلاد.. .. كان
عبد الرحمن هذا بذات الزيتون ففرّ منها إلى فلسطين، فأقام بها هو ومولاه بدرٌ يتجسّس له
الأخبار، فحكى عنه أنه قال:
"لما أعطينا الأمان ثم نُكث بنا بنهر أبي فُطرس أتاني الخبر وكنت منتبذاً عن الناس.
فرجعت إلى منزلي آيساً ونظرت فيما يصلحني وأهلي، وخرجت خائفاً حتى صرت إلى
قرية على الفرات ذات شجر وغياض. فبينا أنا ذات يوم فيها وولدي سليمان يلعب بين
يدي - وهو يومئذ ابن أربع سنين - فخرج عني ثم دخل ليَّ باكياً فزعاً، فتعلق بي وجعلت
أدفعه، وخرجت لأنظر فإذا بالخوف قد نزل بالقرية والرايات السود منحطة عليها وأخٌ لي
حَدَثٌ يقول لي: النجاة النجاة! فأخذت دنانير معي ونجوت بنفسي وأخي وأعلمت أخواتي

بمقصدي وأمرتهن أن يُلحقنني مولاي بدراً - قال - وأحاطت الخيل بالقرية فلو يجدوا لي
أثراً. فأتيت رجُلاً من معارفي وأمرته فاشترى لي دوابّ وما يصلحني فدلّ عليّ عبدٌ له
العاملَ، فأقبل خيله يطلبني فخرجنا على أرجلنا والخيل تبصرنا، فدخلنا الفرات فسبحنا
فنجوت أنا والخيل ينادون بالأمان وأنا لا أرجع وأما أخي فإنه عجز عن السباحة في نصف
الفرات فرجع إليهم بالأمان، فقتلوه وأنا أنظر إليه وهو ابن ثلاث عشرة سنة فاحتملت ثُكله
ومضيت وتواريت في غَيضة حتى انقطع الطلب عني. وخرجت فقصدت المغرب فبلغت
أفريقية، ثم ألحقتني أختي أم الإصبع مولاي بدراً بنفقةٍ وجوهرٍ.
قال المؤرخ: ولما بلغ أفريقية كان بها عبد الرحمن بن حبيب الفهري عاملاً لمروان بن محمد،
فظنّ عبد الرحمن بن معاوية أن ابن حبيب يرعاهم ويحوطهم ويحسن محاورتهم. فلما علم
ابن حبيب أن مروان قد قتل وأن أهله وولده قد تفرقوا وأن رجاله قد استأمنوا إلى أعمال
أبي العباس السفاح طلب لنفسه السلامة، وكتب بالسمع والطاعة، وأراد قتل عبد الرحمن
بن معاوية ومن معه والتقرب بهم إلى عمال السفاح. وأرسل في طلبه فهرب منه وأتى
مكناسة وهي قبيلة من البربر وعندهم شدة، ثم هرب منهم وأتى نفراوة وهم أخواله.
وقيل أتى قوماً من الزناتيين فأحسنوا قبوله فيهم وأخذوا في التدبير والمكاتبة إلى الأمويين من
أهل الأندلس يعلموهم بقدومه ويدعونهم إلى عبد الرحمن.
ووجه بدراً مولاه إليهم، وكان أمير الأندلس يومذاك يوسف بن عبد الرحمن الفِهْري فسار
بدر إليهم وأعلمهم حال عبد الرحمن ودعاهم إليه فأجابوه، ووجّهوا إليه مركباً فيه تمّام بن
علقمة ووهب بن الأصفر وشاكر بن أبي الأسمط، فوصلوا إليه وأبلغوه طاعتهم، وأخذوه
ورجعوا به إلى الأندلس فأرسى بالمركب بالجزيرة في شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين
ومائة. فأتاه جماعة من رؤسائهم من أهل إشبيلية، ثم انتقل إلى كورة ريّة فبايعه إبراهيم بن
شجرة عاملها. ثم سار إلى إشبيلية فبايعه أبو صالح يحيى بن يحيى، ونهض إلى قرطبة
فبلغ خبره يوسف بن عبد الرحمن وكان غائباً عن قرطبة بنواحي طليطلة، فأتاه الخبر وهو

راجعٌ إلى قرطبة فتراسل هو ويوسف في الصلح فخادعه، فلم يشك أصحاب يوسف في
انتظام الصُّلح وذلك في يومين أحدهما يوم عرفة، فأقبل يوسف في إعداد الطعام ليأكله الناس
في يوم الأضحى وعبد الرحمن يرتّب خيله ورجله وعبر النهر في أصحابه.
وأنشب القتال ليلة الأضحى، وصبر الفريقان حتى ارتفع النهار، وركب عبد الرحمن على
بغلة وأسرع في القتْل في أصحاب يوسف فانهزم وظفر عبد الرحمن بن معاوية. ولما انهزم
يوسف أتى مارِدة وأتى عبد الرحمن قرطبة، وأخرج حشَم يوسف وأهله من القصر على
تؤدة ورفق، ودخله بعد ذلك. ثم سار في طلب يوسف، فلما أحس به يوسف سار إلى
قرطبة فدخلها وملك قصرها، وأخذ جميع أهله وماله، ولحق بمدينة إلْبيرة. ورجع عبد
الرحمن إلى قرطبة فلم يجده فسار إلى إلبيرة، وتراسلا في الصلح فاصطلحا على أن ينزل
يوسف هو ومن معه بأمانٍ وأن يسكن مع عبد الرحمن بقرطبة ويرهنه يوسف ابنه أبا
الأسود محمداً وسار يوسف مع عبد الرحمن إلى قرطبة فلما دخل قرطبة تمثل:
فبينا نسوس الناسَ والأمْر أمرُنا إذا نحن فيهم سُوقة تتنصّف
قال: واستقر عبد الرحمن بقرطبة وبني القصر والمسجد الجامع، وأنفق فيه ثمانين ألف
دينار، ومات قبل تمامه.
مقتل عبد الرحمن
بن يوسف الفهري
قال: وفي سنة إحدى وأربعين ومائة نكث يوسف عبد الرحمن الفهري، وكان سبب ذلك
أن عبد الرحمن كان يضع عليه مَنْ يُهينه وينازع في أملاكه، فإذا اظهر حُجّته الشرعية لا
يُعمل بها، ففطن لما يراد منه. فقصد مارِدة واجتمع عليه عشرون ألفاً فسار نحو عبد
الرحمن، وخرج عبد الرحمن من قرطبة نحوه إلى حصن المدور ثم رأى يوسف أن يسير إلى
عبد الملك ابن عمر بن مروان - وكان والياً على إشبيلية وإلى ابنه عمر بن عبد الملك
وكان على المُدوَّر - فسار نحوهما فخرجا إليه واقتتلوا قتالاً شديداً فانهزم أصحاب

يوسف، وبقيَ متردّداً في البلاد فقتله بعض أصحابه في شهر رجب سنة اثنتين وأربعين ومائة
بنواحي طليطلة وحُمل رأسه إلى عبد الرحمن بن معاوية فنصبه بقرطبة وقتل ابنه عبد
الرحمن بن يوسف الذي كان عنده رهينةً ونصب رأسه مع رأس أبيه وبقي ابنه الأسود
عند عبد الرحمن.
وفي سنة ثلاث وأربعين ومائة ثار رِزق بن النعمان الغَسَّاني وكان على الجزيرة الخضراء.
فاجتمع إليه خلق كثير، فسار إلى شَذُونة فملكها ودخل مدينة إشبيلية. وعاجله عبد
الرحمن بها وضيّق على مَنْ فيها، فتقربوا إليه بتسليمه له. وأمَّنهم ورجع عنهم.
وفي سنة أربع وأربعين ومائة ثار هشام بن عذرة الفهري وهو من بني عمِّ يوسف بن عبد
الرحمن الفهري بطليطلة فحاصره الأمير عبد الرحمن وشدّد عليه الحصار فمال إلى الصلح
وأعطاه ابنه أفلحَ رهينةً فأخذه عبد الرحمن ورجع إلى قرطبة. ثم عاد هشام وخلع عبد
الرحمن، فعاد إليه وحاصره ونصب المجانيق عليها إلى على طليطلة فلم يؤثر فيها لحصانتها
فقَتَلَ ابنه أفلح ورمى برأسه إلى أبيه في المنجنيق ورحل إلى قرطبة. ولم يظفر بهشام في هذه
السنة واستمر إلى سنة سبع وأربعين ومائة فبعث عبد الرحمن مولاه برداً وتمام بن علقمة
فحصرا طليطلة وضيّقا على هشام ثم أسراه هو وحيوة بن الوليد اليحصُبي وعثمان بن
حمزة بن عبيد الله ابن عبد الله بن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فأتى بهم إلى عبد
الرحمن بن معاوية في جباب صوف وقد حلقت رؤوسهم ولحاهم، وركبوا الحمير وهم في
السلاسل، فصلبهم بقرطبة!
خروج العلاء وقتله
وفي سنة ست وأربعين ومائة سار العلاء بن مغيث اليحصُبي من أفريقية إلى مدينة باجة
من الأندلس، وليس السواد وقام بالدعوة العباسية. وخطب لأبي جعفر المنصور، واجتمع
إليه خلْقٌ كثير. فخرج إليه الأمير عبد الرحمن فالتقيا بنواحي إشبيلية وتحاربا زماناً،
فانهزم العلاء وأصحابه، وقُتل في المعركة سبعة آلاف فارس وقُتل العلاء، فأمر عبد الرحمن

بعض التجار بحمل رأسه ورؤوس أصحابه إلى القيروان وإلقائها في السوق سِراً ففعل ذلك.
ثم حُمل منها إلى مكة ومعه أسود فوصلت والمنصور بمكة ومعه كتاب كان المنصور قد
كتبه إلى العلاء.
وفي سنة سبع وأربعين ومائة قدم رسول عبد الرحمن الذي أرسله إلى الشام في إحضار
ولده الأكبر سليمان، وحضر معه سليمان.
خروج سعيد اليحصبي
المعروف بالمطري وقتله
قال: وكان خروجه في سنة ثمانٍ وأربعين ومائة بمدينة لبلة من الأندلس وسبب ذلك أنه
سكر يوماً، فتذكّر من قتل من قومه اليمانية مع العلاء، فعقد لواء فلما صحا رآه معقوداً،
فسأل عنه فأخبروه فأراد حلّه ثم قال: ما كنت لأعقد لواءً ثم أحلّه بغير شيء وشرع في
خلاف، فاجتمعت اليمانية إليه وقصد إشبيلية وتغلّب عليها وكثُر جمعه، فبادره عبد
الرحمن في جموعه. فامتنع المطري في قلعة زعواق لإحدى عشرة ليلة خلت من شهر ربيع
الأول فحصره بها وضيق عليه، ومنه أهل الخلاف من الوصول إليه.
وكان قد وافقه على الخلاف علقمة اللخمي وكان بمدينة شَذُونة وقد انضاف إليه جماعة
من رؤساء القبائل وهم يريدون إمداد المطريّ في جمْع كثيرٍ. فلما سمع عبد الرحمن بذلك
سيّر إليهم بدْراً مولاه في جيشٍ فحال بينهم وبين المطريّ، وطال الحصار وقلّت رجاله
بالقتل، وفارقه بعضهم. فخرج يوماً من القلعة فقاتل فقُتل وحُمل رأسه إلى عبد الرحمن،
فقدّم أهل القلعة عليهم خليفة بن مروان، فدام الحصار عليها. فأرسل أهلها يطلبون الأمان
من عبد الرحمن على أن يسلموا إليه خليفة فأجابهم إلى ذلك، وتسلّم الحِصْن وخرّبه وقتل
خليفة وخلْقاً كثيراً ممّن معه ثم انتقل إلى غِياثٍ الأزدي وكان مِمّن وافق المطريّ على
الخلاف فحصره ومِنْ معه وضيّق عليهم فطلبوا الأمان فأمّنهم إلا نفراً فقبض عليهم، وعاد
إلى قرطبة فلما عاد إليها خرج عليه عبد الله بن خراشة الأسدي بكورة جيّان واجتمع
إليه جموع فأغار على قرطبة فسيّر إليه عبد الرحمن جيشاً فتفرق جمعه، فطال الأمان

فأمّنه ووفى له.
وفي سنة تسع وأربعين ومائة أغزى عبد الرحمن مولاه بدراً إلى بلاد العدو فأخذ الجِزية
منهم.
وفيها عزل عبد الرحمن أبا الصباح حَيّ بن يحيى عن إشبيلية فدعاه إلى الخلاف،
فخدعه عبد الرحمن حتى حضر عنده فقتله.
وفيها خرج غياث بن المسيّر الأزدي، فخرج إليه عامل عبد الرحمن وقاتله فانهزم غياثٌ
ومنْ معه، وقُتل وحُمل رأسه إلى عبد الرحمن بقرطبة.
وفيها أمر عبد الرحمن ببناء سور مدينة قرطبة.
أخبار شقنا
بن عبد الواحد وخروجه بالأندلس
كان خروجه بشرق الأندلس في سنة إحدى وخمسين ومائة وكان من بربر مكناسة يعلّم
الصبيان وكانت أمّه تُدعى فاطمة فادّعى أنه من ولد فاطمة رضي الله تعالى عنها وأنه من
ولد الحسين، وتُسمّى بعبد الله بن محمد وسكن شنتبرية واجتمع عليه خلق كثير من البربر
وعظُم أمرُهُ فسار إليه عبد الرحمن فلم يقف له وزاغ في الجبال، فكان إذا أمن انبسط وإذا
خاف صعد الجبال حيث يصعُب طلبه. فاستعمل عبد الرحمن على طليطلة حبيب بن
عبد الملك، واستعمل حبيب على شنتبرية سليمان بن عفان بن مروان بن أبان بن عثمان
بن عفان رضي الله تعالى عنه، وأمر بطلب شقنا فنزل شقنا إلى سليمان فقتله. واشتدّ
ذِكر شقنا وطار اسمه، وغلب على ناحية قورية. وأفسد في الأرض، فعاد عبد الرحمن
وغزاه في سنة اثنتين وخمسين ومائة بنفسه، فلم يثبت له شقنا، فأعياه أمره فعاد عنه،
وسير إليه في سنة ثلاثٍ وخمسين بدراً مولاه، فهرب شقنا وأخلى حصنه شيطران، ثم
غزاه عبد الرحمن بنفسه في سنة أربع وخمسين فلم يثبت له، فعاد عنه وبعث لحرْبه أبا
عثمان عبد الله بن عثمان فخدعه شقنا وأفسد عليه جنده. فهرب عبد الله وغنم شقنا
عسكره، وقتل جماعة من بني أمية كانوا في العسكر وذلك في سنة خمس وخمسين ومائة.
وسار شقنا إلى حصن الهواريين وبه عامل لعبد الرحمن فمكر به شقنا حتى خرج إليه،

فقتله وأخذ خيله وسلاحه وما كان معه. ولم يزل شقنا كذلك وعبد الرحمن يغزوه تارة
بنفسه وتارة بجيوشه إلى سنة ستين ومائة فاغتاله أبو معْن وأبو خرَيم وهما من أصحابه،
فقتلاه وأخذا رأسه ولحقا بعبد الرحمن واستراح الناس من شره!

عصيان أهل إشبيلية
على الأمير عبد الرحمن

قال: وفي سنة خمس وخمسين ومائة خرج أهل إشبيلية عن الطاعة مع عبد الغفار وحيوة
بن مُلابِس، وكان عبد الرحمن قد خرج من قرطبة لحرب شنقا واستخلف عليها ابنه
سليمان فأتاه كتابه بخروجهم عن طاعته وعصيانهم عليه واتّفاق من بها من اليمانية على
ذلك. فرجع عبد الرحمن إليها ولم يدخل قرطبة، وهاله ما سمع من اجتماعهم وكثرتهم،
فقدّم ابن عمه عبد الملك بن عمر، فلما قارب عبد الملك إشبيلية قدّم ابنه أمية ليُعلِمه
حالهم، فرآهم متيقظين فرجع إلى أبيه فلامه أبوه على رجوعه وإظهار الوهن، فضرب عنقه
وجميع بنيه وخاصّته وقال: طردنا من المشرق إلى الأقصى هذا الصُّقْع ونُحسد على لقمة
تبْقِي الرمق، اكسروا جُفون سيوفكم فالموت أولى أو الظفر! ففعلوا، وحمل أمامهم فهزم
اليمانية وأهل إشبيلية فلم يَقُم بعدها لليمانية قائمةٌ.
وجُرح عبد الملك وبلغ الخبر عبد الرحمن فأتاه وجُرحه يجري دماً وسيفه يقطر وقد
لصقت يده بقائمة سيفه، فقبَّل بين عينيه وجزاه خيراً وقال له: يا ابن عم قد أنكحتُ ابني
وليَّ عهدي هشاماً ابنتك فلانة وأعطيتها كذا وكذا، وأعطيتك كذا وكذا، وأولادك كذا
وكذا، وأقطعتُك وإياهم كذا وكذا، ووليتك الوزارة! وعبد الملك هذا هو الذي ألزم عبد
الرحمن بقطْع خطبة المنصور وقال له: تقطعها وإلا قتلت نفسي! وكان قد خطب له عشرة
أشهر وقطعها.
قال: وفي سنة سبع وخمسين ومائة سار عبد الرحمن إلى إشبيلية وقتل خلْقاً كثيراً مِمّن
كان مع عبد الغفار، وبسبب هذه الوقعة وغِشّ العرب مال عبد الرحمن إلى اقتناء العبيد.
وفي سنة ست وخمسين سخط الأمير عبد الرحمن على مولاه بدر لفرط إدلاله عليه،

وأخذ ماله وسلب نعمته ونفاه إلى الثغور ولم يَرْع له حقوق الخدمة.
وفي سنة ثمان وخمسين ومائة غزا الأمير عبد الرحمن مدينة قورية وقصد البربر الذين كانوا
أسلموا إلى شقنا فقتل منهم خلقاً كثيراً من أعيانهم!
عبور الصقلبي إلى الأندلس
وما كان من أمره إلى أن قتل
وفي سنة إحدى وستين ومائة وقيل سنة ستين عبر عبد الرحمن ابن حبيب الفهري
المعروف بالصقلبي - ولم يكن صقلبياً وإنما سُمّي بذلك لطوله ورقته وشقرته - من أفريقية
إلى الأندلس ليحارب عبد الرحمن ويدعوه إلى طاعة المهدي بن أبي جعفر المنصور. وكان
عبوره في ساحل تُدمير، وكانت سليمان بن يقظان بالدخول معه، فيمن معه من البربر.
فقصد سليمان والتقوا واقتتلوا، فهزمه سليمان، فعاد الصقلبي إلى تدمير، وجاء عبد
الرحمن نحوه وأحرق السفن ليمنعه من الهرب، فقصد الصقلبي جبلاً منيعاً بناحية بَلَنْسِية.
فبذل عبد الرحمن ألف دينار لمن يأتيه برأسه فاغتاله رجل من البربر وحمل رأسه إلى عبد
الرحمن، فأعطاه ألف دينار، وكان قتله في سنة اثنتين وستين ومائة.
وفي سنة اثنتين وستين ومائة أرسل عبد الرحمن شهيد بن عيسى إلى دُحَيّة الغساني وكان
عاصياً في بعض حصون إلبيرة، فقتله وسير بدراً مولاه إلى إبراهيم بن شجرة وكان قد
عصى عليه فقتله. وسير تمّام بن علقمة إلى العباس البربري - وهو في جمع البربر وأظهر
العصيان - فقتله وفرق جموعه.
وفيها سيّر جيشاً مع حبيب بن عبد الملك القرشي إلى القائد السُّلمي، وكان حسن
المنزلة عند عبد الرحمن. فشرب ليلة وقصد باب القنطرة ليفتحه على سُكْرٍ، فمنعه
الحرس فعاد. فلما صحا من سُكره خاف فهرب إلى طليطلة واجتمع إليه كثير ممن يريد
الخلاف والشَّرّ فعاجله عبد الرحمن بإنفاذ الجيوش، فحصره في مكان كان قد تحصّن به،
فطلب السلّمي البراز فبرز إليه عبد أسود فاختلفا ضربتين فوقعا صريعين وماتا جميعاً.
وفي سنة ثلاث وستين ومائة ظهر الأمير عبد الرحمن التَّجَهُّزَ إلى الخروج لقصد الشام لطلب

الثأر من بني العباس فعصى عليه سليمان بن يقظان والحسين بن يحيى بن سعيد بن سعد
بن عبادة الأنصاري بسرقُسْطة واشتدّ أمرهما فرجع عن ذلك وترك ما كان أظهره منه.
وفي سنة خمس وستين ومائة غدر الحسين بن يحيى بسرقسطة ونكث، فسيّر إليه عبد
الرحمن غالب بن تمام بن علقمة في جُندٍ كثيف فاقتتلوا، فأسر جماعة من أصحاب الحسين
فيهم ابنه عيسى، فسيّرهم إلى عبد الرحمن فقتلهم، وأقام غالب بن تمام بن علقمة يحاصر
الحسين. ثم سار عبد الرحمن في سنة ست وستين إلى سرقسطة فحصرها وضايقها
ونصب عليها ستة وثلاثين منجنيقاً، فملكها عَنوةً قتل الحسين أقبح قتلة، ونفى أهل
سرقسطة منها ليمينٍ كانت تقدّمت منه، ثم ردّهم إليها.
وفي سنة ست وستين ومائة قتل عبد الرحمن ابن أخته المغيرة ابن الوليد بن هشام وهذيل
بن الصُّمَيْل وسمرة بن جبلة لاجتماعهم على خلْعه مع العلاء.
مخالفة أبي الأسود
محمد بن يوسف الفهري
وفي سنة ثمان وستين ومائة ثار أبو الأسود محمد بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري ببلاد
الأندلس. وكان من خبره أنه كان في السجن بقرطبة منذ هرب أبوه على ما تقدّم، فأظهر أنه
عَميَ وصار لا يطرف عينه لشيء، وبقي دهراً طويلاً حتى صح عند عبد الرحمن ذلك.
وكان في أقصى السجن سرداب يُفضي إلى النهر الأعظم يخرج منه المسجونون يقضون
حوائجهم من غسل وغيره، وكان الموكلون يهملون أبا الأسود لعماه فإذا خرج من النهر يقول:
من يدل الأعمى إلى موضعه! وكان مولى له بحادثه على شاطئ النهر فلا ينكر عليه.
فواعده أن يأتيه بخيلٍ يحمله عليها فخرج يوماً ومولاه ينتظره فعبر النهر سباحة وركب
الخيل ولحق بطليطلة فاجتمع إليه خلق كثير فرجع بهم إلى قتال عبد الرحمن. فالتقيا على
الوادي الأحمر بقسطلونة واشتدّ القتال فانهزم ابن الفهري، وقتل من أصحابه أربعة آلاف
سوى من تردّى في النهر. وأتبعه عبد الرحمن فقتل منْ لحق حتى جاوز قلعة رباح، ثم جمع
أبو الأسود الرجال وعاد إلى قتال عبد الرحمن سنة تسع وستين ومائة فهلك بقرية من أعمال

طليطلة. وقام بعده أخوه قاسم وجمع جمعاً فغزاه عبد الرحمن إليه بغير أمان فقتله.
وفي سنة سبعين ومائة أمر عبد الرحمن ببناء جامع قرطبة - وكان موضعه كنيسة -
وأخرج عليه مائة ألف دينار، ولم يتم بناؤه في حياته فأتمه ابنه بعده.
وفاة عبد الرحمن
وصفته وشيء من أخباره وسيرته
كانت وفاته بقرطبة في يوم الثلاثاء لست بقين من شهر ربيع الآخر سنة إحدى وسبعين
ومائة، وقيل توفي في غرة جمادى الأولى سنة اثنتين وسبعين ومائة، وهو الصحيح وصلى
عليه ابنه عبد الله، وكان قد عهد إلى ابنه هشام بمدينة مارِدة والياً عليها، وابنه سليمان
بطليطلة والياً عليها، فلم يحضرا موت أبيهما.
وكان مولد عبد الرحمن بدير حنا من عمل دمشق، وقيل العلياء من ناحية تدمُر في سنة
ثلاث عشرة ومائة فكان عمره تسعاً وخمسين سنة، ومدة ولايته بالأندلس ثلاثاً وثلاثين سنة
وأربعة أشهر وأربعة عشر يوماً. وكان أصهب خفيف العارضين طويل القامة نحيف الجسم
أعور، وكان فصيحاً لَسِناً شاعراً حليماً عالماً حازماً، سريع النهضة في طلب الخارجين
عليه. لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دعة، ولا يكبل أموره إلى غيره، ولا ينفرد في
إبرامها برأيه. وكان يُشبَّه بأبي جعفر المنصور في حزمه وشدّته وضبطه لملكه. وبنى
الرصافة بقرطبة تشبهاً بجده هشام حيث بنى الرصافة بالشام، فقال: وكان عبد الرحمن
من ذوي الآداب، وله شعر حسن، فمن شعره ما قاله بالأندلس يتشوق معاهده بالشام:

أيها الراكب المُيَمَّم أرضي أقْرِ من بعضي السلام لبعضي
إن جسمي كما علمْتَ بأرض وفؤادي كما عملت بأرض
قُدِّر البيْن بيننا فافترقنا وطوى البين عن جفوني غُمضي
قد قضى الله بالفراق علينا فعسى باجتماعنا سوف يقضي

ومن شعره ما قاله لما عمّر الرصافة بقرطبة، وقد رأى فيها نخلة منفردة، فقال:

تَبدّت لنا بين الرَّصافة نخلةٌ تناءت بأرض الغرب عن بلد النخل
فقلت شبيهي في التغرُّب مثلها وطول اكتئابي عن بنيَّ وعن أهلي

نشأت بأرضٍ أنت فيه غريبةٌ   فمثلك في الإقصاء والمنتأى مثلي
سقتك غوادي المُزن من صوْبها الذي   يسِحّ ويستمري السِّماكين بالوبل
وله غير ذلك من الشعر، وسار أحسن سيرة وكان نقش خاتمه "بالله يثق عبد الرحمن
ويعتصم". وكان له من الأولاد الذكور أحد عشر ولداً وهم أيوب الشامي ولد بالشام،
وسليمان وهشام ولي عهده وهو الوالي بعده وُلد بالأندلس، وعبد الله وله ببلنسية وعرب
بالبلنسي ومسلمة المعروف بكليب وأمية، ويحيى، والمنذر، وسعيد الخير، ومحمد،
والمغيرة، وتسع بنات.
حاجبه: تمام بن علقمة وغيره.
كتّابه: أبو عثمان، وعبد الله بن خالد، وغيرهما.
قضاته: يحيى بن يزيد التجيبي ومعاوية بن يوسف الحضرمي، وعمر بن شراحيل، وعبد
الرحمن ابن طريف اليحصبي.

إمارة هشام

هو أبو الوليد هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن مروان وأمه أم
ولد واسمها حوراء وهو الثاني من ملوك بني أمية بالأندلس. بويع له في جمادى الأولى سنة
اثنتين وسبعين ومائة عند وفاة أبيه، وقيل في يوم الثلاثاء لست بقين من شهر ربيع الآخر
سنة إحدى وسبعين ومائة والله أعلم. وكان بمارِدة متولياً عليها - كما ذكرنا - وكان أبوه
قد عهد إليه قبل وفاته، وقدّمه على سليمان وهو أكبر منه لأنه كان يتوسّم فيه الشهامة،
فلذلك عهد إليه فبايع له أخوه عبد الله وكتب إليه بنعي أبيه ويعزيه به ويعرفه أنه بايع الناس
له فلما وصل إليه الكتاب سار من ساعته إلى قرطبة فدخلها في ستة أيام، واستولى على
المُلْك، وخرج عبد الله إلى داره مُظهراً الطاعة وفي نفسه خلاف ذلك!

خروج سليمان وعبد الله
ابني عبد الرحمن على أخيهما هشام

وفي سنة ثلاث وسبعين ومائة خرجا على أخيهما، وكان عبد الله عند أخيه هشام وهو
يؤثره ويبرّه ويقدمه، فلم يُرضه ذلك ولا قنع إلا بمشاركته في الأمر، ثم خاف فهرب إلى

أخيه سليمان وهو بطليطلة. فأرسل هشام في أثره جماعةً ليردوه، فلم يدركوه، فجمع
هشام عساكره وسار إلى طليطلة فحصر أخويه بها.
وكان سليمان قد حشد وجمع جمْعاً كبيراً فلما حصرها هشام سار سليمان من طليطلة
وترك ابنه وأخاه عبد الله يحفظان البلاد، وسار هو إلى قرطبة ليملكها، فعلم هشام به فلم
يفارق الحصار.
وسار سليمان فوصل إلى شقندة فدخلها، وخرج إليه أهل قرطبة مقاتلين له، ودافعوه هم
المدينة. وبعث هشام في أثر سليمان عبد الملك في قطعة من الجيش، فلما قاربه هرب
سليمان وقصد مدينة ماردة، فحاربه واليها، فانهزم سليمان. وبقي هشام على طليطلة
شهرين وأياماً محاصراً لها، ثم عاد منها وقد قطع أشجارها، وسار إلى قرطبة، وأتاه أخوه
عبد الله بغير أمان فأكرمه وأحسن إليه.
ثم سيّر هشام ابنه معاوية في جيش كثيف في سنة أربع وسبعين إلى تُدمير وبها سليمان
فحاربه، وخرّب أعمال تُدمير، فهرب سليمان منها، فلجأ إلى البربر بناحية بَلَنسية،
فاعتصم بتلك الناحية الوعرة المسالك. وعاد معاوية إلى قرطبة، ثم استقرت الحال بين
هشام وسليمان أن يأخذ سليمان أهله وأمواله ويفارق الأندلس، وأعطاه هشام ستين ألف
دينار مصالحة عن ميراث أبيه عبد الرحمن وسار إلى بلد البربر فأقام به.

خروج جماعة أخر
على الأمير هشام

وفي سنة اثنتين وسبعين خرج عليه أيضاً سعيد بن الحسين بن يحيى الأنصاري بشاغنت
- من أقاليم طرطوشة في شرق الأندلس - وكان قد التجأ إليها حين قُتل أبوه، ودعا إلى
اليمانية وتعصّب لهم، فاجتمع له خلق كثير، فملك مدينة طرطوشة فأخرج عاملها يوسف
القيْسيّ. فعارضه موسى بن فرتون وقام بدعوة هشام، ووافقته مُضر، فاقتتلا فانهزم سعيد
وقُتل، وسار موسى إلى سرقسطة فملكها فخرج عليه مولى الحسين بن يحيى واسمه جحدر
في جمع كثير فقاتله فقُتل موسى.
وخرج أيضاً مطروح بن سليمان بن يقظان بمدينة برشلونة، وخرج معه جمع كثير، فملك

مدينة سرقسطة ومدينة وشْفة وتغلب على تلك الناحية وقَوِي أمره، وكان هشام إذ ذاك في
حرب أخويه سليمان وعبد الله، فلما خلا وجهه من أمر أخويه انتدب لمطروح جيشاً
كثيفاً وجعل عليهم أبا عثمان. فسار إليه وهو بسرقسطة فحصروه بها فلم يظفروا به،
فرجع عنه أبو عثمان ونزل بحصن طرسونة بالقرب من سرقسطة ورتّب سراياه يغيرون على
أهل سرقسطة ويمنعون عنهم الميرة. ثم خرج مطروح إلى الصيد في بعض الأيام، فلما كان
آخر النهار أرسل البازي على طائر فاقتنصه فنزل مطروح ليذبحه بيده ومعه صاحبان له
قد انفرد بهما عن أصحابه فقتلاه وأتيت برأسه إلى أبي عثمان، فسار إلى سرقسطة
فكاتبه أهلها فقبل منهم وأرسل الرأس إلى هشام.
قال: وأخذ أبو عثمان الجيش وسار بهم إلى بلاد الفرنج فأوقع بهم وظفر وقتل منهم خلقاً
كثيراً، وبعث هشام يوسف بن بخت في جيش إلى جليقية فلقِيَ ملكهم، فاقتتلوا قتالاً
شديداً فانهزمت الجلالقة وقتل منهم خلق كثير.
وفيها أيضاً سجن هشامٌ ابنه عبد الملك لشيء بلغه عنه، فبقي في السجن مدة حياة أبيه
وبعض ولاية أخيه إلى أن توفي سنة ثمان وتسعين ومائة.
وفي سنة ست وسبعين ومائة غزا عبد الملك بن عبد الواحد بلاد الفرنج فغنم وظفر.
وفيها استعمل هشام ابنه الحكَم على طليطلة وسيّره إليها يضبطها، وأقام بها، ووُلد له بها
ابنه عبد الرحمن.

غزو الفرنج

وفي سنة سبع وسبعين ومائة أغزى هشام عبد الملك بن عبد الواحد بن مغيث في
جيش، فدخلوا بلاد الفرنج فبلغوا أربونة وجرندة، فبدأ بجرندة وبها حامية الفرنج فقتل
رجالها وهدم أسوارها وأشرف على فتحها. ورحل عنها إلى أربونة ففعل مثل ذلك وأوْغل
في بلادهم ووطئ برطانية واستباح حريمها وقتل مقاتلتها وجاس البلاد شهوراً يُخرِّب
الحصون ويحرق ويغنم. وجفل العدو بين يديه، وأوغل في بلادهم ورجع ومعه الغنائم وما لا
يُحصى كثرة، وهي أشهر مغازي المسلمين بالأندلس.
وفي سنة ثمان وسبعين ومائة بعث هشام جيشاً مع عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث

إلى بلاد الفرنج فغزا ألبة والقلاع فغنم وسلم. وسيّر جيشاً آخر مع أخيه عبد الملك بن
عبد الواحد إلى بلاد الجلالقة فخرّب دار ملكهم وكنائسه وغنم، فلما قفل المسلمون ضلّ
الدليل بهم فنالهم مشقة شديدة ومات منهم خلق كثير، ونفقت دوابُّهم وتلفت آلاتهم، وعاد
من سلم منهم.
ثم بعثه في سنة تسع وسبعين في جيش كثيف فساروا حتى انتهزوا إلى أسْتُرقة وكان ملك
الجلالقة قد جمع وحشد واستمد جيرانه من الملوك، وصار في جمع عظيم. فلما قدم عبد
الملك رجع ملك الجلالقة هيبة له، وتبعهم عبد الملك يقفو أثرهم ويخرب، وهتك حريم ملك
الجلالقة! وبلغه أنه احتمى بواد فسار إليه وواقعه يوم الجمعة لليلتين بقيتا من جمادى الآخرة
فهزمه، وقتل من قمامصتهم ورؤسائهم كثيراً، ورجع سالماً.
وكان هشام قد سيّر جيشاً آخر من ناحية أخرى، فدخلوا البلاد أيضاً على ميعاد من
عبد الملك، فأخرجوا ونهبوا وغنموا فلما أرادوا الخروج من بلاد العدو عارضهم عسكر
الفرَنج، فنال منهم، وقتل من المسلمين، ثم تخلصوا وعادوا.
فتنة تاكرتا
وفي سنة ثمان وسبعين ومائة هاجمته فتنة تاكرتا بالأندلس، وخلع البربر الطاعة وأظهروا
الفساد، وأغاروا على البلاد وقطعوا الطريق، فسيّر هشام إليهم جيشاً كثيفاً عليهم عبد
القادر بن أبان بن عبد الله مولى معاوية بن أبي سفيان، فقصدوها وتابعوا قتال من فيها،
إلى أن أبادوهم قتلاً وسَبياً، وفرّ من بقي منهم فدخل في سائر القبائل، وبقيت كورة تاكرتا
خالية سبع سنين!
وفاة هشام
بن عبد الرحمن وشيء من أخباره وسيرته
كانت وفاته في ليلة الخميس لثلاث عشرة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة بقصر قرطبة
وكان عمره تسعاً وثلاثين سنة وأربعة أشهر، ومدة ولايته على القول الأول سبع سنين
وتسعة أشهر وثلاثة عشر يوماً. وكان أبيض مشرباً بحمرة أشهل، بعينيه حوَل وكان عاقلاً
حازماً ذا رأي وشجاعة وعدل، محباً لأهل الخير والصلاح، راغباً في الجهاد. وكان يعود

المرضى ويشهد الجنائز، ومن محاسن أعماله أنه أخرج متصدقاً يأخذ الصدقة على كتاب
الله وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. وهو الذي تمّم بناء جامع قرطبة وبنى عدّة
مساجد، وبلغ من عز الإسلام في ولايته وذل الكفر أن رجلاً مات وأوصى بفكّ أسير من
المسلمين من تركته، فطُلب ذلك فلم يوجد في دار الكفار أسير من المسلمين يُشترى ويفَكّ
لضعف العدو! وله مناقب كثيرة بالغ أهل الأندلس فيها حتى قالوا كان يُشبَّه بعمر بن عبد
العزيز، وكان نقش خاتمه "بالله يثق هشام ويعتصم".
وكان له من الأولاد الذكور عبد الملك الأكبر، والحكم الوالي بعده، ومعاوية، والوليد، وعبد
العزيز، وخمس بنات.
وزراؤه: أبو عثمان صاحب الأرض، ويوسف بن بخت وشهيد بن عيسى وغيرهم.
حجّابه: عبد الواحد بن مغيث إلى أن توفي، ثم ولده عبد الملك وهو رجل الأندلس جمع
الحِجابة والوزارة والكتابة والتقدُّم على الجيوش مع حسن الأدب والعفاف والدين والتواضع
والكرم والمروءة. كتابه: فطيس بن سلمة، وخطّاب بن يزيد. قاضيه: المصعب بن عمران
الهمذاني. أصحاب شرطته: الحسن بن بسام، ثم علي بن خريم المزني، ثم سعيد بن
عياض اليحصبي.
إمارة الحكم بن هشام
الملقب بالمرتضى
هو أبو العاص الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن
مروان بن الحكم، وأمّه أم ولد اسمها زخرف، وهو الثالث من ملوك بني أمية بالأندلس.
بويع له يوم الخميس لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة ثمانين ومائة، وتولّى أخْذ البيعة له
عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، ولما وليَ الحكم كان أول ما بدأ به الغزو في سبيل
الله تعالى.
غزو الفرنج
في هذه السنة أعني - سنة ثمانين ومائة - بعث الحكم جيشاً مع عبد الكريم بن عبد
الواحد بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فدخل البلاد وبثّ السرايا. وسيّر سرية، فجازوا خليجاً

من البحر كان الماء قد جزر عنه، وكان الكفار قد جعلوا أموالهم وأهلهم وراء ذلك الخليج
ظناً منهم أن أحداً لا يقدر أن يعبر إليهم. فجاءهم ما لم يكن في حسبانهم، فغنم المسلمون
جميع أموالهم، وأسروا الرجال وقتلوا منهم فأكثروا القتل، وسبوا الحريم والذّرِّيّة، وعادوا
سالمين.
وما أشبه هذه الواقعة بفتح طرابلس الشام! فإنه لما فتحها السلطان الشهيد الملك المنصور
سيف الدين قلاون الصالحي - قدّس الله روحه - في سنة ثمان وثمانين وستمائة جزر البحر
ساعة الفتح وانطرد عنها حتى دخل المسلمون بخيلهم إلى جزيرة النحلة وهي بعيدة عن
الميناء، وسنذكر ذلك إن شاء الله تعالى في موضعه.
قال: وعاد المسلمون إلى عبد الكريم وقد ملأوا أيديهم من الغنائم. وسير طائفة أخرى
فخربوا كثيراً من بلاد فرنسية وغنموا الأموال وأسروا الرجال فأخبرهم بعض الأسرى أن
جماعة من ملوك الفرنج قد سبقوا المسلمين إلى وادٍ وعْر المسلك على طريقهم وبلغ ذلك
عبد الكريم فجمع عساكره وسار على بغيته وجدّ السير، فلم يشعر الكفّار إلا وقد
خالطهم المسلمون ووضعوا السيف فيهم فانهزموا، وغنم المسلمون ما معهم وعادوا بالظفر
والغنيمة والسلامة.
خلافة بهلول
بن مرزوق وغيره
وفي سنة إحدى وثمانين ومائة خالف بهلول بن مرزوق المعروف بأبي الحجاج في ناحية
الثغر، ودخل مدينة سرقسطة فملكها. وقد على بهلول بها عبد الرحمن عم الحكم - وهو
المعروف بالبلنسي - وكان متوجهاً إلى الفرنج، ثم سار إلى مدينة طلبيرة فنزل بها مع
عمروس بن يوسف. فسار إليهم بهلول وحاصرهم فتفرق العرب عنهم، ودخل بهلول مدينة
طلبيرة وسار عبد الله إلى مدينة بلنسيبة فأقام بها وذلك في سنة أربع وثمانين.
وخالف عبيدة بن حسير بطليطلة، فأمر الحكم القائد عمروس بن يوسف وهو بمدينة
طلبيرة أن يحارب أهل طليطلة ففعل، وضيّق عليهم، وكاتب رجالاً من أهلها يُعرفون ببني

مخشي وأسمالهم، فوثبوا علي عبيدة، فقتلوه وحملوا رأسه إلى عمروس فأنزلهم عنده -
وكان بينهم وبين البربر الذين بمدينة طلبيرة دخول - فتسوّره البربر عليهم، فقتلوهم، فسيّر
عمروس رؤوسهم مع رأس عبيدة إلى الحكم وأخبره الخبر.
مسير سليمان لقتال الحكم
وقتل سليمان
وفي سنة اثنتين وثمانين ومائة جاز سليمان بن عبد الرحمن إلى بلاد الأندلس من الشرق
لحرب ابن أخيه الحكم، فسار إليه الحكم في جيوش كثيرة من أهل الشقاق ومَن يريد الفتنة،
والتقيا واقتتلا، واشتدت الحرب فانهزم سليمان وأتبعه عسكر الحكم. وعادت الحرب
بينهما ثانية في ذي الحجة، فانهزم سليمان واعتصم بالأوعار والجبال، فعاد الحكم، ثم عاد
سليمان فجمع بربراً وأقبل إلى جانب إستجة. فسار إليه الحكم فالتقوا واقتتلوا في سنة
ثلاث وثمانين، واشتد القتال فانهزم سليمان وقصد جهة ماردة فتبعه طائفة من عسكر
الحكم فأسروه، وأحضروه إلى الحكم فقتله، وبعث برأسه إلى قرطبة، وكتب إلى أولاد
سليمان وهم بسرقسطة كتاب أمانٍ واستدعاهم فحضروا عنده بقرطبة.
استيلاء الفرنج على برشلونة
وفي سنة خمس وثمانين ومائة ملَك الفرنج - لعنهم الله تعالى - مدينة برشلونة بالأندلس،
وأخذوها من المسلمين، ونقلوا حماة ثغورهم إليها، وتأخر المسلمون إلى ورائهم وكان سبب
ذلك اشتغال الحكم بمحاربة عمه سليمان بن عبد الرحمن.
ذكر الاتفاق بين الحكم وبين عمه عبد الله البلنسي
وفي سنة ست وثمانين حصل الاتفاق بين الأمير الحكم بن هشام وبين عمّه عبد الله بن
عبد الرحمن بن معاوية، وذلك أن عبد الله لما سمع بقتل أخيه سليمان عظم عليه وفُتَّ في
عضده، وخاف على نفسه، ولزم بلنسية ولم يتحرك لإثارة فتنة. وأرسل إلى الحكم يطلب
المسالمة والدخول في الطاعة، وقيل بل الحكم راسله في ذلك وبذل له الأرزاق الواسعة له
ولأولاده، فأجاب إلى ذلك، واستقر الصلح بينهما على يد يحيى بن يحيى صاحب الإمام
مالك بن أنس. وزوّج الحكم أخواته من أولاد عمه عبد الله، وأكرم عمّه وأجزى له

ولأولاده الأرزاق الواسعة والصلات السنية. وقيل كانت المراسلة في هذه السنة، واستقر
الصلح في سنة سبع وثمانين.
استيلاء الفرنج على مدينة تطيله
وفي سنة سبع وثمانين ومائة ملك الفرنج - لعنهم الله - مدينة تُطَيلة. وسبب ذلك أن
الحكم بن هشام استعمل على ثغور الأندلس قائداً كبيراً من قواده وهو عمروس بن
يوسف. فاستعمل عمروس ابنه يوسف على تطيلة. وكان قد انهزم من الحكم أهل بيت
من بيوت الأندلس أولو قُوّة وبأسٍ، وخرجوا عن طاعته، والتحقوا بالمشركين فقيَ أمرهمٍ،
واشتدت شوكتهم، وتقدموا إلى تُطيلة فحصروها وملكوها من المسلمين، وأسروا أميرها
يوسف بن عمروس وسجنوه وتقدموا بصخرة قيس. واستقرّ عمروس بمدينة سرقسطة
ليحفظها من الكفار، وجمع العساكر وسيرها مع ابن عم له، فلقي المشركين فقاتلهم وفَضّ
جمْعهم، وقتل أكثرهم، وسار إلى صخرة قيس بالجيش فحصرها وافتتحها وخلّص يوسف
منها.
إيقاع الحكم بأهل قرطبة
كان ذلك في سنة سبع وثمانين ومائة، وسببه أن الحكم في صدْر ولايته كان قد تظاهر
بشُرب الخمر والانهماك على الملذات. وكانت قرطبة دار علم وبها فضلاء أهل علم وورع،
منهم يحيى بن يحيى الليثي راوي موطأ مالك بن أنس وغيره. فثار أهل قرطبة وأنكروا
فعل الحكم وروموه بالحجارة وأرادوا قتْله، فامتنع منهم ثم سكن الحال واجتمع بعد ذلك
بأيام وجوه أهل قرطبة وفقهاؤها وحضروا عند محمد بن القاسم القرشي المرواني - عم
هشام بن حمزة - وأخذوا له البيعة على أهل البلد وعرّفوه أن الناس قد ارتضوه كافّةً.
فاستظهرهم ليلة ليرى رأيه، ويستخير الله تعالى فانصرفوا، وحضر هو عند الحكم وأعلمه
الحال وأنه على بيعته له لم يتغير، فطلب الحكم تصحيح ذلك عنده وسيّر مع محمد بن
القاسم بعض ثقاته فأجلسه محمد في قبة في داره وأخفى أمره، وحضر عنده القوم
يستعلمون منه هل يتقلد أمرهم أم لا. فأراهم المخافة على نفسه وعظّم عليهم الخطْب

وسألهم تعداد أسمائهم ومن معهم، فذكروا له جميع من معهم من أعيان البلد وصاحب
الحكم يكتب أسماءهم، فقال لهم محمد بن القاسم: يكون هذا الأمر يوم الجمعة إن شاء الله
تعالى في المسجد الجامع! فانصرفوا ومشى إلى الحكم مع صاحبه فأعلمه جلية الحال.
وكان ذلك يوم الخميس، فما جاء الليل حتى حَبَسَ الجماعة عن آخرهم، ثم أمر بهم بعد
أيام فصُلِبوا عند قصره وكانوا اثنين وسبعين رجلاً، وكان يوماً شنيعاً ثم كانت وقعة الرَّبض
بعد ذلك على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

إيقاع الحكم بأهل طليطلة

وهي وقعة الحُفرة

قال: وفي سنة إحدى وتسعين ومائة أوقع الحكم بأهل طليطلة، فقتل منهم ما يزيد على
خمسة آلاف رجل من أعيان أهلها. وكان سبب ذلك أن أهل طليطلة كانوا قد طمعوا في
الأمراء وخلعوهم مرة بعد أخرى، وقوِيت نفوسهم؛ ولحصانة بلدهم وكثرة أموالهم، فلم
يكونوا يطيعون أمراءهم طاعةً مُرْضِيةً. فلما أعيا الحكم شأنُهم أعمل الفكرة، فاستعان
بعمروس بن يوسف المعروف بالمولد، وكان قد ظهر في هذا الوقت بالثَّغر الأعلى، وأظهر
طاعة الحكم ودعا إليه فاطمأنّ إليه لهدا السبب. واستقدمه فقدِم عليه، فبالغ الحكم في
إكرامه وأطلعه على عزْمه في أهل طليطلة فوافقه عليه.
وكتب إلى أهلها يقول "إنني قد اخترت لكم فلاناً وهو منكم لتطمئنّ قلوبكم إليه وأعفيتكم
ممّن تكرهون من عُمّالنا وموالينا، ولتعرفوا جميل رأينا فيكم" ومضى عمروس ودخل
طليطلة فأنس أهلها به واطمأنوا إليه وأحسن عشرتهم.
وكان أول ما احتال به عليهم أن أظهر موافقتهم على بُغض بني أمية وخلْع طاعتهم، فمالوا
إليه ووثقوا به ورضوا بفعله ثم قال لهم: إن سبب الشر بينكم وبيم أصحاب الأمراء
اختلاطهم بكم، وقد رأيت أن أبني بناء أعتزل فيه أنا وأصحاب السلطان رفقاً بكم!
فأجابوه إلى ذلك، فبنى في وسط البلد ما أراد.
فلما مضى لذلك مدة كتب الحكم إلى عامل له على الثغر الأعلى سراً يأمره أن يرسل إليه
يستغيث من جيوش الكفرة، وطلب النجدة والعساكر، ففعل ذلك، فحشد الحكم الجيوش

واستعمل عليهم ابنه عبد الرحمن، وجهّز معه القواد والوزراء، فسار الجيش حتى اجتاز
مدينة طليطلة فلم يتعرض عبد الرحمن لدخوله إليهما. وأتاه وهو عندها خبر العامل على
الثغر الأعلى يقول "إن عساكر الكفرة قد تفرّقت وكفى الله شرها" فوقف العسكر وعزم
عبد الرحمن على العوْد إلى قرطبة فقال عمروس عند ذلك لأهل طليطلة: قد ترون نزول
ولد الحكم إلى جانبي، وأنه يلزمني الخروج إليه وقضاء حقه، فإن نشطتم إلى ذلك وإلا سرت
إليه وحدي! فقالوا: بل نكون معك.
فخرج ومعه وجوه أهل طليطلة فأكرمهم عبد الرحمن وأحسن إليهم، وكان الحكم قد
أرسل مع ولده خادماً له ومعه كتاب لطيف إلى عمروس فلقيه الخادم وصافحه وسلّم
الكتاب إليه من غير أن يحادثه. فلما قرأ عمروس الكتاب رأى فيه كيف تكون الحيلة على
أهل طليطلة، فأشار إلى عيون أهلها أن يسألوا عبد الرحمن الدخول إليه ليرى هو وأهل
عسكره كثرتهم وقوتهم ومتعَتهم فظنوا أنه ينصحهم، ففعلوا ذلك. وأدخلوا عبد الرحمن
البلد، فنزل مع عمروس في داره، وأتاه أهل طليطلة أرسالاً يسلمون عليه، وأشاع عمروس
أن عبد الرحمن يريد أن يتخذ لهم وليمة عظيمة. وشرع في الاستعداد لذلك وواعدهم يوماً
ذكره لهم، وقرر أنهم يدخلون من باب ويخرجون من آخر ليقلّ الزحام ففعلوا ذلك! وأتى
الناس أفواجاً عند الميعاد، فكان إذا دخل فوجٌ أُخذوا وحُملوا إلى جماعة من الجند على
حُفرة كبيرة في القصر فتضرب رقابهم. فمل تعالى النهار أتى بعضهم فلم ير أحداً فقال: أين
الناس؟ فقيل له: إنهم يدخلون من هذا الباب ويخرجون من الآخر! فقال: لم ألق منهم
أحداً! وعلم الحال فعاد وصاح بالناس وأعلمهم هلاك أصحابه، فكان سبب نجاة من بقي
منهم، ودانوا وحسنت طاعتهم بقية أيام الحكم وأيام ولده عبد الرحمن ثم كان منهم بعد
ذلك ما نذكره إن شاء الله تعالى.
عصيان أهل ماردة
على الحكم وما فعله بأهل قرطبة
وفي سنة إحدى وتسعين عصى أصبغ بن عبد الله على الحكم ووافقه أهل ماردة

وأخرجوا عامله عنها، فاتّصل الخبر بالحكم، فسار إليها وحصرها. فبينما هو في ذلك أتاه
الخبر عن أهل قرطبة أنهم أعلنوا العصيان له، فرجع إلى قرطبة مبادراً، فوصلها في ثلاثة
أيام وكشف عن الذين أثاروا الفتنة فصلبهم منكَّسين، وضرب أعناق جماعة. فارتدع
الباقون بذلك واشتدت كراهتهم للحكم، ولم يزل أهل ماردة تارة يطيعون وتارة يعصون إلى
سنة اثنتين وتسعين، فضعُف أمر أصبغ بن عبد الله لأن الحكم تابع إرسال الجيوش
واستمال جماعة من أهل ماردة وثقات أصحابه فمالوا إلى الحكم وفارقوا أصبغ حتى
أخوه، فضعفت نفسه فطلب الأمان فأمّنه الحكم، ففارق ماردة، وحضر إلى الحكم وأقام
بقرطبة.

غزو الفرنج

وفي هذه السنة تجهز لُذَريق ملك الفرنج وجمع جموعه ليسير إلى مدينة طرطوشة
ليحصرها، فبلغ ذلك الحكم فجمع العساكر وسيّرها مع ولده عبد الرحمن، فاجتمعوا في
جيش عظيم وتبعهم كثير من المتطوعة، فساروا حتى لقوا الفرنج في أطراف بلادهم قبل أن
ينالوا من بلاد الإسلام شيئاً، فاقتتلوا وبذل كل من الطائفتين جهده واستنفد وسعه فأنزل الله
تعالى نصره على المسلمين، وهزم الكفار وكثُر القتل فيهم والإسار، وانتُهبت أموالهم، ورجع
المسلمون بالظفر.

عصيان حزم على الحكم

وفي هذه السنة خالف حزم بن وهب بناحية باجة ووافقه غيره، وقصدوا لشبونة. فلما
بلغ الحكم الخبر، سار إليه الحكم في جمع كبير، فنازله وقطع الأشجار وضيّق عليهم حتى
أذعنوا إلى طلب الأمان، فأمّنه وأخذ رهائنه على المصالحة والطاعة، وعاد عنه الحكم إلى
قرطبة.

عودة أهل ماردة
إلى العصيان وغزو الحكم بلاد الفرنج

قال: ثم عاد أهل ماردة إلى العصيان والخلاف على الحكم في سنة أربع وتسعين، فسار
الحكم بنفسه إليهم وقابلهم. ولم تزل سراياه وجيوشه تتردد وتقاتلهم إلى سنة ست وتسعين

ومائة، فطمع الفرنج في ثغور المسلمين وقصدوها بالغارات والقتل والنهب والسبْي. وقد
شغل الحكم بأهل ماردة عنهم حتى أتاه الخبر بشدة الأمر على أهل الثغور وما نال العدو
منهم، وسمع أن امرأة أخذت أسيرة فقالت: واغوثاه يا حكم فعظُم عليه الأمر وجمع
العساكر واستعد وحشد، وسار إلى بلاد الفرنج في سنة ست وتسعين ومائة فأثخن في
بلادهم، وافتتح عدّة حصون وخرّب وقتل الرجال وسبى الحريم ونهب الأموال، وقصد
الناحية التي بها تلك المرأة فأسر لهم من الأسرى ما يفادون به أسراهم، وبالغ في الوصية في
تخليص تلك المرأة فخلصت من الأسر وقتل بقية الأسرى.
فلما فرغ من غزاته قال لأهل الثغور: أغاثكم الحكم؟ قالوا: نعم! وأثنوا عليه خيْراً،
وعاد إلى قرطبة مظفراً منصوراً.
وفي سنة سبع وتسعين ومائة اشتد الغلاء بالأندلس وعمّ البلاد، ومات كثير من الخلق،
وكان أكثر الناس يطوون للعدم.
وقعة الربض بقرطبة
وفي سنة ثمان وتسعين ومائة كانت وقعة الربض بقرطبة، وسببها أن الحكم كان كثير
التشاغل بالشرب واللهو والصيد وغير ذلك مما يُجانسه، وقد قدّمنا ما كان قد فعله بأهل
قرطبة لما أرادوا خلْعه ومَنْ صلب منهم. فزادت كراهة أهلها فيه، وصاروا يتعرّضون
لجُنده بالأذى والسبّ، وبالغوا حتى إنهم كانوا ينادون عند انقضاء الأذان الصلاة يا مخمور
الصلاة! وشافهه بعضهم بالقول وصفقوا عليه بالأكف. فشرع في تحصين قرطبة وعمارة
أسوارها، وحفر خنادقها، وارتبط الخيل على بابه، واستكثر من المماليك، ورتب جمْعاً لا
يفارقون باب قصره بالسلاح. فزاد ذلك في حقد أهل قرطبة، وتحققوا أنه يفعل ذلك للانتقام
منهم، ثم وضع عليهم عُشر الأطعمة في كل سنة من غير حِرْص فكرهوا ذلك.
ثم عمد إلى عشرة من رؤسائهم وصلبهم، فهاج لذلك أهل الربض، وانضاف إلى ذلك أن
مملوكاً له سلّم إلى صيْقل سيفاً ليصقله له فمطله الصقيل، فأخذ ذلك المملوك السيف ولم يزل
يضرب به ذلك الصقيل إلى أن مات وذلك في شهر رمضان من هذه السنة، فكان أول من

شهر السلاح أهل الرَّبض القبلي، واجتمع أهل الأرباض جميعهم بالسلاح، واجتمع الجُند
والأمويون والعبيد بالقصر. وفرق الحكم الخيل والسلاح، وجعل أصحابه كتائب.
ووقع القتال بين الطائفتين، فغلبهم أهل الربض وأحاطوا بالقصر، فنزل الحكم من أعلى
القصر ولبس سلاحَه وحرّض الناس على القتال، فقاتلوا قتالاً شديداً. ثم أمر ابن عمّه
عبيد الله فثلم من السور ثلمة، وخرج منها بقطعة من الجيش وأتى أهل الربض من وراء
ظهورهم فلم يشعروا به، وأضرم الناس في الربض. فانهزم أهله وقتلوا قتلاً ذريعاً وأُسِر من
وجد في المنازل والدور فانتقى الحكم ثلاثمائة من وجوه الأسرى فصلبهم منكسين، ودام
النهب والقتل والحريق في أرباض قرطبة ثلاثة أيام.
ثم استشار الحكم فيهم عبد الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فأشار عليه بالصفح
عنهم والعفو، وأشار غيره بالقتل، فقبل عبد الكريم. وأمر فنُودي بالأمان على أنه من بقِيَ
من أهل الربض بعد ثلاثة أيام قتل وصُلب، فخرج من بقي منهم بعد ذلك مستخفياً،
وتحملوا على الصعب والذلول وخرجوا من حضرة قرطبة بنسائهم وأولادهم وما خفّ من
أموالهم. وقعد لهم الجند والسفلة بالمرصاد، ينهبون أموالهم، ومن امتنع عليهم قتلوه!.
فلما انقضت الأيام الثلاثة أمر الحكم بكفِّ الأذى عن حرم الناس، وجمعهن إلى مكان
واحد، وأمر بهدْم الربض القبلي. وكان بزيع مولى أمية بن الأمير عبد الرحمن بن معاوية
محبوساً في حبْس الدم وفي رجله قيدٌ ثقيل، فلما رأى أهل قرطبة قد غلبوا الجُند سأل
الحرس أن يُفرجوا عنه فأخذوا عليه العهد أن يعود فأطلقوه، فخرج فقاتل قتالاً شديداً لم
يكن في الجيش من قاتل مثله، فلما انهزم أهل الربض عاد إلى السجن، فانتهى خبره إلى
الحكم فأطلقه وأحسن إليه. وقيل إن هذه الوقعة كانت في سنة اثنتين ومائتين والله أعلم.
قال بعض المؤرخين: اجتمع في الربض أربعة آلاف فقيه وطالب!
وكان ممّن خرج عليه يحيى بن يحيى الليثي، فهرب ونزل على حيٍّ من البربر، ثم أمّنه

الحكم بعد ذلك وحظي عنده. ومنهم الفقيه طالوت بن عبد الجبار، ففرّ واستتر عند
رجل يهوديّ عاماً كاملاً. وكان بينه وبين أبي البسام صداقة، فقصده فأخبر الحكم به،
وأحضره إليه فعنّفه الحكم على خروجه عليه، ثم أمّنه وصرفه إلى منزله وسأله أين استتر
فأخبره باليهودي وبأبي البسّام، فاغتاظ على أبي البسام وعزله عن وزارته وكتب عهداً أن
لا يخدمه أبداً. ومنهم عبد الملك بن حبيب، وغيرهم.

غزو الفرنج

وفي سنة مائتين جهّز الحكم جيشاً مع عبد الكريم بن مغيث إلى بلاد الفرنج، فسار حتى
توسّط بلادهم، فخربها ونهبها وهدم عدةً من حصونهم، واستنفذ خزائن ملوكهم. فلما
رأى ملكهم ذلك كاتب جميع ملوك تلك النواحي، واستنصر بهم فاجتمعت
إليه أهل النصرانية من كل مكان. وأقبل في جموع عظيمة ونزل بإزاء عسكر المسلمين
وبينهم نهر، فاقتتلوا عدة أيام والمسلمون يريدون عبور النهر إليهم وهم يمنعونهم من ذلك.
فلما رأى المسلمون ذلك تأخروا عن النهر فعبر المشركون واقتتلوا أعظم قتال، فانهزم الكفار
إلى النهر وأخذهم السيف والأسر، فأُسر جماعة من ملوكهم وكنودهم وقمامصتهم. وعاد
الفرنج لزموا جانب النهر يمنعون المسلمين من عبوره فأقاموا ثلاثة عشر يوماً يقتتلون في كل
يوم، فجاءت الأمطار وزاد النهر فتعذر جوازه، فقفل عبد الكريم عنهم في سابع ذي الحجة
من السنة.

غزو البربر بناحية مورور

وفيها خرج خارجيّ من البربر من ناحية مورور ومعه جماعةٌ، فوصل كتاب العامل بها إلى
الحكم بخبره، فأعفى الحكم أمره واستدعى من ساعته قائداً من قواده فأخبره بذلك سراً
وقال له: سر من ساعتك إلى هذا الخارج وائتني برأسه وإلا فرأسك عوضه وأنا قاعد في
مكاني هذا إلى أن تعود! فسار القائد إلى الخارج، فلما قاربه سأل عنه أنه في احتياط كثير
واحتراز شديد، فعجز عنه ثم تذكر قول الحكم فأعمل الحيلة حتى دخل عليه وقتله وأتى
برأسه إلى الحكم، فرآه بمكانه ذلك لن يتغير، وكانت غيبته أربعة أيام، فأحسن إلى القائد

وأكرمه ووصله وأعلى محلّه.
وفاة الحكم
كانت وفاته يوم الخميس بعد الظهر لأربع بقين من ذي الحجة سنة ست ومائتين، وكان عمره
اثنتين وخمسين سنة وقيل ثلاثاً وخمسين سنة وقيل أقل من ذلك إلى تسع وأربعين سنة،
ومدة إمارته ستاً وعشرين سنة وعشرة أشهر وثلاثة عشر يوما.
وكان طويلاً أسمر نحيفاً،
وله شِعر جيِّدٌ، وهو أول من جَنَّد الجنود المرتزقة بالأندلس وجمع الأسلحة والعدد
واستكثر من الحَشم والحواشي، وارتبط الخيول على بابه، واتخذ المماليك وجعلهم في
المرتزقة فبلغت عدّتهم خمسة آلاف. وكانوا يسمون الخرس لعُجْمةِ ألسنتهم، وكانوا نواباً
على باب قصره.
وكان يطّلع على الأمور بنفسه ما قرُب منها وما بعُد، وكان له نفر من ثقاة أصحابه يطالعونه
بأحوال الناس، فيردع الظالم، وينصف المظلوم. وكان شجاعاً مقداماً مهيمِناً وكان يُقرِّب
الفقهاء وأهل العلم. وكان له من الأولاد أبو مطرف عبد الرحمن وثمانية عشر ولداً ذكراً.
كاتبه: الوزير أبو البسام.
إمارة عبد الرحمن
بن الحكم
هو أبو المطرف وقيل أبو المظفر عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل،
وأمه أم ولد يقال لها حلاوة، وهو الرابع من ملوك بني أمية بالأندلس. بويع له بعد وفاة أبيه
في يوم الخميس لأربع بقين من ذي الحجة سنة ستٍّ ومائتين وذلك في خلافة المأمون بن
الرشيد العباسي.
قال: ولما ولى خرج عليه عم أبيه عبد الله البلنسي - من بلنسية - وطمع في المُلك،
فوصل إلى تُدمير يريد قرطبة، فتجهر له عبد الرحمن، فلما بلغ ذلك عبد الله خاف
وضعُفت نفسه فرجع إلى بلنسية.
إيقاعه بأهل إلبيرة
وجندها
كان ذلك في سنة سبع ومائتين وسبب ذلك أن الحكم كان قد بلغه عن عامل اسمه ربيع
أنه ظلم أبناء أهل الذمة فقبض عليه وصلبه، فلما توفي الحكم وولي ولده عبد الرحمن

وسمع الناسُ بصلب ربيع أقبلوا إلى قرطبة من النواحي يطلبون الأموال التي كان ظلمهم ربيعٌ
فيها ظنّاً منهم أنها ستُردّ إليهم. وكان جنْد إلبيرة أشدهم وأكثرهم إلحاحاً وتألّباً، فأرسل
عبد الرحمن من يسكنهم، فلم يقبلوا ودفعوا من أتاهم، فخرج إليهم جمْعٌ من الجند من
أصحاب عبد الرحمن فقاتلوهم فانهزم جند إلبيرة ومن معهم وقتلوا قتلاً ذريعاً، ونجا من
بقي منهم، وأدركهم الطلب فقتل كثيراً منهم.
وفيها ثارت بمدينة تُدمير فتنة بين المضرية واليمانية فاقتتلوا بلورْقَة فكان بينهم وقعة تعرف
بيوم المصابرة قتل بينهم ثلاثة آلاف رجل، ودامت الحرب بين الفريقين سبع سنين، ووكّل عبد
الرحمن بكفِّهم ومنْعهم يحيى بن عبد الله ابن خالد وسيّره في جمع من الجيش، فكانوا إذا
أحسوا بقرب يحيى افترقوا وتركوا القتال وإذا عاد رجعوا إلى الفتنة حتى أعياه أمرهم.
وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدة ذهب فيها خلق كثير وبلغ المُد في بعض المدن ثلاثين
ديناراً.
وفي سنة ثمانٍ ومائتين جهز عبد الرحمن جيشاً إلى بلاد المشركين، واستعمل عليهم عبد
الكريم بن عبد الواحد بن مغيث، فساروا إلى بلاد ألبة والقلاع فنهبوا بلاد ألبة وخرّبوها
وأحرقوها، وفتحوا حصوناً وصالحهم أهل حصون أُخر على مالٍ وإطلاق أسرى المسلمين،
وذلك في جُمادى الآخرة.
وفيها توفي عبد الله بن عبد الرحمن المعروف بالبلنسي.
وفي سنة عشر ومائتين سيّر عبد الرحمن سَرِيّة كبيرة إلى بلاد الفرنج واستعمل عليهم عبيد
الله بن عبد الله البلنسي، فسار ودخل بلادهم وتردّد فيها بالغارات والسبْي والقتل والأسْر
ولقي جيوش الأعداء فهزمهم وأكثر القتل فيهم، وكان فتحاً عظيماً.
وفيها افتتح عسكر سيّر عبد الرحمن أيضاً حِصْن القلعة من أرض العدو في شهر رمضان
المبارك.
وفيها أمر ببناء المسجد الجامع بجيان.
وفيها أخذ عبد الرحمن مقدم اليمانية بتُدمير وهو رجاء بن الشماخ لتسكن الفتنة بين
اليمانية والمضرية فلم تسكن ودامت، فأمر العامل بتُدمير أن ينتقل منها ويجعل مرسية

قاعدة تلك البلاد.
وفي سنة اثنتي عشرة ومائتين سيّر عبد الرحمن جيشاً إلى برشلونة من بلاد العدة فأقام
الجيش شهرين يحرقون وينهبون.
وفيها كانت سيول عظيمة وأمطار متتابعة، فخربت أكثر أسوار مدن الأندلس وخربت
قنطرة سرقسطة، ثم جددت عمارتها.
وفي سنة ثلاث عشرة ومائتين قتل أهل ماردة عاملهم فثارت الفتنة عندهم فسيّر إليهم
عبد الرحمن فحصرهم وأفسد زرْعهم وأشجارهم فعادوا للطاعة وأعطَوا رهائنهم، وعاد
الجيش عنهم بعد أن خربوا سور المدينة، ثم أرسل إليهم من ينقل أحجار السور إلى النهر
لئلا يطمع أهلها في عمارته، فلما رأوا ذلك عادوا إلى العصيان وأسروا العامل عليهم وبنوا
السور وأتقنوه. فسار عبد الرحمن بجيوشه إليهم في سنة عشرة ومائتين ومعه رهائن أهلها
فراسله أهلها وافتدوا رهائنهم بالعامل الذي أسروه وغيره وحصرهم وأفسد بلدهم ثم
رحل عنهم. ثم سيّر إليهم جيشاً في سنة سبع عشرة فحصروها وضيقوا على أهلها،
ودام الحصار ثم رحلوا عنهم. وسيّر إليهم جيشاً في سنة ثماني عشرة ومائتين ففتحها
وفارقها أهل الشر والفساد. وكان من أهلها رجل اسمه محمود بن عبد الجبار الماردي في
جماعة من الجند، فمضى بمن سلم من أصحابه إلى مُنْت سالوط فسيّر إليه عبد الرحمن
جيشاً في سنة عشرين ومائتين فهرب بمن معه إلى جليقية فأرسل سرية في طلبهم، فقاتلهم
محمود وهزمهم وغنم ما معهم، وقتل عدة منهم ثم مضى لوَجْهه فلقيه جمعٌ من أصحاب
عبد الرحمن مصادفة فقاتلوهم، ثم كف بعضهم عن بعض وساروا فلقيته سرية أخرى
فانهزمت السرية وغنم محمود ما معهم ووصل إلى بلاد المشركين فاستولى على قلعة لهم
فأقام بها خمسة أعوام وثلاثة أشهر فحصره أذفونس ملك الفرنج فملك الحصن وقتل محموداً
ومن معه وذلك في سنة خمس وعشرين في شهر رجب.
وفي سنة أربع عشرة ومائتين سار عبد الرحمن إلى مدينة باجة وكانت عاصية عليه
فملكها عَنْوَةً.

وفيها خالف هاشم الضراب بمدينة طليطلة، وكان هاشم ممن خرج من طليطلة لما أوقع
الحكم بأهلها، وسار إلى قرطبة، فلما كان الآن سار إلى طليطلة فاجتمع إليه أهل الشر
والفساد فسار إلى وادي جونيه وأغار على البربر وغيرهم فطار اسمه واشتدّت شوكته
وكثر جمعه فأوقع بأهل سنت بريّه. وكان بينه وبين البربر وقعات كثيرة، فسيّر إليه عبد
الرحمن جيشاً فقاتلوه فلم تستظهر إحدى الطائفتين على الأخرى، وغلب هاشم على عِدّة
مواضع وجاوز بركة العجوز وأبعدت غارة خَيله. فسيّر إليه عبد الرحمن جيشاً في سنة
ست عشرة ومائتين فلقيهم هاشم بالقرب من حصن سمسطا المجاور لرورية فدامت الحرب
بينهم عدة أيام ثم انهزم هاشم وقُتل هو وكثير ممن معه.
محاصرة طليطلة وفتحها
وفي سنة تسع عشرة ومائتين جهز عبد الرحمن جيشاً مع ابنه أمية إلى مدينة طليطلة
فحصرها - وكانوا قد خالفوا وخرجوا عن الطاعة - فاشتد في حصارهم وقطع
أشجارهم وأهلك زرعهم، فلم يذعنوا إلى الطاعة فرحل عنهم وترك بقلعة رباح جيشاً
عليهم ميسرة المعروف بفتى أبي أيوب. فلما أبعد أمية خرج جمع كثير من أهل مدينة
طليطلة لعلّهم يجدون فرصةً وغفلةً فينالون منه ومن أصحابه غَرَضاً، وكان قد بلغه الخبر
فكمن في عدة مواضع. فلما وصلوا إلى قلعة رباح خرج الكمين عليهم من جوانبهم
ووضعوا السيف فيهم فأكثروا القتل وعاد من سلم منهزماً إلى طليطلة، وجمعت رؤوس
القتلى وحملت إلى ميسرة فلما رأى كثرتها عظم عليه وارتاع لذلك، ووجد في نفسه غمّاً
شديداً، فمات بعد أيام يسيرة!
ثم سيّر عبد الرحمن جيشاً في سنة عشرين ومائتين فقاتلوا ولم يظفروا منها بشيء. فلما
كان في سنة إحدى وعشرين ومائتين خرج جماعةٌ من أهلها إلى قلعة رباح بها عسكر لعبد
الرحمن فاجتمعوا كلهم على حصار طليطلة وضيّقوا على أهلها واشتدوا في حصارهم إلى
سنة اثنتين وعشرين ومائتين، فسيّر عبد الرحمن أخاه الوليد بن الحكم فرأى أهلها وقد بلغ

بهم الجَهْد كلّ مبلغ واشتدّ عليهم طول الحصار وضعفوا عن القتال والدفع، ففتحها عَنوةً يوم
السبت لثمان خلون من شهر رجب منها، وأمر بتجديد القصر على باب الجسر الذي كان
هُدم أيام الحكم، وأقام بها آخر شعبان سنة ثلاث وعشرين حتى استقرّت قواعد أهلها.
وفي سنة ثلاث وعشرين ومائتين سيّر عبد الرحمن جيشاً إلى ألبة والقلاع فنازلوا حِصْن
الفرات، وقتلوا أهله، وغنموا ما فيه وسبوا النساء والذُّريّة وعادوا.
وفي سنة أربع وعشرين سيّر جيشاً عليهم عبيد الله بن عبد الله البلنسي إلى بلاد العدو،
فوصلوا ألبة والقلاع فالتقَوا هم والمشركون، وكانت بينهم حروب شديدة وقتالٌ عظيم انهزم
أهل الشرك، وقتِل منهم ما لا يُحصى كثرةً، وجمعت الرؤوس حتى كان الفارس لا يرى من
يقاتله!
ثم سار عبد الرحمن في سنة خمسٍ وعشرين في جيش كثيفٍ إلى بلاد المشركين فدخل
بلاد جليقية وافتتح عِدّة حصونٍ منها، وغنم وسبى وقتل وخرّب ثم عاد إلى قرطبة ولم
تطل مدة هذه الغزاة.
وفي سنة أربع وعشرين ومائتين سيّر الأمير عبد الرحمن جيشاً إلى أرض العدو، فلما كانوا
بين أوشنة وشرطانية تجمعت الروم عليهم وأحاطوا بهم وقاتلوهم الليل كله، فلما أصبحوا
أنزل الله نصره على المسلمين وهزم عدوّهم وأبلى موسى بن موسى في هذه الغزاة بلاء
حسناً، وكان على مقدمة العسكر وهو العامل على تطيلة، وجري بينه وبين جرير بن
موفّق - وهو من أكابر الدولة - أيضاً شر فخرج موسى عن طاعته.

الحرب بين موسى والحارث
بن بزيع وما كان من أمره

قال: ولما بلغ عبد الرحمن خروج موسى عن الطاعة سيّر إليه جيشاً، واستعمل عليهم
الحارث بن بزيع فسار إليه والتقوا عند بَرْجَة واقتتلوا فقُتل أكثر أصحاب موسى، وقتل ابن
عم له، وعاد الحرث إلى سرقسطة. فسيّر موسى ابنه إلى بَرْجَة فعاد الحارث إليها
فحصرها وملكها وقَتَل ابن موسى وتقدم إلى مدينة تطيلة فحصرها فصالحه موسى على أن

يخرج عنها فانتقل موسى إلى أرنيط وبقي الحارث بتطيلة أياماً ثم سار إلى موسى
ليحاصره. فأرسل موسى إلى غرسية وهو من ملوك الأندلس واتّفقا على الحرب واجتمعا
وجعلا للحارث كمائن في طريقه وأعدا له الخيل والرجل بموضع يقال له ثلمة على نهرٍ هناك،
فلما جاوز الحارث النهر خرج إليه الكمناء وأحدقوا به وكانت وقعة عظيمة وأصابه ضربةٌ
في جبهته قلعت عينيه ثم أُسر، وذلك في سنة ثمان وعشرين.
فلما بلغ خبره عبد الرحمن عظُم عليه وجهّز جيشاً عظيماً وجع عليه ابنه محمداً وسيره
لقتال موسى في شهر رمضان سنة تسع وعشرين، فوصل إلى تطيلة وحصرها وضيّق على
أهلها، وأهلك زرعها فصالحه موسى. وتقدم محمد إلى ينبلونة فأوقع عندها بجمع كثير من
المشركين وقُتل غرسية فيمن قُتل، ثم عاد موسى إلى الخلاف على عبد الرحمن فجهز
جيشاً كثيراً وسيّرهم إلى موسى فطلب المسالمة فأُجيب إليها، وأعطى ابنه إسماعيل
رهينةً وولاّه عبد الرحمن مدينة تطيلة فسار موسى إليها وأخرج منها من يخافه واستقرّ
بها.
خروج المشركين إلى الأندلس
قال: في سنة ثلاثين ومائتين خرج المجوس في أقاصي بلاد الأندلس إلى بلاد المسلمين، وكان
أول ظهورهم في ذي الحجة سنة تسع وعشرين ومائتين وعند أشبونة فأقاموا بها ثلاثة عشر
يوماً كان بينهم وبين المسلمين فيها وقائع، ثم ساروا إلى قادس ثم إلى شذونة وكان بينهم
وبين المسلمين وقعة عظيمة، ثم قصدوا إشبيلية في ثامن المحرم فنزلوا على اثني عشر
فرسخاً منها، فخرج إليهم المسلمون فهزمهم العدوُّ في ثاني عشر المحرّم وقُتل كثير منهم، ثم
نزلوا على ميلين منها فخرج أهلها إليهم وقاتلوهم فانهزموا في رابع عشر المحرم وكثر القتلُ
والأسر فيهم. ولم يرفع المجوسُ السيف عن أحد ولا عن دابّة، ودخلوا حاضر إشبيلية
وأقاموا بها يوماً وليلة وعادوا إلى مراكبهم، فوافاهم عسكر عبد الرحمن فبادر إليهم
المجوس فثبت المسلمون وقاتلوهم فقتل من المشركين سبعون رجلاً وانهزموا ودخلوا

مراكبهم، وأحجم المسلمون عنهم، فسيّر عبد الرحمن جيشاً آخر فقاتلهم المجوس قتالاً
شديداً ورجعوا عنهم فتبعهم العسكر في ثاني شهر ربيع الأول وقاتلوهم، وأتاهم المدد من
كل ناحية فنهضوا لقتال المجوس من كل جانب فانهزم المجوس وقتل نحو خمسمائة رجل
وأخذوا منهم أربعة مراكب فأخذوا ما فيها وأحرقوها.
ثم خرج المجوس إلى لَبْلَة فأصابوا سبياً ونزلوا جزيرة بالقرب من قوويس فقسموا ما كان
معهم مما غنموه، فدخل المسلمون إليهم في النهر فقتلوا رجلين ثم رحل المجوس فطرقوا
شَذَونة فغنموا أطعمةً وسبياً وأقاموا يومين، فوصلت مراكب عبد الرحمن إلى إشبيلية.
فلما أحس بها المجوس لحقوا بلبلة فأغاروا وسَبوا ثم لحقوا بأشبونة ثم مضوا إلى باجة، ثم
قفلوا إلى مدينة أشبونة، ثم سار فانقطع خبرهم عن البلاد فسكن الناس.
وفي سنة إحدى وثلاثين ومائتين سار جيش للمسلمين بقرطبة إلى بلاد المشرطين وقصدوا
جلِّيقية فغنموا وقتلوا وأسروا وسبَوا وواصلوا إلى مدينة ليون فحصروها ونصبوا عليها
المجانيق، فخاف أهلها وخرجوا هاربين وتركوها بما فيها، فغنم المسلمون منها ما أرادوا
وأحرقوا الباقي، ولم يقدروا على هدْم سورها لأن عَرْضَه سبعة ذراعاً، فمضَوا وقد ثلموا
فيه ثلمة كبيرة.
وفي سنة اثنتين وثلاثين ومائتين غدر موسى بن موسى، فسيّر إليه عبد الرحمن جيشاً مع
ابنه محمدٍ.
وفيها كان بالأندلس مجاعةٌ شديدة، فهلك خلقٌ كثير من الناس والدوابّ، ويبست
الأشجار فاستسقى الناس فسُقوا وزال القحْط.
وفي سنة خمس وثلاثين ومائتين سيّر عبد الرحمن ابنه المنذر في جيش كثيف إلى غزو
الروم فبلغوا ألبة والقلاع.
وفيها كان سيلٌ عظيم بالأندلس فخرب جسر إستجة والأرجاء وعرٌّ نهر إشبيلية ست
عشرة قريةً، وخرّب نهر باجة ثماني عشرة قرية، وعرُض حتى صار عَرْضُه ثلاثون ميلاً
وكان هذا حدثاً عظيماً وقع في جميع البلاد في شهر واحد.
وفي سنة سبع وثلاثين ومائتين سارت جيوش المسلمين إلى بلاد العدو وكانت بينهم وقعةٌ

عظيمة كان الظفر فيها للمسلمين وهي وقعة البيضاء.
وفاة عبد الرحمن
وشيء من أخباره
كانت وفاته في ليلة الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين،
وقيل في شهر ربيع الآخر منها. وكان مولده في شعبان سنة ست وسبعين ومائة. فكان
عمره اثنتين وستين سنة ومدة ولايته إحدى وثلاثين سنة وشهرين وستة أيام. وكان أسمر
طويلاً أغَرَّ أقنى عظيم الجبهة يخضب بالحناء. وكان له من صلبه من الأولاد الذكور
والإناث سبعةٌ وثمانون ولداً منهم خمسةٌ وأربعون ذكراً. وكان عالماً أديباً شاعراً، يعرف
علوم الفلاسفة. وفي أيامه دخل زرياب المغنّي إلى الأندلس فحضر يوماً عند عبد الرحمن
وغنّى وعبيد الله بن قزمان الشاعر حاضر فقال زرياب:
قالت ظلوم سميّة الظلم ما لي رأيتك ناحل الجسم
يا من رأى قلبي فأقصده أنت العليم بموضع السهم
فقال عبد الرحمن: البيت الثاني منقطع عن الأول غير متصل به! فقال ابن قزمان بديهة
بعد البيت الأول:
فأجبتها والدمع منحدرٌ مثل الجُمان زها على النظْم
فكساه عبد الرحمن وحباه.
وهو أول من رتّب اختلاف الفقهاء إلى قصره، وأمرهم بالكلام بين يديه. وكان عبد الرحمن
بعيد الهمة، اخترع قصوراً ومستنزهات كثيرة، وزاد في الجامع بقرطبة رواقيْن. وكانت
أيامه عافية وسكونٍ، وكثُرت الأموال عنده وأقام أبّهة المملكة ورتّب رسومها وكان يُشبّه
بالوليد بن عبد الملك في أبّهته. وهو أول من اجتلب الماء العذب إلى قرطبة وأدخله قصوره
وجعل لفصل الماء مصنعاً كبيراً يردُه الناس إذا خرج من قصوره رحمه الله تعالى.
إمارة الأمين
هو أبو عبد الله محمد بن عبد الرحمن بن الحكم ابن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن
معاوية بن هشام بن عبد الملك ابن مروان، وأمه أم ولد اسمها تهتز. وهو الخامس من
أمراء بني أمية بالأندلس، قام بالأمر بعد أبيه في يوم الخميس لثلاث خلون من شهر ربيع
الأول سنة ثمان وثلاثين ومائتين، وقيل في شهر ربيع الآخر منها، وكانت ولايته في خلافة

المتوكل إلى بعض أيام المعتمد قال: ولما ولي جرى في العدل على سيرة أبيه، وتمّم زيادة بناء
أبيه في جامع قرطبة.
الحرب بين المسلمين والفرنج
وفي سنة أربعين ومائتين كان بين المسلمين والفرنج حربٌ شديدةٌ، وسببها أن أهل طليطلة
كانوا على ما ذكرناه من الخلاف على الملوك فلما ولِي محمدٌ هذا سار بجيوشه إليها، فراسل
أهلها ملك جليقية يستمدونه، فأمدّهم بالعساكر الكثيرة، فبلغ محمد ذلك وقد قارب
طليطلة فعبّأ أصحابه وكمن الكمناء بناحية وادي سليط، وتقدم إليهم في قلّةٍ من العسكر
فطمع فيه أهل طليطلة والفرنج، وأسرعوا إليه فلما نشبت الحرب خرجت الكمناء من كل
جهة فقُتل من المشركين ومن أهل طليطلة ما لا يُحصى، وجُمع من الرؤوس ثمانية آلاف
رأسٍ، وذكر أهل طليطلة أن عدة القتلى عشرون ألفاً.
وقال: وفي سنة إحدى وسبعين وأربعين ومائتين استكثر محمد الرجال بقلعة رباح ليُضيِّق
على أهل طليطلة، وسيّر الجيوش إلى غزو الفرنج مع موسى بن موسى، فدخلوا بلادَهم
ووصلوا إلى ألبة والقلاع، فافتتحوا بعض حصونها وعادوا.
وفي سنة ثلاث وأربعين خرج أهل طليطلة واقتتلوا هم ومسعود ابن عبد الله العرّيف
فانهزم أهل طليطلة وقُتل أكثرهم وحُمل إلى قرطبة سبعمائة رأس.
خروج المجوس إلى الأندلس
وفي سنة خمسٍ وأربعين ومائتين خرج المجوسُ في المراكب إلى بلاد الأندلس، فوصلوا إلى
إشبيلية وحلّوا بالحاضر وأحرقوا الجامع، ثم جازوا إلى العَدوة، ثم عادوا إلى الأندلس
فانهزم أهل تُدمير، ودخلوا حصن أريوله ثم تقدموا إلى خليط أفرنجه فأغاروا وأصابوا من
النهب والسبي كثيراً، ثم انصرفوا فلقيهم مراكب الأمير محمدٍ فقاتلوهم وأحرقوا مركبيْن من
مراكب المجوس، وأخذوا مركبين وغنموا ما فيهما، فجَدَّ المجوس عند ذلك في القتال
واستشهد جماعةٌ من المسلمين، ومضت مراكب المجوس حتى وصلوا إلى مدينة بنبلونة
فأصابوا صاحبها غرسية الفرنجي ففدى نفسه بتسعين ألف دينارٍ.

وفي سنة ست وأربعين ومائتين سار محمدٌ في جيوش عظيمةٍ إلى بلد بنبلونة فوطئ بلادها
ودوّخها وخرّب ونهب وقتل، وافتتح حصوناً وأصاب في بعضها فرتون بن غرسية فحبسه
بقرطبة عشرين سنة ثم أطلقه إلى بلده، وأقام محمد بأرض بنبلونة اثنين وثلاثين يوماً.
وفي سنة سبع وأربعين سار جيش المسلمين إلى بلد برشلونة وهي للفرنج فأوقعوا بأهلها،
فأرسل صاحبها إلى ملك الفرنج يستمدُّه فأرسل إليه جيشاً كثيفاً، وأرسل المسلمون
يستمدون فأتاهم المَدَد فنازلوا برشلونة وقاتلوا قتالاً شديداً، فملكوا أرباضها وبرجَيْن من
أبراج المدينة، وقُتل من المشركين ما لا يُحصى كثرة وعاد المسلمون بالظفر والغنيمة.
وفي سنة تسع وأربعين ومائتين جهّز محمدٌ جيشاً مع ابنه إلى مدينة ألبة والقلاع من بلد
الفرنج فغنموا وافتتحوا حصوناً منيعة.
وفي سنة إحدى وخمسين ومائتين سيّر محمدٌ جيشاً إلى بلاد المشركين في جُمادى الآخرة
وقصدوا المِلاحة، وكانت أموال لُذَريق بناحية ألَبَة والقلاع. فلما عمّ المسلمون بلدهم
بالخراب والنهب جمع لذريق عسكره وسار إليهم فالتقوا بموضع يقال له فج المركون، به
تعرف هذه الغزاة، واقتتلوا فكانت الهزيمة على المشركين ثم اجتمعوا بهضبة بالقرب من
موضع المعركة فتبعهم المسلمون وحملوا عليهم واشتد القتال فانهزم الفرنج لا يلوون على
شيء، وتبعهم المسلمون يقتلون منهم ويأسرون، وكانت هذه الوقعة في ثاني عشر شهر
رجب، وكان عدد ما أُخذ من رؤوس القتلى ألفين وأربعمائة رأس وتسعين رأساً، وكان
فتحاً عظيماً.
وفي سنة تسع وخمسين ومائتين سار محمد إلى طليطلة وحصرها - وكان أهلها قد خالفوا
عليه - فطلبوا الأمان فأمّنهم وأخذ رهائنهم.
وفيها خرج أهل طليطلة إلى حصن سكيان وفيه سبعمائة من البربر وأهل طليطلة في
عشرة آلاف، فلما التحمت الحرب بينهم انهزم مطرّف بن عبد الرحمن بن حبيب وهو أحد
مقدّمي أهل طليطلة فتبعه أهلها في الهزيمة، وإنما انهزم لعداوة كانت بينه وبين مقدم آخر
اسمه طريشة فأراد أن يوهنه بذلك فقُتلوا أعظم قتلٍ.

وفيها عاد عمروس بن عمر بن عمروس الأندلسي إلى طاعة الأمير محمد، وكان مخالفاً
عليه عدة سنين، فولاّه محمد مدينة أشقة.
وفي سنة ست وستين ومائتين أمر محمد بإنشاء مراكب بنهر قرطبة وحملها إلى البحر
وسيّرها إلى البحر المحيط ليسير منه إلى بلاد جليقية فلما دخلته تقطعت، فلم يجتمع منها
مركبان، ولم يرجع منها إلا اليسير!.
وفي سنة سبع وستين ومائتين خالف عمر بن حفصون على الأمير محمد بن عبد الرحمن
فخرج إليه جيش تلك الناحية وعاملها، فقاتلوه فهزمهم. وقويَ أمرُه وشاع ذكره، وأتاه من
يُريد الشّرّ والفساد، فسيّر إليه محمد عاملاً آخر في جيش فصالحه عمر، وطلب العامل كلّ
من كان له مساعدةٌ لعمر، فأهلكه، ومنهم من أبعده، واستقامت تلك الناحية.
وفي سنة ثمان وستين سيّر محمد جيشاً إلى المخالفين مع ابنه المنذر فقصد مدينة
سرقسطة فأهلك زرْعها وخرّب بلدها. وافتتح حصن روطة، وأخذ منه عبد الواحد
الروطيّ - وهو من أشجع أهل زمانه - وتقدّم إلى دير تروجة وهتكها بالغارة، وقصد مدينة
لاردة وقرطاجنة وأخذ رهائنهم، ثم قصد مدينة ألبة والقلاع فافتتح بهما حصوناً، وعاد
بالظفر والنصر والسلامة.
وفاة الأمير محمد
بن عبد الرحمن
كانت وفاته في سلْخ صفر سنة ثلاث وسبعين ومائتين وقيل في يوم الأحد غُرّة شهر ربيع
الأول منها، وأنه خرج يوم الأحد إلى الرصافة متنزهاً ومعه هشام بن عبد العزيز فقال له: يا
سيدي ما أطيب الدنيا لولا الموت! فقال له: يا ابن اللخناء وهل ملكنا هذا الذي نحن فيه
إلا الموت؟ ولو بقي من كان قبلنا فمن أين كان يصل إلينا؟ ورجع من نزهته فحُمَّ ومات في
بقية يومه، نقله ابن الرقيق في تاريخ أفريقية وكان مولد محمد في ذي القعدة سنة سبع ومائتين
وعمره خمساً وستين سنة وثلاثة أشهر وأياماً. وكانت ولايته أربعاً وثلاثين سنة وأحد عشر
شهراً.
وكان أبيض مشرباُ بحمرة، ربع القامة أوقص، يخضب بالحناء والكتم ووُلد له مائة ولد

ذكور، مات عن ثلاثة وثلاثين منهم. وكان ذكياً فطناً بالأمور المستبهمة، محباً للعلوم، مؤثراً
لأهل الحديث، عارفاً حَسَن السيرة. قال ابن مخلد الفقيه: ما كلمت أحداً من الملوك أكمل
عقلاً ولا أبلغ من الأمير محمد بن عبد الرحمن، رحمه الله تعالى. وكانت وفاة محمد في
خلافة المعتمد على الله العباسي.

إمارة المنذر بن محمد

هو أبو الحكم المنذر بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن
الداخل، وأمه أم ولد اسمها إيل، وهو السادس من أمراء بني أمية بالأندلس. قام بالأمر في
يوم وفاة أبيه في غُرّة شهر ربيع الأول سنة ثلاث وسبعين ومائتين، وقيل بويع له بعد وفاة أبيه
بثلاث ليال وخالف عليه ابن حفصون - وقد ذكرنا خلافه على أبيه - وتحصن عمر بن
حفصون بطليطلة، فسار المنذر إليها وأحدق بها؛ فأعمل ابن حفصون الحيلة وسلك طريق
المكر والخديعة، وسأل الأمان، وأظهر الرغبة في سكن قرطبة بأهله وولده. فأمنه المنذر
وكتب له بما أراد، وفصّل لأولاده الثياب. ثم سأل مائة بغل يحمل عليها أثقاله وعياله إلى
قرطبة، فأمر له المنذر وسُلِّمت إليه وعليها عشرة من العرفاء.
وارتحل العسكر، فأخذ ابن حفصون البغال وقتل العرفاء، وعاد إلى سيرته الأولى. فعقد
المنذر على نفسه أنه لا أعطاه صلحاً ولا عهداً إلا أن يُلفَى بيده وينزل على حكمه، وأمر
بالسكنى، وأن تردّ أسواق قرطبة إلى طليطلة. ودام الحصار، فمات وهو يحاصره.
وأن تردّ أسواق قرطبة إلى طليطلة. ودام الحصار، فمات وهو يحاصره.
وكانت وفاته في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة بقيت من صفر سنة خمس وسبعين ومائتين،
وقيل في نصف صفر. وعمره نحواً من ست وأربعين سنة وولايته سنة واحدة وأحد عشر
شهراً، وأيام.
وكان أسمر طويلاً، جعداً كثَّ اللحية، بوجهه أثر جدري، وخلف ستة أولاد ذكوراً.
وقيل لم يعقب فولى بعده أخوه!

إمارة عبد الله بن محمد

هو أبو محمد عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكَم بن هشام بن عبد الرحمن

الداخل، وأمه أم ولد اسمها عشار، وهو السابع من أمراء بني أمية ببلاد الأندلس. بويع له
بعد وفاة أخيه المنذر في يوم السبت لثلاث عشرة ليلة خلت من صفر سنة خمسٍ وسبعين
ومائتين، وقيل في منتصف صفر منها، وذلك في خلافة المعتمد على الله العباسي.
ولما بويع له كان بالمعسكر على طليطلة فرحل نحو قرطبة، ودخل القصر بها لثلاث بقين
من صفر المؤرَّخ. قال إبراهيم بن الرقيق: ولما تولّى ألّب ابن حفصون عليه، وحشد كور
الأندلس حتى لم يبق منهل إلا قرطبة، وأقبل فيمن أطاعه من أهل الكور. وخرج إليه الأمير
عبد الله في أربعة عشر ألفاً من أهل قرطبة خاصة، وأربعة آلاف من حشمه ومواليه.
فبرز إليه ابن حفصون في سفح الجبل وسار له، فلم تكن إلا صدمة صادقةٌ حتى أزالوهم
عن مراكزهم. ودخل ابن حفصون الحصن كأنه يخرج من بقي فيه، فثلم فيه ثلمة أخرج
منها أهله وما كان له. فلما انتهى ذلك إلى عسكره ولَّوا مدبرين لا يلوي أحد منهم علي
أحد فقتلوا قتلاً ذريعاً ودخل منهم جماعةٌ في عسكره فأمر بالتقاطهم وجلس لهم في مظلة
فقتِل بين يديه ألفٌ صبْراً.
وكانت في أيامه فتنٌ عظيمة، وكثُر قيام الثوّار عليه حتى لم يبق في يده إلا مدينة قرطبة
وحدها. وخالف عليه أهل إشبيلية وشَذُونة، ولم تبق مدينة إلا خالفت عليه. وعزموا
على الدعاء على منابر الأندلس للمعتضد بالله العباسي، فكتبوا إلى إبراهيم بن أحمد
الأغلب يسألونه أن يبعث إليهم رجلاً من قِبله، فتثاقل عنهم إبراهيم وشغله أيضاً اضطراب
أهل أفريقية عليه، فأمسكوا عن ذلك!
وقلّت رجال عبد الله بن محمد، وذهب من كان يصول له - هو وآباؤه - من مواليهم
وأصحابهم، وقلّت الأموال في يده لخروج أهل المدن وامتناعهم من أداء الخراج إليه. وكان
خَراج الأندلس الذي يُؤدَّى إلى آبائه ثلاثمائة ألف دينار في كل سنة، فكانوا يعطون رجالهم
وخدمهم مائة ألف دينار، وينفقون في أمورهم ونُوَّابهم وجميع ما يعرض لهم مائة ألف،
ويدّخرون مائة ألف. فلما امتنع أهل مدن الأندلس من أداء الخراج إليهم رجعوا إلى تلك

الذخائر ينفقونها، واتصلت عليهم الحروب خمس عشرة سنة فنفدت ذخائرهم واحتاجوا
للقروض!
وكانت أيامه على هذه الحال إلى أن توفي، وكانت وفاته في يوم الثلاثاء غُرة شهر ربيع الأول
سنة ثلاثمائة، وعمره سبعون سنة إلا شهوراً، ومدة ولايته خمس وعشرون سنة ونصف
شهر وكان مستبداً بآرائه، مخالفاً لنصائحه، ليّن الجانب جداً. بلغ من لينه أن ابنه مطرّفاً
قتل أخاه محمد بن عبد الله والد الناصر فلم ينكر عليه ذلك، بل قال له: قد سوّغتك قتل
أخيك فالله الله في ابن أمية يعني وزيره فإنك إن قتلته قتلتك به! ثم حذّر ابن أمية بن
مطرّف، وكان مطرّف قد عزم على خلعه فلم يمكنه ذلك لمكان ابن أمية، فعمل عليه حتى
قتله. ولما مات عبد الله ولِي بعده ابن ابنه عبد الرحمن.
إمارة عبد الرحمن بن محمد
هو أبو المطرّف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن بن الحكم بن
هشام بن عبد الرحمن الداخل، وأمه أم ولد اسمها مزنة، وهو الثامن من أمراء بني أمية
بالأندلس. بويع له بعد وفاة جدّه، في مستهل شهر ربيع الأول سنة ثلاثمائة. وقال ابن الرقيق
إنه أخ لعبد الله بن محمد، وليس بصحيح! وينقض ذلك عليه أنه قال فيه: ولي وهو ابن
أربع وعشرين سنة ووفاة محمد بن عبد الرحمن قبل مولد عبد الرحمن هذا بأربع سنين،
وأظنه أشكِل عليه أمره، والتبس عليه محمد بن عبد الله بجدّه محمد بن عبد الرحمن،
والله تعالى أعلم.
قال: ولما ولي عبد الرحمن هذا تلقّب بأمير المؤمنين الناصر لدين الله، وهو أوّل منْ لُقِّب
بأمير المؤمنين ببلاد الأندلس. وكان منْ قَبله يُسمَّون ببني الخلائف، ويُسلَّم عليهم ويُخطب
لهم بالإمرة فقط. وإنما تسمّى هذا بأمير المؤمنين لما بلغه ضعْف الخلافة بالعراق في أيام
المقتدر بالله، وظهور الشيعة بالقَيْروان، ودعاؤهم للمهدي. فكان في ذلك ثلاثة خلائف
تَلَقَّب كل منهم بأمير المؤمنين؛ فالمقتدر بالعراق، والمهدي بالقيروان، وهذا الناصر بالأندلس.
قال: وولي والأندلس نار تضطرم، وجمرةٌ تتَّقد شقاقاً ونفاقاً، فأخمد نيرانها وسكّن زلازلها،

وغزا غَزوات كثيرة، وكان يُشبّه بعبد الرحمن الداخل. ولم يجد من المال ما يستعين به على
مصالح جيشه، فاتفق أن صاحب الدُّوجَر أغار على قرطبة في نحو ثلاثمائة فارس فهزمه
عبد الرحمن وأسره. فسّم إليه الحصن بجميع ما فيه فتقوّى به، ثم التقى مع ابن حفصون في
وادي التفاح بجيّان - وكان ابن حفصون في عشرين ألف فارس - فهزمه عبد الرحمن
وأفنى أكثر من معه قتلاً وأسْراً.
وبعث إلى المغرب الأوسط، فملك سبتة وفاس وسجلماسة وعمّرها وغزا الروم بعد ذلك
اثنتي عشرة غزوة حتى دوّخ بلادها، ووضع عليهم جزية يؤدونها. وكان فيما شرط عليهم
اثنا عشر ألف صانع يصنعون له في مدينته التي بناها وسمّاها الزهراء، وهي على ثلاثة
أميال من قرطبة، أسندها إلى سفح الجبل وساق المياه إليها. وقسمها أثلاثاً، فالثلث الذي
يلي الجبل لقصوره ومنازله، والثلث فيه دور خدَمه وكانوا اثني عشر ألفاً بمناطق الذهب
والسيوف المحلاة يركبون لركوبه وينزلون لنزوله، والثلث بساتين تحت مناظره وقصوره.
وجلب إليها أنواع الفواكه، قال: ومن غريب ما بناه فيها مجلسٌ مشرفٌ على البساتين مرفوعٌ
على العمد مبنيٌ بالرخام المجزَّع، مصفَّح بالذهب، مرصَّع باليواقيت والجواهر. وصنع أمام
المجلس بحراً ملأه بالزئبق فكان النور ينعكس منه إلى المجلس، فحضر إليه القاضي بقرطبة
الفقيه منذر بن سعيد البلّوطي فقرأ "ولولا أن يكون الناس أمّةً واحدةً لجعلنا لمن يكفر
بالرحمن لبيوتهم سُقُفاً من فضّةٍ ومعارجَ عليها يظهرون" إلى قوله تعالى "والآخرة عند ربك
للمتّقين" فقال له وعظت فأحسنت! وأمر بنزع الصفائح.
قال: وكمل بناء الزهراء في اثنتي عشرة سنة، بألف بنّاء في كل يوم، مع كل بنّاء اثنا عشر
رقاصاً، وسكنها خمساً وعشرين سنةً.
وطالت أيام الناصر، وتمكن، واتسعت مملكته. وكانت وفاته في ليلة الأربعاء لليلتين، وقيل
لثلاثٍ خلت من شهر رمضان المعظم سنة خمسين وثلاثمائة بالزهراء. وحُمل إلى مدينة
قرطبة، فدُفن بها مع أسلافه من بني أميّة. ومولده في يوم الخميس لتسع بقين من شهر

رمضان سنة سبع وسبعين ومائتين، وكان عمره ثلاثاً وسبعين سنة، ومدّة ولايته خمسين
سنة وستة أشهر وأياماً.
وكان شهماً صارماً، لم يزل ولي يستذل المتغلبين حتى خلصت له جميع الأندلس في خمس
وعشرين سنة من ولايته. وكان له من الأولاد الحكم ولي عهده، وعبد الجبار، وسليمان،
وعبد الملك، وعبيد الله، والمغيرة، ولما مات ولي بعده ابنه الحكم.

إمارة الحكم
المستنصر بالله

هو أبو العاص الحكم بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد
الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل، وأمه أم ولد اسمها مرجان، وهو
التاسع من أمراء بني أمية ببلاد الأندلس. بويع له في شهر رمضان سنة خمس وثلاثمائة في
جميع مدن الأندلس وثغورها، فأحسن إلى الرعية، وعدل فيهم وضبط الثغر، وغزا الروم في
سنة اثنتين وخمسين وثلاثمائة، ففتح مدناً جليلة، وسبى وغنم وانصرف غانماً.
ثم أصابه الفالج فتغيَّب عن الناس، فلما كان في يوم السبت لعشر خلون من المحرم سنة
ست وستين وثلاثمائة أظهر موته، وقيل توفي فجأة ليلة الأحد لأربع خلون من صفر منها.
ومولده في يوم الجمعة مستهل شهر رجب سنة اثنتين وثلاثمائة، فمات وله من العمر ثلاث
وسبعون وستة أشهر وعشرة أيام، ومدة ولايته خمس عشرة سنة وأربعة أشهر وأيام.
وكان حسن السيرة، جامعاً للعلوم مكرماً لأهلها، وجمع من الكتب على اختلاف أنواعها
ما لم يجمعه غيره من الملوك قبله، واشتراها من سائر الأقطار، وغالى في أثمانها، فحملت
إليه من كل جهة. وكان قد رام قطْع الخمر، من الأندلس، وأمر بإراقتها وشدّد في استئصال
شجرة العنب من جميع أعماله. فقيل له إنها تعمل من التين وغيره، فتوقف في ذلك. وهو
الذي رحل إليه أبو علي القالي البغدادي الأمالي، وأبو بكر الزبيدي مختصر كتاب العين.
وكان منذر بن سعيد البلوطي قاضية وقاضي أبيه، فلما توفي، ولي القضاء ابن بشير
الفقيه، فاشترط على المستنصر نفوذ الحكم فيه ممن دونه.

فكان من أخباره أن امرأة منقطعة كان لها أريضة تجاور بعض قصور الأمير، فاحتاج إليها
ليبني فيها شيئاً مما أراد بناءه، فساومها الوكيل في البيع فامتنعت، فأخذها الوكيل قهراً
وبنى فيها منظرة بديعة وأنفق عليها جملة وافرة. فوقفت المرأة لابن بشير القاضي وقصّت
عليه قصّتها، فركب حماره وجعل عليه خرجاً كبيراً لا يطيق حمله إلا جماعة من الرجال.
وقصد الزهراء والمستنصر في تلك المنظرة، فدخل عليه فقال: ما جاء بالقاضي في هذا
الوقت؟ فقال: أريد ملءَ هذا الخرج من تراب هذا الموضع! فتعجَّب منه الحكم وأمر فمُلِئَ
الخرج ثم خلا القاضي به فقال: أدل عليك إدلال العلماء على الملوك الحلماء أن لا ينقل هذا
الخرج على الحمار إلا أنا وأنت! فضحك الحكم وقال: كيف نطيق ذلك أيها القاضي؟
فبكى ابن بشير وقال: فكيف نطيق أن نطوق هذا المكان أجمعه من سبع أرضين في حلقي
وحلقك يوم القيامة وأنا شريكك في الإثم إن رضيت هذا الحكم؟ وقصّ عليه القصة،
فبكى الحكم وقال: وعظْت فأبلغت أيها القاضي! ثم خرج عن المكان وسلّمه إلى المرأة ما
بُني فيه وغُرس.
قال: وكتب إليه العزيز بن المعز صاحب مصر كتاباً يشتمه فيه ويسبه، فكتب إليه "أما
بعد فإنك عرفتنا فهجوتنا، ولو عرفناك لهجوناك، والسلام" وكتب إليه قصيدة يفتخر فيها
منها:
ألسنا بني مروان كيف تبدّلت   بنا الحال أو دارت علينا الدوائر
إذا وُلد المولود منا تهلّلت   له الأرض واهتزت إليه المنابر
وكان للحكم من الأولاد هشام، وسليمان، وعبد الله. وحاجبه جعفر الصقلي، المعروف
بالفتى!
إمارة هشام المؤيد بالله
وهو العاشر من أمراء بني أمية بلاد الأندلس. بويع له بولاية العهد في حياة أبيه في غُرّة
جمادى الأولى سنة خمس وستين وثلاثمائة. وقيل في يوم الاثنين لخمس خلون من صفر منها،
وهو ابن اثنتي عشرة سنة باتفاق الوزراء. وعلموا أن معه المغيرة بن عبد الرحمن ينازعه في
الأمر ويتطاول إلى بعض ما عُقد له ويرى أنه أحقّ بذلك منه لصغر سنه، فهُجم عليه في

منزله فذُبح. وكان الذي تولّى قتْله محمد بن أبي عامر الوزير، فصعّب الأمور لهشام.
ولما ولي احتيج إلى مدبرٍ للمملكة، فوقع الاختيار على جعفر بن عثمان المصحفي، فقلّده
هشام حجابته وتدبير أمره، وأشرك معه في الحجابة غالب بن عبد الرحمن. وقلّد المنصور
بن أبي عامر الوزارة - وكان على الشرط والسكة - فانحط المصحفي وارتفع ابن أبي
عامر، ثم عزل المصحفي عن الحجابة في يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من شعبان سنة
سبع وستين وحوقق وطولب بمائة ألف دينار، وتوفي في المطبق بعد خمسة أعوام، فكانت
مدة ولايته سنة أشهر وثلاثة أيام.
أخبار المنصور
محمد بن أبي عامر
قال: ولما عزل المصحفي اتفق الرأي على تقديم محمد بن أبي عامر المعافري، فولى الحجابة
في يوم الاثنين المؤرّخ، وبقي غالبٌ شريكه إلى أن قُتل وتفرّد المنصور بالأمر.
قال بعض المؤرخين: كان محمد بن أبي عامر من الجزيرة الخضراء، وله بها قدْرٌ وهو شابٌّ
إلى قرطبة واشتغل بالعلم والأدب، وسمع الحديث وتميّز. وكانت له همة يحدِّث بها نفسه
بإدراك معالي الأمور، وكان يحدّث من يختص به بما يقع له من ذلك. وله أخبار كثيرة أورد
منها أبو عبد الله الحميدي - في كتابه المترجم بالأماني الصادقة - كثيراً قال: ثم علت
حاله، وتعلّق بوكالة صُبْحِ أم هشام المؤيد، والنظر في أموالها؛ فزاد أمره في التَّرقِّي إلى أن
مات وولى ابنه هشام، فخافت اضطراب الأمر عليه، فضمن لها سكون الحال وزوال
الخوف واستقرار الملك لابنها. فساعدته المقادير، وأمدّته بالأموال فاستمال العساكر إليه،
فصار صاحب التدبير والمتغلِّب على الأمر.
وحجب هشاماً وتلقَّب بالمنصور وأقام الهيبة، فدانت له أقطار الأندلس كلها، ولم يضطرب
عليه شيء منها لعظم هيبته وحُسْن سياسته. وكان يدخل إلى القصر ويخرج فيقول: أمر
أمير المؤمنين بكذا ونهى عن كذا! فلا يُعترَض عليه في مقال ولا يُنازع في أفعال.
وكان إذا غزا بلد الروم وكل بهشام من يمنعه من التصرف والظهور والإذْن في دخول أحدٍ

من الناس إلى أن يعود من سفره، فإذا كان بعد سنين أركبه وجعل عليه بُرنساً وألبس
جواريه البرانس حتى لا يُعرف منهم، ويوكل بالطرقات من يطرد الناس عنها حتى ينتهي إلى
الزهراء وغيرها من المتنزهات، ثم يعيده على مثل ذلك. وليس له من الملك إلا الدعاء
على المنابر، وإثبات اسمه على السكة والطرر، والمنصور على أتمّ ما يكون من الحزم وسدّ
الثغور وإقامة العدل وشمول الناس بالإحسان والفضل. فلم ثُر في الضبط وحُسْن السياسة
وأمْن السبيل وتوفية حقوق الرياسة بجزيرة الأندلس كأيامه!
ودامت له هذه الحال بضعاً وعشرين سنة إلى أن توفي، وكانت وفاته في أقصى الثغور
بمدينة سالم في سنة ثلاث وتسعين وثلاثمائة في طريق الغزو.
قال: وكان رحمه الله تعالى له مجلس في الأسبوع يجتمع فيه أهل العلم للكلام بحضرته مدة
بقائه بقرطبة، قال وختن أولاده فختن معهم من أولاد أهل دولته خمسمائة صبي ومن أولاد
الضعفاء ما لم تُحص عدتهم، وأنفق فيه خمسمائة ألف دينار.
وكان ذا همة عالية في الجهاد، مواصلاً لغزو الروم، وربما خرج لصلاة العيد فيقع له فيه
الجهاد، فلا يرجع إلى قصده ويركب من فوره بعد انصرافه من الصلاة، فلا يصل إلى أوائل
الدروب إلا وقد لحقه كل من أراد من العساكر. وغزا ستاً وخمسين غزاة ذكرت في المآثر
العامرية بأوقاتها، وفتح فتوحاً كثيرةً، ووصل إلى معاقل جمَّةٍ امتنعت على من كان قبله.
وملأ الأندلس بالغنائم والسبي.
قال: وكان إذا انصرف من قتال العدو إلى سُرادقه يأمر بنفض غبار ثيابه التي شهد فيها
الحرب، ويُجمع ويُحتفظ به. فلما حضرته الوفاة أمر أن ينشر على كفنه ما جمع من ذلك إذا
وضع في قبره.
قال: وبنى مدينة الزاهرة بقرب قرطبة، وانتقل إليها بأهله وولده وحواشيه. وكان قد
يُخَوَّف من بني أمية أن يثوروا به، فأخذ في تقتيلهم صغاراً وكباراً، عملاً في الباطن لنفسه
وفي الظاهر إشفاقاً على المؤيد منهم، حتى أفنى من يصلح منهم للولاية، وفرّق في البلاد.
فكان ممن هرب الوليد بن هشام الخارج على الحاكم بمصر، الملقب بأبي زكوة.

وأخبار المنصور طويلة مشهورة لو استقصيناها لطال الكتاب، وفيما نبّهنا عليه من
أخباره وذكرناه من آثاره كفاية. وأخبرني بعض أهل الأندلس أن على قبره مكتوباً:
آثاره تُنْبيك عن أخباره حتى كأنك بالعيان تراه
تالله لا يأتي الزمان بمثله أبداً ولا يحمي الثغور سواه
ولما مات رحمه الله - قام بالأمر بعده ولده.
المظفر
أبو مروان عبد الملك
قال: وكان الناس قد تجمعوا وقصدوا الزهراء وقالوا: لا بُدّ من ظهور المؤيد وولايته الأمر
بنفسه! فلما بلغه ذلك آثر الراحة والدعة، وأحضر عبد الملك وخلع عليه وقلّده ما كان
بيد أبيه من الولاية، ونعته بالحاجب المظفر سيف الدولة. وأُمر فاتن الصغير الخادم أن يخرج
إلى المجتمعين فيصرفهم ويخبرهم برضائه بحِجبة المظفر، فأخبرهم، فأبوا!
وخرج المظفر فقابلته الفئة المجتمعة فهزمهم، وأقام في الحجبة إلى أن توفي اثنتي عشرة ليلة
بقيت من صفر سنة تسع وتسعين وثلاثمائة بموضع يقال له القبران في غزوته، فحمل في تابوت
ودفن بالزاهرة وعمره ست وثلاثون سنة. ومدة ولايته ستة أعوام وأربعة أشهر وأيام وغزا
الروم ثماني غزوات وبأيامه تضرب المثل بالأندلس عدلاً وأمناً.
ولما مات ولِيَ الحجْبة عبد الرحمن بن المنصور محمد بن أبي عامر وهو أخو المظفر ونُعت
بالحاجب المأمون ناصر الدولة، ويلقب بشنشول فافتتح أموره بالخلاعة والمجانة، وكان يخرج
من منية إلى منية ومن متنزه إلى متنزه بالملاهي والمضحكين، ويجاهر بشرب الخمر
والتهتُّك. ثم طلب من المؤيد أن يدعو له يوليه العهد بعده، وهدّده بالفتْك به إن لم يفعل،
وكثر الإرجاف بذلك.
ثم ركب شنشول من الزاهرة ومعه سائر أهل الخدمة بسلاحهم، والوزير وقاضي الجماعة،
والفقهاء والعدول، وأصحاب الشُّرط، ووجوه الناس على طبقاتهم. وسار إلى باب القصر
بقرطبة، وحضر المؤيد هشام، وأخرج كتاباً قُرئ بحضرته وهو بخط الوزير أبي عمر، وفيه:
"بسم الله الرحمن الرحيم.. هذا ما عهد به هشام المؤيد بالله أمير المؤمنين إلى الناس

عامة، وعاهد الله - عز وجل - عليه من نفسه خاصة، وأعطى به صفقة يمينه بيعة
تامة، بعد أن أمعن النظر وأطال الاستخارة، وأهمه ما جعل الله إليه من الإمامة وعصب به
من أمره، واتقى حلول القدر بما لا يؤمن، وخاف نزول القضاء بما لا يُصرف، وخشي إن
هجم محتوم ونزل مقدور به ولم يرفع لهذه الأمة علماً تأوي إليه وملجأ تنعطف عليه.. أن
يكون بلقاء ربه - تبارك وتعالى - مفَرطاً فيها ساهياً عن أداء الحقِّ إليها ونقض عند ذلك
من طبقات الناس من أحياء قريش غيرها ممن يستوجبه بدينه وأمانته وهديه وصيانته، بعد
اطِّراح الهوى والتحرِّي للحق والتزلُّف إلى الله - جل جلاله - بما يرضيه. بعد أن قطع
الأواصر وأسخط الأقارب فلم يجد أحداً هو أجدر أن يقلده عهده ويفوِّض إليه الخلافة
بعده، بفضل نفسه وكرم خيمه وشرف مركبه وعلو منصبه، مع تقواه وعفافه، ومعرفته
وإشرافه، وحزمه وتقاته.. من المأمون الغَيْب الناصح الجيْب، أبي المطرِّف عبد الرحمن
بن محمد المنصور أبي عامر، وفقه الله إذ كان أمير المؤمنين - أيده الله - قد ابتلاه
واختبره، ونظر في شأنه واعتبره، فرآه مسارعاً في الخيرات سابقاً في الحلبات مستولياً على
الغايات جامعاً للمأثرات! ومن كان المنصور أباه، والمظفر أخاه.. فلا غرْوَ أن يبلغ من
سُبُل البرّ مداه، ويحوي من سبيل الخير ما حواه. مع أن أمير المؤمنين - أكرمه الله - بما
طالع من مكنون العلم، ودعاه من مخزون الأمر، أمَّل أن يكون قد ولَّى عهده القحطاني الذي
حدَّث عنه عبد الله بن عمرو بن العاص وأبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: لا
تقوم الساعة حتى يخرج رجلٌ من قحطان يسوق الناس بعصاه. فلما استوى منه الاختيار،
وتقابلت عنده فيه الآثار، ولم يجد عنه مهرباً، ولا إلى غيره معدلاً.. خرج إليه من تدبير
الأمور في حياته، وفوّض إليه الخلافة بعد وفاته، طائعاً راضياً مستخيراً مجتهداً. وأمضى
أمير المؤمنين عهده هذا وأجازه وأنفذه، ولم يشترط فيه مثْنوية ولا خياراً، وأعطى على
الوفاء به في سره وجَهره وقوله وفِعله عهد الله وميثاقه ودمه وذِمّة نبيه محمدٍ صلى الله

عليه وسلم، وذِمة الخلفاء الراشدين من آله وآبائه، وذمة نفسه.. أن لا يبدَّل، ولا يغيَّر ولا
يحوَّل، ولا يزول، وأشهد الله تعالى وملائكته على ذلك، وكفى بالله شهيداً.. وأشهد من
وقع اسمه في هذا وهو جائز الأمر، ماضي القول والفعل بمحضرٍ من ولى عهده المأمون أبي
المطرف عبد الرحمن بن المنصور - وفقه الله - وقبوله ما قلّده، وإلزامه نفسه ما ألزمه،
وذلك في شهر ربيع الأول سنة ثمان وتسعين وثلاثمائة".
ثم كتب الوزراء والقضاة والفقهاء شهاداتهم بذلك، فلما تمّ له ما أراد من ولاية العهد
ودُعي على المنابر، أخذ في التخليط وارتكاب المحرّمات. ثم عزم على الغزاة، وتقدّم إليه
هشام أن يتعمّم هو وسائر الجند ففعل، وخرجوا في العمائم - وكانوا بها في أقبح زي
لمخالفة العادة - وذلك في يوم الجمعة لاثنتي عشرة خلت من جمادى الأولى.
وسار للغزاة وعي المعروفة بغزوة الطين، وقيل إنه انتهى إلى طليطلة، فأتاه الخبر بقيام محمد
بن هشام بن عبد الجبار وخلعه للمؤيد، وأنه أخرب الزاهرة، فخلف الناس لنفسه، ثم
تفرقوا عنه، والتحقوا بمحمد بن هشام وكان من أمره وأمر المؤيد ما نذكره في أيام محمد بن
هشام بن عبد الجبار!
إمارة محمد المهدي
هو أبو الوليد محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، وهو الحادي عشر
من ملوك بني أمية بالأندلس استولى على الأمر في جمادى الآخرة سنة تسع وتسعين
وثلاثمائة، ونحن نذكر سبب ذلك وكيف كان خروجه وكيف استولى على الأمر، لأن في
ذلك من الغرائب والحوادث ما يتعين إيراده بسببه ويفيد تجرُّبه، ويعتبر به مَنْ يتأمله، ويعلم أن
المقادير تجري على غير قياس، وإذا أراد الله أمراً هيّأ أسبابه.
وكان ابتداء هذا الأمر أن هشام بن عبد الجبار والد محمد المهدي هذا قد ترشّح لطلب
هذا الأمر لنفسه، وعزم على خلع هشام المؤيد، فبلغ ذلك المظفر عبد الملك فقتل هشام بن
عبد الجبار قبل أن يستحكم أمره في سنة تسع وتسعين. وكان محمد بن هشام جسوراً
مقداماً شجاعاً، ولم يتهيأ له أمرٌ لهيبة عبد الملك واجتماع جنده، فلم يزل محمد يترصّد

الأمر حتى مات عبد الملك وولى عبد الرحمن. وتطاول لولاية العهد ونالها، وخرج للغزاة -
على ما قدّمنا - فخلا البلد من الجند. وقُوِّي عزم محمد رجلان وهما حسن بن حيّ
الفقيه ومطرف بن ثعلبة. وكان محمد يعاشر في مدة استتاره قوماً من الصعاليك لهم على
كل عظيمة، فدسّ بعضهم إلى بعض وأعطاهم من خمسة مثاقيل إلى عشرة وأكثر من ذلك،
فاجتمع له منهم نحو أربعمائة رجل. وطاوعه على ذلك جماعة من المروانيين لخروج الأمر
عنهم وصَرْفِهِ إلى أبي عامر.
وكان عبد الرحمن قد رتّب أمور البلد قبل مسيره، وجعل النظر في الأموال وتدبير البلد إلى
قبل مسيره، وجعل النظر في الأموال وتدبير البلد إلى أحمد بن حزم وعبد الله بن سلمة
المعروف بابن الشرس، وجعل على المدينة عبد الله بن عمرو المعروف بابن عُسفلاجة وهو
أحد بني أبي عامر. وظن شنشول أن الأمور لا تتغير وأن دولتهم قد استحكم أمرُها، هذا
ومحمد في تقرير حاله، فشنع الناس أن قائماً يقوم على بني الأغلب، فبلغ ابن عسفلاجة الخبر
فأظهر البحث وبالغ في الكشف فلم يتبيّن له شيء وهجم دوراً كثيرة فلم يقف على أمر
واضح.
فلما كان في يوم الثلاثاء النصف من جمادى الآخرة مات ابن عبد الجبار بقرطبة، ونقدم إلى
ثلاثين رجلاً من كُفاة أصحابه أن يشتملوا على سيوفهم ويدخلوا من باب القنطرة متفرقين
حتى يقفوا على السترة التي تشرف على الرصيف والوادي، كما يفعل من يريد التفرّج بذلك
المكان. وأمرهم أن لا يحدثوا حدثاً حتى يأمرهم وأنذر سفهاءه وواعدهم ساعة قبل زوال
الشمس، ففعل أولئك النفر ما أمرهم به، وكان من سواهم على انتظار الوقت الذي حدّده
لهم. وركب محمد بغلته وعبر القنطرة وحده حتى انتهى إلى باب الشكال ومعه نفرٌ من
أصحابه كانوا قياماً على باب القنطرة فاقتحموا باب الشكال فأنكرهم حرس الباب وأرادوا
منعهم، فبادر محمد ودخل. وسلّ أولئك النفر سيوفهم وقصدوه، فقصدهم صاحب
المدينة ابن عسفلاجة، فيقال إنه كان يشرب مع حارسين له، فأتاه محمد وهو على أهبة

فقتله واحتزّوا رأسه. وتتابع أصحاب محمد من جهاتهم إليه.
واتصل الخبر بأهل الزاهرة عند العصر وقد عظم جمع محمد من أصحابه ومَن اجتمع إليه
من العوام وأهل البادية، فنُقب القصر من ناحية السباع ومن ناحية باب الجنان، ولم يقدر
حرس القصر على مقاومته.. ووصل إلى القصر من جهة باب السدة وأهل الزاهرة غير
مصدّقين بالأمر، وظنوا أنه أمر يدفعه صاحب المدينة إلى أن قوي عندهم الخبر بدخول
محمد القصر، فكان حسبهم اعتصامهم بالزاهرة في ليلتهم.
فلما صار محمد داخل القصر أرسل إليه المؤيد هشام يقول له: تؤمنني على نفسي وأنخلع
لك من الأمر! فقال "سبحان الله أتراني إنما قمت في هذا الأمر لأقتل أهل بيتي، وإنما قمت
غضباً له ولنفسي وبني عمي، فإن خلع نفسه طائعاً قبلت ذلك، وليس له عندي إلا ما
يحب.
وأرسل محمد إلى الفقهاء ووجوه الناس فأحضرهم، وكتب كتاب الخلع والبيعة لمحمد،
وبات تلك الليلة في القصر وأهل بالس وهي الزهراء لم يتحرك منهم أحد، وكانوا جمعاً كبيراً
منهم أبو عمرو بن حزم وعبد الله بن سلمة وابن أبي عبيدة وابن جهور، وجماعة من
الفقهاء والوزراء والقالبة - وهم الخصيان - ونفر من الجند والخزان والكتاب.
وأصبح محمد فجعل حجابته إلى ابن عمه محمد بن المعيرة، وجعل على المدينة ابن عمه
أميّة بن إسحاق. وأمرهما بإثبات كل من جاءهما في الديوان، فلم يبق أحد حتى أثبت
نفسه حتى الزهاد والعباد وأئمة المساجد وغيرهم وقبضوا العطاء، وكذلك التجار
الأغنياء. واتّبعه سائر أهل البوادي والأطراف، وأرسل حاجبه محمد بن المغيرة في خلْق
من العامة لمحاربة أهل بالس فردّوه أقبح ردٍّ وهزموه إلى داخل قرطبة. ثم كثر العامة
فهزموهم إلى بالس، ودخلها الحاجب ونُهبت، فسأل الوزراء والصقالبة الأمان فأمّنهم محمد،
فساروا إليه فوبخهم ثم عفا عنهم ورد ابن الشرس مع الحاجب لنقل ما ببالس من الأموال
والأمتعة والأثاث وقد نُهب منه ما لا يُحصى، ونُهبت ليلة الأربعاء دورٌ كثيرةٌ للعامرية،

ونهب ما جاوز بالس من دور الوزراء، وانتُهبت ما في الزاهرة حتى قُلعت الأبواب
والأخشاب، والحاجب مع ذلك ينقل.
ثم أمر محمد بعد أربعة أيام بكفّ أيدي العامة عن النهب فمنعوا، وتفرّد بنقل ما يريد،
فيقال إن الذي وصل إليه من الزاهرة في ثلاثة أيام ألف ألف وخمسمائة ألف دينار، ومن
الدراهم الأندلسية ألفاً ألف ومائة ألف، ووجد بعد ذلك خَوابيٌّ فيها نحوٌ من مائتي ألف
دينار، وأطلقت النار في الزاهرة لعشر بقين من جمادى الآخرة.
وخُطب لمحمد بالخلافة وقطعت خطبة هشام وشنشول، وقُرِئ بعد صلاة الجمعة كتابٌ
بلعن شنشول وذكر مساوئه، وقُرِئ كتابٌ آخر من محمد بإسقاط رسوم جارية وقبالات
محدثة. وصلّى محمد بالناس الجمعة لأربع من جمادى الآخرة ودعا لنفسه وتلقّب بالمهديّ،
وقُرِئ بعد نزوله كتاب على المنبر بالنفير لقتال شنشول. ووصل أهل الأقاليم من أقصى
الأندلس مظهرين عُدّة الرحب، وولّى محمد جنده قواداً من طبيب وحائك وجزار وسرّاج،
وخرج بهم ونزل بفحص السرادق، وأمر أهل النواحي بالنزول حول سرادقه.
أخبار شنشول ومقتله
قال: وأما شنشول فإنه لما بلغه الخبر - وكان قد انتهى إلى طليطلة - عاد إلى قلعة رباح
وقد تخاذل عنه الناس؛ فعزم على استجلاب الناس لنفسه فامتنعوا وقالوا: قد خلفنا مرة
ولا يخلف أخرى! فعلم أنهم خاذلوه، فدعا محمد بن يعلى الزناتي وكان عزم على خذلانه
فقال له: ما ترى فيما نحن فيه؟ فقال له: أصدقك عن نفسي وعن الجند ليس والله يقاتل
معك أحدٌ منهم! قال ما الدليل على ذلك. قال: تأمر بتقديم مطبخك إلى طريق طليطلة
وتظهر الرحيل إليها فتعلم مَنْ يتبعك ومن يتخّف عنك! قال: صدقت.
وكان ابن عومس القومس مع شنشول يريد قرطبة معاقداً له يستنصر به على مَنْ يناوئه من
القمامسة. فلما رأى اضطراب حال شنشول أشار عليه أن يرحل معه إلى بلده، ويكونوا
يداً واحدة، ويلجأوا إلى مكان، فأبى ذلك وقال: لا بُدّ من الإشراف على قرطبة فإني

أرجو أنني إذا طلعت عليا اختلفت كلمة محمدٍ، ولي أنصارٌ يميلون إلى سلطاني ويحبون
ظهوري! فقال له القومس: خذ باليقين ودع الظن، أمرك والله مختلٌّ وجندك عليك لا لك!
فقال: لا بد من المسير إلى قرطبة! فقال: أنا معك على كراهية لرأيك وعلم بخطاياك.
وسار شنشول من قلعة رباح والأخبار تتواتر بتظاهر أهل قرطبة مع ابن عبد الجبار، فلما
بلغ منزل هانئٍ فارقه عامة البربر ليلاً، وذلك في سلخ جمادى الآخرة، ثم فارقه الناس بعد
ذلك وبقي في نفر يسيرٍ من خدمه، وابن عومس في مفر من النصارى، فقال له: سر بنا من
هنا قبل أن يدهمنا ما يمنعنا من ذلك! فأبى شنشول وقال: قد بعثت القاضي في طلب
الأمان لي. ثم تجبر في أمره وسار إلى دير يعرف بدير شَوْس ليلة الجمعة لثلاث خلون من
شهر رجب.
وبلغ خبره محمد، فأرسل إليه حاجبه في مائتي فارس، فأرسل الحاجب ابن ذري مولى
الحكم فسبقه إلى الدير فصبحه في يوم الجمعة، فقال شنشول لما عاينه ومن معه: ما لكم
عليّ سبيل، أنا في طاعة المهدي! فاستنزلوه من الدير ومعه ابن عومس ومن تبعهما، وأخذ
نساء شنشول - وهن سبعون جارية - فبعث بهن إلى قرطبة، ولحق الحاجب بابن ذري
قبل العصر من يوم الجمعة. فلما أقبل عليهم نزل شنشول فقبّل الأرض بين يدي الحاجب
مراراً، فقيل له: قَبِّل حافر فرسه! ففعل وقبّل رجله ويده، ثم حُمل على غير فرسه وابن
عومس ساكت لم ينطق، وأشار إلى الحاجب بانتزاع قلنسوة شنشول عن رأس فانتزعت.
ورجع يريد قرطبة، فسار إلى أن غربت الشمس، فنزل وأمر أن يكتف شنشول فعطفت
يده عطفاً شديداً فقال: نفِّسوا عني وأطلِقوا يدي لأستريح ساعة! فنفسوا عن يده، فأخرج
من خُفّه سكيناً كالبرق فعوجل قبل أن يصنع شيئاً، ثم أضجعه الحاجب وذبحه. وقتل ابن
عومس وأخذ رأسيهما، وحمل جثة شنشول، وسار بها إلى القصر بقرطبة. فأمر محمد
بشق بطنه ونزع ما فيه وحُشي بعقاقير تحفظه، ثم نصب رأسه على قناة ووقف به على

باب السدة ثم رُكِّب على جسده، وكُسي قميصاً وسراويل، وأخرج فسُمّر على خشبة
على باب السدة. وأمر الرّسّان صاحب شرطه شنشول أن ينادي: هذا شنشول المأمون!
ثم يلعنه ويلعن نفسه، وذلك في يوم السبت لأربع خلون من شهر رجب.
وكانت مدة ولاية شنشول أربعة أشهر وأياماً، وكان قبيح الفعال كثير التخليط متجاهراً
بالفِسْق، شُهد عليه بأشياء لا تصدر عن مسلم، منها أنه سمع المؤذن يقول "حيّ علي
الصلاة" فقال: لو قال حيّ على الكبير لكان خيراً له! وكثيرٍ من هذا القول وما يناسبه،
وانقرضت الدولة العامرية بمقتل شنشول.
قال إبراهيم بن الرقيق: ومن أعجب ما رأيناه أنه كان من نصف نهار يوم الثلاثاء لأربع
عشرة بقيت من جمادى الآخرة إلى نصف نهار الأربعاء الذي يليه، فُتحت مدينة قرطبة
وهُدِمت مدينة الزاهرة، وخُلع خليفة وهو هشام بن الحكم، وولى خليفةٌ وهو محمد بن
هشام بن عبد الجبار، وزالت دولة بني عامر، وحدثت دولة بني أمية، وقُتل وزيرٌ وهو ابن
عُسفلاجة، وأقيمت جيوش من العامة، ونُكب خلْقٌ من الوزراء، وولى الوزارة آخرون،
وكان ذلك على أيدي عشرة رجال حجّامين وجزارين وحاكة وزبالين، وهم جند ابن عبد
الجبار!
قال: وفي يوم الخميس لسبعٍ خلون من شهر رجب وصل كتابُ واضحٍ من مدينة سالم إلى
محمدٍ وطاعته وإظهار الاستبشار بمقت شنشول، فسُرّ به محمدٌ وشكر ذلك لواضح، وحمل
إليه مالاً كثيراً وكساء وفُرشاً وطرائف، وولاّه سائر الثغر.
قال: ولما استوثق الأمر لمحمد أسقط من جنده نحواً من سبعة آلاف وعادوا إلى بنيهم
فانتفع بهم الناس، ثم نفى جماعةٌ من الصقالبة العامرية، ثم أخرج بعد ذلك صقالبة القصر
وسدّ أبوابه. وأظهر محمدٌ من الخلاعة واللهو والشُّرب ما كان بفعله شنشول، واستعمل
مائة عود ومائة بوق. وفي شعبان توفي رجل يهوديٌّ فأخذه محمد وأوقف عليه رجالاً من
أصحابه، وكان يشبه بهشام فشهدوا عند العامة أنهم وقفوا على هشام ميتاً لا جُرحٌ به ولا

أثرٌ وأنه مات حتف أنفه. وحضر الفقهاء والعدول وخلْقٌ من العامة إلى القصر وصلّوا عليه
يوم الاثنين لأربع بقين من شعبان وأخفاه عند وزيره الحسن بن حيّ.
وفي شهر رمضان سجن محمد سليمان بن عبد الرحمن - وكان قد جعله وليّ عهده -
وسجن جماعةً من قريش، وأظهر بُغْض البربر فكان يسبّهم في مجلسه.
قيام هشام على محمد
وما كان من أمره إلى أن قُتل
قال: ولما شرع محمد بن عبد الجبار في اطّراح البربر ودبّر في قتل عشرة منهم، سعى هشام
بن سليمان بن عبد الرحمن في خلْع محمد ووافقه جماعةٌ من الجند واحتفل أمره، وخرج إلى
فحص السرداق وانضمّ إليه الذين أسقطهم محمد من جنده، فراسله محمدٌ وقبَّح عليه فِعله
فقال: سُجن والدي على غير شيء ولا أدري ما صُنع بهّ فأطلقه محمد فسلم يرجع هشام
عن رأيه، وتحرّك بالجند وأحرق سوق السرّاجين. ثم خذله جنده وأخذوه أسيراً هو
وأخوه أبو بكر وأبوه سليمان، فسلموهم إلى محمد؛ فقتل هشاماً وأبا بكر صبراً، وذلك
لأربعٍ بقين من شوال. ونُهبت دور البربر، ونودي في البلد "من أتى برأس بربري فله كذا
وكذا" فشرع أهل قرطبة في قتل من قدروا عليه منهم، وسُبيت نساؤهم، وهرب من سلم
من البربر إلى أزملاط ثم جلَوا إلى الثغر. وكان من فرّ بعد قتل هشام سليمان بن الحكم بن
سليمان بن الناصر، فنصبه البربر خليفة.
قيام سليمان
بن الحكم المستعين بالله
قال: لما نصبه البربر خليفة نعت نفسه المستعين بالله، واستوزر أحمد بن سعيد، ونهض
بمن معه إلى وادي الحجارة فدخلوه عنوةً، وعرضوا أنفسهم على واضح العامريّ غلام
المنصور ابن أبي عامر صاحب مدينة سالم، فلم يقبلهم، وبعث إليه محمد ابن هشام المهدي
قيصر الفتى في جيش ليُعينه على سليمان، فالتقوا واقتتلوا، وانهزم واضحٌ وقتل قيصر.
ولحق واضح بمدينة سالمٍ فتحصن بها، ومنع الميرة عن البربر، فأقاموا خمسة عشر يوماً

يأكلون الحشيش. فلما اشتد ذلك عليهم أرسلوا إلى ابن مادويه الرومي واستُنجد به،
وسأله سليمان أن يدخل بينهم وبين ابن عبد الجبار وواضح في الصلح وقال: يخرج معنا إلى
واضح ويرغب إليه في الإصلاح بيننا وبين صاحبه، فإن أبي ذلك سرنا إلى قرطبة وناجزنا
ابن عبد الجبار.
فسارت الرسل إليه فوجدوا رُسل ابن عبد الجبار وواضح عنده يسألونه الصلح معهما
على أن يعطياه ما اشترط من مدائن الثغر، وأتوه بخيلٍ وبغالٍ وكساءٍ وجوهرٍ وطيبٍ
وتحفٍ كثيرةٍ. فأجاب البربر إلى ما أرادوه من الصلح أو الاتفاق معهم على أن يعطوه ما
بذل واضح والمهديُّ من مدائن الثغور إذا ظفروا. فقبلوا ذلك منه، وردّ رُسُل واضح وابن
عبد الجبار، ثم أرسل إلى البربر ألْف عجلةٍ تحمل الدقيق والشعير وأنواع المأكل وألف ثور
وخمسة آلاف شاة وجميع ما يصلحهم من الملبس وغير ذلك. فقويت البربر بذلك، وسار
إليهم في جموعه وساروا إلى مدينة سالم، وأرسلوا واضحاً في الصلح فأبى، فساروا إلى
قرطبة في المحرم سنة أربعمائة. وابتعهم واضح بمن معه وقابلهم، فانهزم وقُتل خلْقٌ كثير من
أصحابه، ووصل المنهزمون من أصحابه إلى قرطبة، وملك البربر جميع ما كان عسْكر
واضح، هذا وابن عبد الجبار في لهْوه واستهتاره، ثم خرج إلى فحص السرداق وخندق
عليه، وأتاه واضحٌ في أربعمائة فارس من أهل مدينة سالم، ووصل غلامه يلبق في مائتي
فارس.
وأقبل سليمان بالبربر فنادى ابن عبد الجبار أن يُخرج كل من بلغ به الحُلُمُ من سائر الناس،
فلم يتخلف أحدٌ فلا ترى شيخاً ضعيفاً أو حَدَثاً غِرّاً وبقّالاً ونسّاجاً. فلما كان في يوم
السبت منتصف شهر ربيع الأول التقى البربر وأهل قرطبة فحمل عليهم من البربر نحو ثلاثين
فارساً فلم يقفوا لهم وانهزموا، وسقط بعضهم على بعض. ومضى واضحٌ من فَوْره إلى
الثغر لم يعرج على شيء.. ووضع البربر السيف في أهل قرطبة فقتلوا خلقاً كثيراً، وغرق
في وادي قرطبة ما لا يُحصى.

وسار ابن عبد الجبار إلى القصر وأظهر هشاماً المؤيد وأقعده حيث يراه الناس في مكان
يشرف على باب الشكال والقنطرة، وأرسل القاضي ابن ذكوان إلى البربر يقول: إنما أنا قائم
دون هشام ونائبٌ عنه كما يحجبه الحاجب والأمر له، وهو أمير المؤمنين! فلما أبلغهم
القاضي الرسالة قالوا: بالأمس يموت هشامٌ وتصلِّي عليه أنت وأميرك، واليوم تعيش وتُرجع
الخلافة إليه! فاعتذر القاضي من ذلك.
ثم خرج أهل قرطبة بأجمعهم إلى سليمان فأكرمهم، وأحسن لقاءهم. ودخل سليمان
القصر، وهرب ابن عبد الجبار فكانت مدة ولايته تسعة أشهر. واستنجز ابن مادوية البربر
أن يعطوه الحصون التي شرطوها له فقالوا: ليست الآن بأيدينا فإذا عهد سلطاننا أنجزنا لك
ما وافقناك عليه! ورحل يوم الاثنين لسبع بقين من شهر ربيع الأول.
قال: ثم فرّق سليمان العمال في الولايات، وأنزل البربر بالزهراء، وأعاد المؤيد إلى السجن،
وأنزل شنشول عن خشبته وأمر بغسْله والصلاة عليه ودفنه، فدفن في دار أبيه.
وأما المهدي محمد بن هشام فإنه هرب إلى طليطلة بعد اختفائه بقرطبة، فوصل في أول
جمادى الأُولى فقبله أهلها أحسن قُبولٍ، وخالفوا هشام بن سليمان. فتأهب لقصد
طليطلة. ورحل يوم الاثنين لإحدى عشرة خلت من جُمادى الآخرة. فلما قرب منها
أرسل الفقهاء إلى أهلها ليعذر إليهم فرجعوا بخلافهم، فسار إليهم وكان رجلٌ يعرف
بالقرشي الحرّاني قد جمع جموعاً عظيمةً ودعا لنفسه، فسرح إليه سليمان عليَّ بن وداعة
في جيش كثيف فهزم جموع القرشي وأسره وأحضره إلى سليمان، فاعتقله ثم قتله.
قال: وتجاوز سليمان طليطلة رجاء أن يرجعوا إلى الطاعة، ورحل إلى الثغر على مدينة
سالم. ثم التحق بمحمد بن عبد الجبار في جماعة من العبيد، وانضم إليه ابن مسلمة
صاحب الشرطة. وخرج واضحٌ من مدينة سالم إلى طرطوشة وكتب إلى سليمان يرغب
في المعافاة من الخدمة ويكون في ميورقة مرابطاً وينقطع عن الناس، وإنما يفعل ذلك تطميناً

لسليمان حتى يحكم أمره. فأرسل سليمان إليه بالنظر في سائر الثغر وجهاد العدوّ، فأخذ
واضح في الاتفاق مع الفرنج وشرط لهم ما أرادوه، واجتمعوا كلهم مع المهدي بطليطلة.
وبلغ سليمان ذلك فاستنفر الناس فاستعفاه أهل قرطبة، وذكروا عجزهم عن القتال
فأعفاهم بشفاعة البربر. وخرج لقتال القوم، فالتقوا عند عقبة الثغر في العُشر الأخير من
شوّال، فجعل البربر سليمان في ساقتهم وجعلوا معه خيلاً من المغاربة وقالوا له: لا تبرح
موضعك ولو وطئتك الخيل! ثم تقدموا فحملت الفرنج عليهم حملة منكرة فأخرجوا لهم
ليتمكنوا منهم، فرأى سليمان خيل الفرنج وقد خرقت صفوف البربر فلم يشك أن البربر قد
اصطلموا، فانهزم فيمن معه. ثم عطف البربر على الفرنج فقتلوا ملكهم أرمغند، وستين من
وجوههم. ورأى البربر هزيمة سليمان فانحازوا إلى الزهراء، ثم خرجوا منها ليلاً. ومضى
سليمان إلى مدينة شاطِبة، فكانت مدة ولاية سليمان سبعة أشهر.

دولة المهدي محمد الثانية

قال: ولما انهزم سليمان دخل محمد بن هشام بن عبد الجبار قرطبة ومعه الفرنج فأفسدوا
غاية الفساد، ونهبوا الأموال، واستطالوا على الناس ثم سألهم المهديُّ وواضحٌ المسير معهما
لقتال البربر فخرجوا كلهم، والتقوا بالبربر بوادي لدة لست خلون من ذي القعدة، واقتتلوا
قتالاً شديداً فانهزم واضح وابن عبد الجبار والفرنج أقبح هزيمة، وقتل في المعركة يلبق غلام
واضح ومؤمن الصقلبي، وتخلّف ابن زُرزور مولى الحكم وغيرهم. وقتل من الفرنج أكثر من
ثلاثة آلاف وغرق في البحر كثيرٌ، واحتوى البربر على ما في معسكرهم، ووصل المنهزمون
إلى قرطبة في اليوم الثاني من الوَقْعة فزاد حنق الفرنج وعاثوا بقرطبة وقتلوا كل من يُشبّه
بالبربر بها. فسألهم محمد وواضحٌ، ورغبا إليهم في الرجوع معهم لقتال البربر، فأبَوا عليهما
وقالوا: قد قُتل ملكُنا وخيارُنا ووجوهنا! وفارقوا مدينة قرطبة وعادوا إلى بلادهم، وكان
رحيلهم عنها لشدة خوفهم من البربر، حتى كان الرجل من أهلها يلقى الآخر فيعزيه كما
يعزى من فقد أهله وماله!

ثم فرض محمد بن عبد الجبار على أهل قرطبة مالاً فأدوه، وتهيأ للخروج وخرج بواضح
وأهل قرطبة والعبيد لقصد البربر. فلما ساروا ثلاثين ميلا كروا راجعين إلى قرطبة، وأقام
من ورائه سوراً وتحصن به. هذا والبربر يغيرون في نواحي قرطبة، وأخذوا الجبل المعروف
بابن حفصون - وهو كثير الماء والمرعى والثمر والزرع - فزاد ذلك في قوتهم. وابن عبد
الجبار وجنده في انهماك على اللهو وارتكاب المحارم وإظهار الفسق، وإفساد ما قدروا
عليه، والنزول على الناس في دورهم، وقتل من دافعهم، فكرة واضح ذلك منه - وكان قد
حقد عليه ما أتاه إلى بني أبي عامر - فأخذ في التدبير عليه.
وبلغ ذلك محمد فجمع ما في القصر من النفائس وسلمها إلى ابن رافع رأسِه - رجل من
أهل طليلطة - وأمره بالخروج إليها، وتحيّل في الخروج في أثره. فلما كان في يوم الأحد
الحادي عشر من ذي الحجة سنة أربعمائة - وقيل لثمان خلون منه - ركب واضح
والعبيد وأهل الثغر وصاحوا: لا طاعة إلا طاعة المؤيد!
ثم قصدوا القصر وأخرجوا المؤيد، وأجلسوه على منبر الخلافة وألبسوه لباسها. وكان
محمد بن عبد الجبار في الحمام، فدخل عليه ابن وداعة وأخبره الخبر، فخرج وجاء إلى
هشام وأراد أن يجلس إلى جانبه، فأخذ عنبرٌ الخادم بيده ورمى به من على المنبر وأجلسه
بين يدي المؤيد. فسبّه المؤيد ووبّخه وعدّد عليه ما أتاه وما فعله معه، فأخذ عنبر بيده
وأقامه وأصعده إلى السطح وأراد ضرْب عُنُقه فتعلق به، فتعاورته سيوف العبيد والخدم
والصقالبة فقتلوه، وأخذوا رأسه ورموا بجثته، فسقطت في الموضع الذي كانت فيه جثة ابن
عُسفلاجة لما قتله. فكانت مودة ولايته هذه نحو شهر، ومدة مملكته الأولى والثانية عشرة
أشهر، وعمره خمساً وثلاثين سنة!
دولة المؤيد هشام الثانية
قال: وبايع الأجناد هشاماً في يوم الأحد الحادي عشر من ذي الحجة سنة أربعمائة
وأحضر بين يديه رأس محمد المهدي، فأمر بإرساله إلى البربر وهم يومئذ بوادي شوش في
خدمة المستعين بالله سليمان بن الحكم، طمعاً أن البربر يفعلون به كما فعل هو بالمهدي،

ويعودون إلى طاعته فيتم أمره وتستقيم دولته. فلما وصل إليهم مع جماعة من أهل قرطبة
كادوا يقتلونهم، فمنعهم المستعين بالله بعد أن أفرط في توبيخهم، فعادوا إلى قرطبة.
وتولى واضحٌ العامري حجابة المؤيد، وأمره بحفر الخندق على قرطبة فحفره، وحصنها،
قال: وكان لمحمد بن عبد الجبار ولدٌ بقرطبة عمره ست عشرة سنة فاحتال له شيعة أبيه
حتى أوصلوه إلى مدينة طليطلة، فقبله أهلها، وأمّروه عليهم. فأغار على بعض ما كان
لواضح، فلقيه محارب التجيبي فقهره وأسره وأرسل به إلى واضح، فقتله.
قال: ثم قصد المستعين قرطبة في جموعه من البربر، فلم يتمكن منها، فقصد الزهراء
فاستوى عليها في يوم السبت لست بقين من شهر ربيع الأول سنة إحدى وأربعمائة، وقتل
منْ بها من الجند، وأخذ في قتال أهل قرطبة، وواضحٌ يتولى حربه. ثم رحل البربر من
الزهراء لخمس بقين من شعبان، وجعلوا يغيرون على البلاد ويخرّبون، فانضم أهل البوادي
إلى قرطبة خوفاً منهم، فصاروا أكثر من أهلها، وغلت الأسعار فمات أكثرهم جوعاً.
وقطع البربر الميرة عن قرطبة، فاشتد بها الغلاء فبيع مُدُّ القمح - وهو قفيزان ونصف
بالقروي - بثلاثمائة دينار دراهم وهي مائة مثقال عيناً. وجاءت رسل ابن مادويه
يستنجزون تسليم الحصون إليه على أن لا يغزوهم ولا يتعرض لشيء من ثغورهم، فرضوا
بهدنة وسلّموا إليه مدناً كثيرة وأكثر من مائتي حصن مما افتتحه الحكم بن عبد الرحمن
ومحمد بن أبي عامر. وسمع ابن شالوس بما تسلّم ابن مادويه من الحصون، فكاتب على
حصون أخرى وتوعّد وتهدّد، فأُجيب إلى ما سأل وسُلّمت إليه.
وأخرب البربر مدناً جليلة، وقتلوا أكثر أهلها، ولم تسلم منهم إلا طليطلة ومدينة سالم،
وبلغت خيلهم أندراوه وما وراءها حتى إن الراكب يسير شهوراً لا يرى أحداً في قرية ولا
طريق. قال: واستخف جند قرطبة بواضح حتى صاروا يصرحون بسبّه، فعزم على
مراسلة البربر في الصلح لما رأى من اضطراب الجند عليه وطمعهم فيه، وأظهر أن ذلك عن

رأي هشام لما فيه من الصلاح للعامة والخاصة. فبعث واضحٌ إلى البربر رجلاً يعرف بابن
بكر فاجتمع بسليمان وعاد بجوابه فقتله الجند في المجلس - ولم يقدر هشام لا واضح على
منعهم - واحتزُّوا رأسه، وطافوا به البلد. فعزم واضح على الهرب إلى البربر، وكان ابن
أبي وداعة يعاديه فزحف إلى داره في عدّة من الجند فأخرجوه حاسراً وعاتبوه على ما
أتلف من الأموال وما عزم عليه من مصالحة البربر. وضربه ابن أبي وداعة بسيفه وحمل
عليه القوم فقتلوه، واحتزوا رأسه وطافوا به، وألقوا جثته في الرصيف بالموضع الذي أُلقِي
فيه ابن عُسقلاجة وابن عبد الجبار، ونُهبت دور أصحابه.
وولّى هشام ابن أبي وداعة المدينة، فاشتدّ على أهل الريب وهاب الجند وغيرهم، وكان
مقتل واضح في يوم الثلاثاء للنصف من شهر ربيع الأول سنة اثنتين وأربعمائة.
ثم قدم البربر وسليمان، ونازلوا قرطبة وظاهرها وقد امتلأت أيديهم بالغنائم، وقلّت
الأقوات على أهل قرطبة، وعظم عليهم الخطب، واشتد الأمر، وكان بين أهلها والبربر
مراسلات وأمور يطول شرحها. كان آخر ذلك أن سليمان ملك قرطبة في يوم الأحد لثلاث
خلون من شوّال سنة ثلاثٍ وأربعمائة، وكانت مدة ولاية المؤيد الثانية سنتين وتسعة أشهر
واثنين وعشرين يوماً وفُقِد المؤيد لخمس خلون من شوال سنة ثلاث وأربعمائة.

دولة المستعين بالله الثانية

قال: ولما فتح سليمان بن الحكم المستعين قرطبة دخل القصر لخمس خلون من شوّال
وتلقّب بالظافر بحول الله، وأحضر هشاماً ووبخه وقال: قد كنت تبرأت لي من الخلافة
فأعطيت صفقة يمينك فما حملك على نقْض عهدك؟ فاعتذر أنه مغلوب عليه، وتبرأ له،
وسلّم الأمر إليه. وضرب سرادق سليمان بشقنده، ونزل البربر حوله، وهرب كثير من
موالي بني أمية فاحتوى البربر عليها واقتسموا البلد بينهم. وطالب سليمان الناس بالأموال
فغرمهم فوق طاقتهم، واشتد أمر البربر على الناس فاستباحوا الأموال والحريم وسليمان لا
يمكنه دفعهم وليس في يده مع قرطبة غير إشبيلية ولبلة والشنبة وباجة.

وكان في عسكره رجلان من ولد الحسن بن علي بن أبي طالب وهما القاسم وعلي ابنا
حمّود بن ميمون فقوّدهما على المغاربة، ثم ولّى علياً الأصغر منهما سبتة وطنجة، وولى
القاسم الجزيرة الخضراء، وبين الموضعين المجاز المعروف بالزقاق، وسعة البحر هناك ثمانية
عشرة ميلاً.
وكانت العبيد لما خرجوا من قرطبة عند دخول البربر إليها ملكوا مدناً عظيمة وتحصّنوا
فيها، فراسلهم علي بن حمّود وذكر أن هشام بن الحكم لما كان محاصَراً بقرطبة كتب إليه
يوليه عهده فاستجاب له العبيد وبايعوه. فزحف من سبتة إلى مالقة وفيها عامر بن فتوح
الفائقي مولى فائق - مولى المستنصر - فأطاعه وأدخله مالقة. فملكها عليُّ بن حمود
وأخرج عنها عامر بن فتوح ثم زحف بمن معه من البربر وجمهور العبيد إلى قرطبة، فأخرج
له المستعين ولده - ولي عهده محمد بن سليمان - في عساكر البربر، ومعه أحمد بن سعيد
الوزير. فانهزموا، ورجع محمد بن عبد الله الزناتي إلى قرطبة، وأخرج المستعين بالله وضمن
له أن يقاتل بين يديه. فلما قربوا من عسكر علي بن حمود قادوه بلجام بغلته وسلموه لعلي،
فلما حصل في يده دخل القصر في يوم الأحد لسبع بقين من المحرم سنة سبع وأربعمائة،
وضرب عنق سليمان بيده وقتل أباه الحكم - وهو شيخ كبير له اثنتان وسبعون سنة -
فكانت مدة ولاية سليمان ثلاث سنين وثلاثة أشهر وأياماً. وكان مولده سنة أربع وخمسين
وثلاثمائة، وكان أديباً شاعراً، فمن شعره:
عجباً يهاب الليث حدّ سِناني وأهاب لحْظ فَواتِر الأجفان
وهي أبيات عارض بها العباس بن الأحنف في أبياته التي أنشدها على لسان الرشيد التي
أولها:
ملّكَ الثلاثُ الآنسات عناني وحللْن من قلبي بكلّ مكان
وقد ذكرنا ذلك في باب الغزل والنسيب، قال: ولما قتل سليمان بن الحكم هذا انقطعت
دعوة بني أمية من سائر أقطار الأندلس وقامت دعوة الفاطميين بها. وولى منهم ثلاثة ملوك
وهم علي بن حمود، والقاسم بن حمود أخوه، ويحيى بن علي، ثم عادت بعد ذلك الدعوة
الأموية على ما نذكره إن شاء الله تعالى.

إمارة الناصر علي
بن حمود
ابن ميمون بن أحمد بن علي بن عبد الله بن عمر بن إدريس بن عبد الله بن الحسن بن
الحسن بن علي بن أبي طالب، ملك قرطبة لسبع بقين من المحرم سنة سبع وأربعمائة على
ما ذكرناه، وخوطب بأمير المؤمنين، وتلقّب بالناصر. ولما دخل قرطبة أحضر الفقهاء
والوزراء وسأل سليمان بحضرتهم عن المؤيد فقال "مات" فألزمه أن يُريَه قبره وأخرجه دفينا
لا أثر فيه فأمر بتكفينه ودفنه في الروضة. ثم استفتى الفقهاء في قتْل سليمان، فقتله هو
وأباه الحكم عبد الله وولده سليمان في وقت واحدٍ، وتمّ لعلي ما أراد واستقامت أموره.
وفي سنة ثمان وأربعمائة خالف عليه العبيد الذين كانوا بايعوه، وقدّموا عبد الرحمن بن
محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر أخا المهدي وسمّوه المرتضي وزحفوا به إلى
قرطبة، ثم ندموا على إقامته لِما رأوه من صرامته، وخافوا عواقب تمكُّنه فانهزموا عنه
ودسّوا عليه من قتله غيلةً. وبقي عليّ بن حمود بقرطبة إلى آخر سنة ثمان وأربعمائة فقتله
صقالبته في الحمام، فكانت مدة ولايته سنة واحدة وعشرة أشهر، وكان له من الوالد يحيى
وإدريس.
ولاية المأمون
القاسم بن حمود بن ميمون الفاطميّ
ولي بعد مقْتل الناصر في أواخر سنة ثمان وأربعمائة، وكان أسنّ من الناصر بعشرة أعوام،
ونعت نسفه بالمأمون وكان يحبّ الموادعة، فأمن الناس معه. وكان يذكر عنه أنه يتشيع ولم
يُظهر ذلك، ولا غَيَّر للناس عادة ولا مذهباً، وكذلك سائر من ولي منهم الأندلس. فبقي
القاسم إلى شهر ربيع الأول سنة اثنتي عشرة وأربعمائة، فقام عليه ابن أخيه يحيى بن علي
بن حمود بمالقة، فهرب القاسم عن قرطبة بغير قتال، وصار إلى إشبيلية.
وزحف ابن أخيه المذكور من مالقة بالعساكر، فدخل قرطبة دون مانع، وتسمَّى بالخلافة
وتلقّب، فبقي كذلك إلى أن اجتمع للقاسم أمره واستمال البربر، وزحف بهم إلى قرطبة

فدخلها في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة. وهرب يحيى بن علي إلى مالقة، فبقي القاسم
بقرطبة شهوراً.. ثم اضطرب أمره، وغلب ابن أخيه يحيى على الجزيرة الخضراء وكانت
معقل القاسم وبها كانت امرأته وذخائره. وغلب ابن أخيه إدريس بن علي شقيق يحيى
صاحب سبتة على طنجة، وكانت عدة القاسم يلجأ إليها إن رأى ما يخاف. وقام عليه
جماعة أهل قرطبة في المدينة، وأغلقوا أبوابه دونه، فحاصرها نَيِّفاً وخمسين يوماً، ثم زحف
أهل قرطبةَ فانهزموا عن القاسم. ولحقت كلُّ طائفةٍ ببلدٍ فغلبت عليه، وذلك في شعبان
سنة أربع عشرة وأربعمائة وأعاد أهل قرطبة الدولة الأموية على ما نذكره إن شاء الله
تعالى.
قال: وأما القاسم فقصد إشبيلية وبها ابناه محمد والحسن فلما عرف أهل إشبيلية
خروجه عن قرطبة ومجيئه إليهم طردوا ابنيْهِ ومن كان معهما، وضبطوا بلدهم وقدَّموا
على أنفسهم ثلاثة رجال؛ منهم القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عبّاد اللخمي،
ومحمد بن مرثم الإهابي، ومحمد بن محمد بن الحسن الزبيدي، ومكثوا كذلك أياماً مشتركين
في سياسة البلد وتدبيره، ثم انفرد القاضي أبو القاسم بن عباد على ما نذكره إن شاء الله.
ولحق القاسم بشريش، واجتمع البربر على تقديم ابن أخيه يحيى، وحصروا القاسم حتى
صار في قبضة ابن أخيه. وانفرد بولاية البربر، وبقي القاسم أسيراً عنده وعند أخيه
إدريس إلى أن مات إدريس، فقُتل القاسم خنْقاً في سنة إحدى وثلاثين وأربعمائة، وحُمِل إلى
ابنه محمد بن القاسم بالجزيرة فدفنه هناك.
وكانت ولاية القاسم تُسمَّى بالخلافة بقرطبة إلى أن أسره ابن أخيه ستة أعوام، ثم كان
مقبوضاً عليه ستَّ عشرة سنةً عند ابنَيْ أخيه إلى أن مات - قيل ومات وهو ابن ثمانين
سنة - وله من الولد محمد والحسن وأمهما أميرة بنت الحسن بن فنون بن إبراهيم العلوي.

ولاية المعتلي يحيى بن علي

وكنيته أبو إسحاق، وقيل أبو محمد تَسمَّى بالخلافة بقرطبة في سنة ثلاث عشرة وأربعمائة،

ثم هرب منها إلى مالقة في سنة أربع عشرة. ثم سعى قومٌ من المفسدين لأي إعادة دعوته
بقرطبة في سنة ست عشرةَ ولم يدخلها، واستخلف عليها عبد الرحمن بن عطاف، ثم
قطعت خطبته من قرطبة في سنة سبع عشرة. وبقي يتردد إليها بالعساكر إلى أن اتفق
جماعة البربر على طاعته، وسلموا إليه الحصون والقلاع والمدن، وعظم أمره فصار بقرمونة
ليحاصر مدينة إشبيلية. فخرج يوماً وهو سكران إلى خَيْلٍ ظهرت من إشبيلية بقرب
قرمونة، فلقيها وقد كمن له كمناء، فلم يكن بأسرع من أن قتل، وذلك في يوم الأحد لسبعٍ
خلون من المحرم سنة سبع وعشرين وأربعمائة، وكان له من الولد الحسن وإدريس.

عود الدولة الأموية بمدينة قرطبة
ومن ولى منهم

إمارة المستظهر بالله

هو أبو المطرّف عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار - أخو المهدي - بويع له بالخلافة
بقرطبة لثلاث عشرة من شهر رمضان سنة أربع عشرة وأربعمائة. وذلك أن أهل قرطبة لما
هزموا البربر وأخرجوا القاسم - كما قدمنا - اتفق رأيُهُم على ردِّ الأمرِ إلى بني أمية.
فاختاروا منهم ثلاثة، وهم عبد الرحمن هذا، وسليمان بن المرتضى، ومحمد بن عبد
الرحمن. فاتفق رأيهم على إمارة عبد الرحمن فبايعوه، وتلقب بالمستظهر، وكان مولده في ذي
القعدة سنة اثنتين وتسعين وثلاثمائة. وقام عليه محمد بن عبد الرحمن مع طائفة من أرذال
العوام فقتل عبد الرحمن لثلاث بقين من ذي القعدة منها، وقيل لثلاث خلون منه. وكان في
غاية الأدب، وله شعر. وزيره الفقيه أبو محمد علي بن أحمد بن حزم.

إمارة المستكفي بالله

هو أبو عبد الرحمن محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله بن عبد الرحمن الناصر بن هشام
المستظهر، وأمه أم ولد اسمها حوراء ولي بعد قتل المستظهر لثلاث خلون أو بقين من ذي
القعدة سنة أربع عشرة وأربعمائة، وله ثمان وأربعون سنةً. وكان أبوه ممن قتله الوزير محمد
بن أبي عامر في أوَّل دولة المؤيد هشام لِسعْيه في القيام وطلبه الأمر، فولي محمد هذا عشرة

أشهرٍ وأياماً، وخُلع. وقيل بل خلع في يوم الثلاثاء لخمسٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة ستَّ
عشرة، وخرج من قرطبة يريد الثَّغْرَ فمات بقريةٍ من قُرى شنت مرية في أول شهر ربيع الآخر
منها، فكانت مدة مملكته بقرطبة على هذا القول سنةً وأربعة أشهر. وكان الحاكم في أيامه
صاحب المظالم محمد بن عبد الرؤوف.
وكان محمد بن عبد الرحمن في نهاية التخلف، صاحب أكلٍ وشربٍ ونكاح، ولم يزل مُتَغَلباَ
عليه طولَ ولايته لا ينفذ له أمر، ولا عقب له. وقيل في وفاته إنه لما هرب من قرطبة سار
حتى انتهى إلى قرية يقال لها سمّونت من أعمال مدينة سالم، فجلس ليأكل وكان معه عبد
الرحمن بن محمد بن سليم - من ولد سعيد بن المنذر - فكره التمادي معه، فَسمَّه في
دجاجة فمات لوقته، فَقَبْرهُ هناك. ولما خلع أَعيدت خطبة يحيى بن علي الفاطمي، ثم
قطعت وأُعيدت الخطبة للدولة الأموية.
ولاية المعتمد على الله
هو أبو بكر هشام بن محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر، وهو أخو المرتضى،
بويع له في شهر ربيع الأول سنة ثماني عشرة وأربعمائة، وقيل في يوم الجمعة سلخ شهر ربيع
الآخر منها. وذلك أنه لما قُطِعت خطبة يحيى بن علي في سنة سبع عشرة وأربعمائةٍ
اجتمع رأي أهل قرطبة على ردِّ الأمر إلى بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبو الحزم
جهْور بن محمد بن جهور. فراسل أهل الثغور في ذلك فاتفقوا عليه بعد مدةٍ، فبايعوا لأبي
بكرٍ وهو بالثغر في حصن البونت عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم.
فبقي يتردّد في الثغور سنتين وعشرة أشهر - وقيل سبعة أشهر وثارت هناك فتنٌ كثيرةٌ
يطول شرحها، واضطرابٌ شديدٌ من الرؤساء بها، إلى أن اتفق رأيهم على أن يسير إلى
قرطبة الملكُ. فسار إليها، ودخلها في يوم من ثامن ذي الحجة سنة عشرين وأربعمائة. ولم
يُقم إلا يسيراً حتى قامت عليه فرقةٌ من الجند، فخلع!
قال بعض المؤرخين: كان سبب خلعه أنَّ وزيره ومدَّبر أمره أبا العاص الحكم بن سعيد
كان فاسدَ الطريقة، ولم يكن له سابقة رئاسة. فكرهه الناس فدسُّوا عليه في بعض الطرق

من قال نصيحة تقربه منه - وكان أطروشاً - فأصغى إليه ليقولها في أذنه، فجرَّه عن دابته
فقتل.
وخلع المعتمد، وخرج إلى الثغر لينتزعه من يد المنذر بن يحيى، فمات بِلارِدَةَ - وهي في
مملكة سليمان بن هود - في يوم الجمعة لأربع بقين من صفر سنة ثمانٍ وعشرين وأربعمائة.
قال: ووليَ قرطبة بعده قريب من ستَّةٍ، ثم دُعي للمؤيد هشام - وذكر أنه حيٌّ - في يوم
الخميس لليلتين خلتا من المحرم سنة سبعٍ وعشرين وأربعمائة إلى أن أُشيع موت هشامٍ
هذا. فتغلب على قرطبة أبو الحزم بن جهور - على ما سنورده - وانقطعت دعوة بني
أمية من سائر البلاد إلى هلم. وكانت مدة ملك بني أمية ببلاد الأندلس - من سنة ثمانٍ
وثلاثين ومائة وإلى هذا التاريخ - مائتي ستةٍ وتسعين، وعدة من ملكٍ منهم خمسة عشر
ملكاً وهم: عبد الرحمن بن معاوية الداخل، هشام بن عبد الرحمن، الحكم بن هشام
المرتضى، عبد الرحمن بن الحكم، محمد بن عبد الرحمن الأمين، المنذر بن محمد بن عبد
الرحمن، عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن، عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، الحكم
المستنصر بالله بن عبد الرحمن، هشام المؤيد بالله دفعتين، محمد بن هشام بن عبد الجبار
المهدي دفعتين، سليمان بن الحكم المستعين بالله دفعتين. ثم انقطعت دعوتهم بقيام العلويين
سبع سنين، وعادت بقرطبة بإمارة المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار، ثم
المستكفي بالله محمد بن عبد الرحمن بن عبد الله، ثم المعتمد على الله أبو بكر هشام بن
محمد بن عبد الملك بن عبد الرحمن الناصر بن محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد
الرحمن بن الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل بن معاوية بن هشام بن عبد الملك بن
مروان بن الحكم.
أخبار الأندلس
ومن ملكها بعد انقطاع الدعوة الأموية
قال: ولما انقطعت دعوة بني أمية بعد خلع هشام تغلَّب كلُّ رئيسٍ على بلدٍ، واستولى
عليها، ونحن نذكر ذلك على سبيل الاختصار. فأما قرطبة فاستولى عليها الوزير أبو الحزم

جهْور بن محمد بن جهور بن عبد الله بن محمد بن العمر بن يحيى بن عبد الغافر بن أبي
عبيدة. قال: وكان من وزراء الدولة العامرية قديم الرئاسة موصوفاً بالدهاء والعقل، لم يدخل
في شيء من الفِتن قبل ذلك. فلما خلا له الجوُّ وأمكنته الفرصة وثب عليها، فتولَّى الأمر
واستقلَّ به، ولم ينتقل عن رتبة الوزارة إلى الإمارة ظاهراً، بل دبَّر تدبيراً حسناً لم يُسبق
إليه. وجعل نفسه مُمسِكاً للوضع إلى أن يجيء مستحقٌّ يتفق عليه الناس فيسلمه إليه،
ورتَّب البوابين والحشم على أبواب تلك القصور - على ما كانت عليه أيام الدولة - ولم
يتحول عن داره إليها. وجعل ما يُرفَعُ من الأموال السلطانية بأيدي رجالٍ رتَّبهم لذلك وهو
المشرف عليهم، وصيّر أهل الأسواق جنداً وجعل أرزاقهم رؤوس أموالٍ تكون بأيديهم
يأخذون ربحها خاصةً ورؤوس الأموال باقية، يؤخذون ويراعون في الوقت بعد الوقت كيف
حِفظهم لها. وفرق السلاح عليهم وأمرهم أن يجعلوه في الدكاكين والبيوت، حتى إذا دهم
أمر ليلاً أو نهاراً كان سلاح كلِّ واحدٍ معه، وكان يشهد الجنائز ويعود المرضى.
وكانت قرطبة في أيامه حرماً يأمن فيه كلُّ خائف، ولم تزل أيامه على أحسن نظام وأكمل
اتِّساق إلى أن توفي في صفر سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، وتولى بعده ابنه محمد.
ولاية محمد بن جهور
ولي بعده أبيه فجرى على سُنَّتهِ في تدبير الأمور ورعاية قلوب الرعية إلى أن مات، وغلب
عليها الأمير المُلَقَّب بالمأمون صاحب طليطلة إلى أن مات، ثم استولى ابن عباد على
قرطبة على ما نذكره.
أخبار مدينة طليطلة
ومن ملكها بعد بني أمية وكيف كان استيلاء الفرنج عليها
أول من تغلَّب عليها بعد بني أمية مع بقائهم بقرطبة رجل يقال له ابن يعيش، وذلك أن
أهلها لما خلعوا طاعة بني أمية قدَّموه على أنفسهم وولَّوه أمرهم، فلم تطل مدته. وصارت
رئاسته إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن عامر بن مطرف بن ذي النون الهواري، فتغلب
على طليطلة. ولم تزل بيده إلى أن توفي في سنة خمسٍ وثلاثين وأربعمائة، فقام بعده ابنه.

ولاية المأمون
يحيى بن إسماعيل
وليَ طليطلة بعد أبيه، ولما وليَ أراد أن يستعين بالفرنج على ما حوله من المدائن والحصون
لينتزعها ممن هي بيده. فكتب إلى ملك من ملوك الفرنج - كان قريباً منه وبينهما مودةٌ
ومراسلةٌ - يقال له شنشكند وقال له " اخرج إليَّ في مائة من فرسانك وإنني في مكان كذا
لأجتمع بك في أمرٍ لك فيه راحة " فخرج إليه شنشكند في ستة آلاف فارس، وخرج ابن
ذي النون في مائتي فارس من عسكر طليطلة.
وكمّن الفرنجيُّ أصحابه خلف جبل بالقرب من الموضع وقال لهم: إذا رأيتمونا قد اجتمعنا
فاخرجوا إلينا بأجمكم! فلما فعلوا ذلك ورآهم المأمون سُقِط في يده، وحيل بينه وبين
عقله فقال له شنشكند: يا يحيى وحقِّ الإنجيل ما كنت أظنُّك إلا عاقلاً وإذا بك أحمق
خلق الله، خرجت إليَّ في هذا العدد القليل وسلَّمت إليَّ مُهجتك بغير عهدٍ كان بيني
وبينك قبل خروجك ولا دين يجمعنا وقد أمكنني الله منك، وحقِّ الإنجيل لا نجوت مني
حتى تعطيني الحصن الفلاني والحصن الفلاني - وسمَّى حصوناً من حصون المسلمين بين
طليطلة وبينه- وتجعل لي عليك مآلاً في كل سنة!.
فأجابه يحيى إلى ما طلب، وسلَّمَّ إليه الحصون، ورجع إلى طليطلة شر رجوع. وتواتر
الخِذلانُ عليه إلى أن مات في سنة ستين وأربعمائة، وصارت ولايته إلى ابنه القادر يحيى،
فدام بطليطلة إلى أن ملكها الفرنج.
قال: ولما ملك امتدت يده إلى أموال الرعية، واستعمل السفلة وأهل الثغور، ولم تزل
النصارى تطوى حصونه حصناً بعد حصن حتى استولوا على طليطلة في سنة ثمانٍ
وسبعين بعد أن حاصرها ألفونش سبع سنين وملكها، واتخذها دار ملكٍ، وغيَّر جامعها
كنيسة وردَّ المسلمين إلى مسجدٍ غيره وعوَّضهم مالاً وقال: هذه كنيسةٌ كانت لنا فردّها
الله علينا! وانتقل القادر بالله إلى بلنسية فقبله القاضي الأحنف بن حجاب.
أخبار دولة بني العباد
وابتداء أمرهم ومن ملك منهم إلى أن انقضت مُدُّتهم وانقرضت دولتهم

أول من قام منهم القاضي محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد بن عمرو بن عطاف بن
نعيم - ونعيم وابنه عطاف هما دخلا إلى الأندلس من المشرق - وهم من لخم من بني
المنذر بن المنذر، وفيهم يقول الشاعر:

من بني المنذر وهو انتسابٌ زاد في فخره بنو عبّاد
فيه لما تلد سواها المعالي والمعالي قليلة الأولاد

وكان محمد بن إسماعيل هذا قد تقدّم بإشبيلية إلى أن ولي القضاء، فأحسن السياسة مع
الرعية والملاطفة بهم؛ فرمقته العيون، ومالت إليه القلوب. فلما كان في سنة ثلاث عشرة
وأربعمائة ولي يحيى بن علي الفاطمي قرطبة، وكان من أمره وأمر عمِّه القاسم ما ذكرناه.
ثم إنَّ أهل قرطبة أخرجوا القاسم بن حمود فقصد مدينة إشبيلية ثم فارقها، وقصدها بعد
ذلك يحيى بن علي المعتلي ونزل بقرمونة لحصار مدينة إشبيلية وكانت الرئاسة بها بين ثلاثة
- كما ذكرنا ذلك - فاجتمع وجوده المدينة وفيهم حبيب ابن عامر القرشي ومحمد بن مرثم
الإهابي ومحمد الزبيدي وغيرهم. وأتوا إلى أبي القاسم محمد بن إسماعيل وقالوا: ما ترى
ما نحن فيه وما حلّ بنا من هذا الكافر وما أفسد من أموال الناس، فقم بنا نخرج إليه
ونملكك ونجعل الأمر لك وننتصر لهشام!
ففعل، وخرجوا لقتال يحيى بن علي المعتلي، فركب إليهم وهو سكران فقتل كما قدَّمنا.
وملك محمد بن إسماعيل إشبيلية، وقالوا له: نخرج إلى قرمونة من قبل أن يسبقك إليها
إسحاق بن عبد الله البرزالي! فهمَّ محمد بذلك فسبقه إسحاق وملكها، فكتب محمد إلى
يحيى بن ذي النون الهواري صاحب طليطلة يقول له: اخرج بعسكرك أو ابعث إليَّ
بعسكر مع قائدٍ من عندك حتى أخرج إسحاق بن عبد الله من قرمونة، وأنا أعينك على
أخذ قرطبة وأجعلها لك ملكاً!
فلما وصل كتابه إلى المأمون خرج إليه بنفسه في عسكرٍ كبير، فاجتمعا ونزلا على قرمونة،
وحاصراها وأخرجها عنها إسحاق. وأخذها محمد بن إسماعيل وأدخل ولده إليها،
وسارا إلى قرطبة وحاصراها.
فلما رأى أهلها ما حلَّ بهم كاتبوا محمد بن إسماعيل وقالوا أنت أولى من المأمون بالبلد

وأحبُّ إلينا منه! فاستوثق منهم ودخلها ليلاً ويحيى لا علم له بذلك. فلما أصبح وعلم
الحال رجع بعسكره إلى طليطلة وكتب إلى ابن عكاشة - وهو رجل شجاع كان بيده
بعض حصون الأندلس، يقطع حوله السبيل ويقتل التجار ويأخذ الأموال، وهو يظهر ليحيى
طاعةً مشوبةً بمعصية - فأمره أن يجمع أصحابه وعضَّده بعسكر كبير ووجههم إلى قرطبة،
فتوجهوا إليها وقد فارقها محمد بن إسماعيل إلى إشبيلية وترك ولده بها.
فدخلها ابن عكاشة ليلاً، ودخل القصر، وقتل كلَّ من وجد من الحرس، وذبح ولد محمد
بن إسماعيل بيده. فلما بلغ ذلك محمد جمع العساكر وخرج إلى قرطبة، فحصر ابن
عكاشة وضيق عليه، فخرج هارباً. واستوثق من الرعية وعاد إلى إشبيلية، فوصل إليها
يحيى بن ذي النون وتغلَّب عليها. فدسَّ عليه محمد بن إسماعيل طبيبه، فسمَّه، فمات!
فعندها خلص الأمر لمحمد بن إسماعيل، وذلك في سنة أربع وعشرين.. هكذا نقل عز
الدين عبد العزيز بن شداد بن تميم بن المعز بن باديس في كتابه المترجم بالجمع والبيان،
وذكر أيضاً في هذا الكتاب أنَّ يحيى توفي في سنة ستين وأربعمائة، وهذا فيه تنافٍ والله
تعالى أعلم.
أخبار خلف الحصري
المشبّه بالمؤيد هشام وقيام دعوته بمملكة محمد
ابن إسماعيل، وما قيل في ذلك
فأما قيام دعوته فإن محمد بن إسماعيل لما استولى على الأمر في سنة أربعٍ وعشرين
وأربعمائة وتعاظم أمره، حسده أمثاله وكثر الكلام فيه وقالوا" قتل يحيى بن علي الحسني
من أهل البيت وقتل يحيى بن ذي النون ظلما" واتَّسع القول فيه فبقي يفكر فيما يفعله.
فبينما هو كذلك إذ جاءه رجل من أهل قرطبة فقال له: إني رأيت - هشاماً في قلعة
رباح! فقال له محمد: انظر ما تقول! فقال! لأني والله رأيته وهو هشام بلا شك!
وكان عند محمد بن إسماعيل عبد من عبيد هشام يسمى تومرت، -وهو الذي كان يقوم
على رأس هشام - فقال له محمد: إذا رأيت مولاك تعرفه؟ فقال: نعم ولي فيه علامات

فأرسل محمد رجلين من الذين ذكروا أنهم رأوا هشاماً وقال: توجَّها إلى قلعة رباح وائتياني
بهشام! وأسرعا، فتوجَّها فوجداه في مسجد في قلعة رباح، فدخلا عليه وأعلماه أنهما
رسولا القاضي محمد بن إسماعيل إليه. فسار معهما إلى إشبيلية. فلما دخل على
القاضي قام إليه وسلم عليه وأنزله ووكل بخدمته تومرت مولاه. فلما رآه تومرت قبَّل يديه
ورجليه وقال للقاضي: هو والله مولاي هشام ابن الحكم.
فعند ذلك قام إليه القاضي محمد بن إسماعيل وقبَّل رأسه ويديه، وأمر بنيه فدخلوا عليه
وفعلوا كفعله، وسلَّموا عليه بالخلافة. وأخرجه محمد بن إسماعيل في يوم الجمعة إلى الجامع
بمدينة إشبيلية، ومشى هو وبنوه بين يديه رجّالةً حتى أتى المسجد، فخطب الناس وصلى
بهم الجمعة. وبايعه محمد بن إسماعيل وبنوه وجميع أهل البلد ورجع إلى موضعه، وتولّى
محمد بن إسماعيل الخدمة بين يديه وجرى في ذلك على طريقة ابن أبي عامر، غير أنه يخرج
إلى الجمعة والأعياد ويصلي طول مدته، ومحمد في رتبة الوزارة آمراً وناهياً عنه، واستقام
لمحمد أكثر مدن الأندلس، فهذا كان سبب قيام دعوته.
وأما ما نقل من أخباره فقد ذكرنا في أخبار بني أمية أن المستعين بالله سليمان بن الحكم
لما فتح قرطبة المرة الثانية في شوّال سنة ثلاث وأربعمائة أحضره ووبَّخه، وأن المؤيد فُقِد
لخمسٍ خلون من شوال. وذكرنا أيضاً أنَّ الناصر عليّ بن حمّود الفاطميّ لما ملك قرطبة
أحضر المستعين وسأله بحضرة الفقهاء والوزراء عن المؤيد هشام فقال "مات فألزمه أن يريه
قبره فأخرجه دفيناً لا أثر فيه فأمر الناصر بتكفينه ودفنه في الروضة".
وقيل بل هرب بنفسه إلى المشرق مستخفياً حتى وصل مكة - شرَّفها الله - وكان معه
كيسٌ فيه جوهر وياقوت ونفقة، فشعر به حرَّابة مكة، فأخذوه منه، فمال إلى جهةٍ من الحرم
وأقام يومين لم يُطعم طعاماً. فمضى إلى المروة فأتاه رجل فقال له تُحسن عمل الطين؟ قال:
نعم! فمضى به إلى تراب ليعجنه ووافقه على درهم وقرصة، فقال له: عجِّل القرصة فإني
جائع! فأتاه بها فأكلها، ثم عمد إلى التراب فكان مرةً يعجن ومرةً يجلس، فلما طال عليه

ذلك تركه ومضى هارباً على وجهه.
وخرج مع القافلة إلى الشام على أسوأ حالٍ، فوصل إلى بيت المقدس، فمشى في السوق
فرأى رجلاً يعمل الحصر الحلفاء فنظر إليه فقال له الحصري: كأنَّك تحسن هذه الصناعة!
قال: لا! قال: فتقيم عندي تناولني الحلفاء وأجعل لك أجرة على ذلك. قال: أفعل، فأقام
عنده يناوله ويعاونه على ما يأمره به من أمور صناعته، فتعلم هشام صناعة الحصر، فصار
يعلمها ويتقوّت منها. وأقام ببيت المقدس أعواماً كثيرةً لم يعلم به أحدٌ، ثم رجع إلى الأندلس
في سنة أربع وعشرين وأربعمائة.. هكذا روى جماعة من مشايخ الأندلس!
وقال الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم في كتابه المسمى " نقط
العروس في هذه الحكاية: أخلوقة لم يقع في الدهر مثلها، وإنما ظهر رجل يقال له خلف
الحصري بعد نيف وعشرين سنة من موت هشام بن الحكم المؤيد وادَّعى أنه هشام، وبويع
له على جميع منابر الأندلس في أوقات شتى، وسفك الدماء وتصادمت الجيوش في أمره.
وقال أبو محمد بن حزم: وفضيحة لم يقع في الدهر مثلها، أربعة رجال في مسافة ثلاثة أيام في
مثلها يُسمَّى كلُّ واحدٍ منهم يا أمير المؤمنين، ويخطب لهم في زمن واحد، أحدهم خلف
الحصريّ المذكور بإشبيلية على أنه هشام بن الحكم المؤيد، والثاني محمد بن القاسم بن
حمّود بالجزيرة الخضراء، والثالث محمد بن إدريس بن علي بن حمّود بمدينة مالقه، والرابع
إدريس بن يحيى بن علي بشنترين.
وأقام المدَّعى أنه هشام بن الحكم نيِّفاً وعشرين سنةً والقاضي محمد بن إسماعيل في رتبة
الوزير بين يديه، والأمر إليه. وقد استقام لمحمدٍ أكثر بلاد الأندلس، ودفع به كلام الحسّاد
وأهل العناد، إلى أن توفي هشام المذكور. فاستبد القاضي بالأمر بعده وملك أكثر مدن
الأندلس وحصونها. ولم ينتقل عن مدينة إشبيلية بل جعلها دار ملكه، واستقامت له
الأمور، وأطاعته المدن والثغور، واجتهد في جهاد الفرنج. وكان له في ذلك القدم المشهور،
ومات محمد في عشر الخمسين وأربعمائة، وولي بعده ابنه عبّاد.
ولاية عباد بن محمد

ولي بعد أبيه وتلقَّب المعتضد بالله، وكان فيه كرم وبأس. فطابت أيامه، وحسنت أفعاله،
واستقامت له الأحوال، ورُفعت له من بلاد الأندلس الأموال. قال: واتفق له واقعة غريبة في
سنة سبع وأربعين وأربعمائة، وهي أنه شرب ليلةً مع رجاله وندمائه فلما عملت فيه الخمر
صرفهم وخرج في الليل ومعه رجلٌ واحدٌ من عبيده. وسار نحو قرمونة وهي تبعد عن
مدينة إشبيلية ثمانية عشر ميلاً، وكان صاحب قرمونة إسحاق بن سليمان البرازلي وقد م
جرت بينه وبينه حروب. فسار عباد حتى أتى قرمونة، وكان إسحاق تلك الليلة في
جماعةٍ من أهل بيته يشربون، فدخل عليه بعض خُدَّامه فقال: إن صاحب الحرس ذكر أنَّ
المعتضد عبّاداً قائم على باب المدينة ليس معه إلا رجلٌ واحدٌ وهو يستأذن عليك!
فعجب القوم من ذلك غاية العجب، وخرج إسحاق ومن عنده إلى باب المدينة فسلّم على
عباد وأدخله إلى القصر، وأمر بتجديد الطعام والشراب. فلما شرع في الأكل تذكر ما فعل
فسقط في يده ولم يطق أن يسفه، وندم على ما صنع لما يعلم بينه وبين برزال من الحرب
وسفك الدماء، فأظهر التجلُّد والانشراح ثم قال لإسحاق: أريد أن أنام!
فرفعه على الفراش، فأراهم عبّاد أنه نائم، فقال بعض القوم لبعض: هذا كبشٌ سمينٌ حصل
لكم، والله لو أنفقتم عليه مُلك الأندلس ما قدرتم على حصوله في أيديكم، وهو شيطان
الأندلس وإذا قتل خلصت لكم البلاد!
فقام معاذ بن أبي قرَّة وكان من كبرائهم فقال: والله لا فعلنا هذا ولا رضينا به، رجلٌ
قصدنا ونزل بنا، ولو علم أنَّا نرضى فيه بقبيح لما أتانا مستأمنا إلينا، كيف تتحدث القبائل
عنَّا أننا قتلنا ضيفنا وخَفَرنا ذِمَّتنا، فعلى من يرضى هذا لعنة الله! وهو يسمع فنزل عن
السرير فقام القوم بأجمعهم فقبّلوا رأسه وجددوا السلام عليه فقال لحاجبه: أين نحن؟ قال:
في منزلك وبين أهلك وإخوانك! قال: إئتوني بدواة وقرطاس.
فأتوه بهما، فكتب أسماء القوم، وكتب لكلِّ واحدٍ بخلعةٍ ودنانير وأفراسٍ وعبيد وجوارٍ،
وأمر أن يرسل كلُّ واحدٍ منهم رسولاً ليقبض ذلك. ثم ركب وخرج القوم يشيِّعونه إلى قرب

إشبيلية، فصرفهم ودخل. وأرسلوا من قبض لهم ما كتب به، ثم أغفلهم ستَّة أشهر وكتب
إليهم يستدعيهم لوليمةٍ، فجاءه سبعون رجلاً منهم فأنزلهم عند رجاله، وأنزل معاذاً عنده.
وأمر بهم فأدخِلوا حماماً، وبنى عليهم بابه، فماتوا جميعاً، فعزَّ ذلك على معاذ بن أبي قرة
فقال له عبّاد: لا تُرع فإنهم قد حضرت آجالهم وقد أرادوا قتلى، ولولاك ما كنت ناجياً
منهم، وإنما جعل الله صيانة دمي بك، فإن أردت الرجوع إلى بلدك رددتك على أجمل
الوجوه وأحسنها وأسرِّها! فقال له معاذ: بأيِّ وجه أرجع أنا دونهم؟
فأمر له المعتضد بألف دينارة وعشرة أفراس وثلاثين جارية وعشرة أعبدٍ، وأنزله في قصرٍ
من أعظم قصوره، وأقطعه في كلِّ عام أثنى عشر ألف دينار، وكان ينفذ إليه في كل يوم
التُّحف والطرف. ولم يكن يحضر مجلسه أحدٌ قبله إلى أن مات عبّاد فأوصى ولده بمعاذ
وقال: يا بني احفظني فيه! فجرى فيه على عادة أبيه، ودام بإشبيلية حتى انقرضت دولة
بني عبّاد.
قال بعض أهل إشبيلية: رأيت معاذ بن أبي قرة يوم دخل يوسف بن تاشفين إشبيلية أوَّل
النهار وعليه ثوب ديباج مخرطم بالذهب وأمامه نحو ثلاثين عبداً، ورأيته آخر النهار عليه
مليسٌ مشتمل به فسبحان من لا يزول ملكه، نسأل الله تعالى أن لا يلبسنا ثوب نعمةٍ أنعمها
علينا بمنِّه وكرمه.
وفي أيام عبّاد توفي الإمام الحافظ أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم بن غالب بن
صالح بن سعدان بن سفيان بن يزيد الفارسي مولى يزيد بن أبي سفيان بن حرب بن أمية.
أصل آبائه من قرية مُنت ليسم من عمل الولبة من كور غرب الأندلس، وسكن هو وآباؤه
قرطبة ونالوا بها جاهاً عريضاً ومالاً وممدوداً. وولَّى ابن أبي عامر جدَّه سعيداً الوزارة،
وولى أبو محمدٍ هذا الوزارة في أيام المستظهر بالله عبد الرحمن بن هشام بن عبد الجبار
الأموي. وكان مولده يوم الأربعاء ساخ شهر رمضان سنة أربع وثمانين وثلاثمائة، ووفاته في
سلخ شعبان سنة سبع وخمسين وأربعمائة، وكانت مدة حياته اثنتين وسبعين سنة وأحد

عشر شهراً. وله كثير من المصنَّفات، ذكر أنه اجتمع مع الإمام أبي الوليد سليمان بن خلف
بن سعيد بن أيوب الباجي صاحب التواليف - وقيل بل الفقيه إبراهيم الخفاجي - فجرت
بينهما مناظرة، فلما انقضت قال الفقيه أبو الوليد: تعذرني فإن أكثر مطالعتي كانت على
سرج الحرَّاس! فقال له ابن حزم: وتعذرني أيضاً فإن أكثر مطالعتي كانت على منابر الذهب
والفضة!
وفي سنة ستين وأربعمائة توفي المعتضد بالله عبّاد بن محمد، وحكي أنه استحضر مغنياً
يغنيه ليجعل أوَّل ما يبدأ به فألاً فكان أول شعر قاله:
نطوي الليالي علماً أن ستطوينا فشعشعينا بماءٍ المزن واسقينا
فمات بعد خمسة أيام رحمه الله، ولما مات ولي بعده ابنه محمد. ولاية المعتمد
على الله محمد بن عباد
ابن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عبّاد، وكنيته أبو القاسم. ولي بعد وفاة أبيه في سنة
ستين وأربعمائة، وقيل في سنة إحدى وستين، وكان مولده بباجة سنة إحدى وثلاثين
وأربعمائة، فكان عمره حين ولي ثلاثين سنة. وكان فيه أدب وشعر وكرم وتواضع
وشجاعة، قال أبو بكر محمد بن عيسى المعروف بابن اللبانة كاتبه يصف الدولة العبادية
"كانت الدولة العبادية تشبه العباسية، بها وسعة ملك ووثاق عهد وانتظام عقد، وعدل أئمة
واعتدال أمة، كان أربابها يتنافسون في المكارم ويتغايرون على الشرف المتقادم.
من حلبة السَّبق لا برقٌ يخاطفها إلى مداها ولا ريحٌ يجاريها
تردُّهم نسبةٌ نحو السماء فهم من مائها، وعلاهم من دراريها
يشير إلى المنذر بن ماء السماء، ثم قال "جمعوا كرم الأخلاق إلى شرف الأعراق، وحملوا
حلى الآداب على الأحساب، وعضَّدوا البأس بالكرم وأيَّدوا بالسيف والقلم.
نفرٌ إلى ماءٍ السماء نماهم نسبٌ على أوج النجوم مخيَّم
بالبيض والبيضات والخلق اكتسوا فتوشَّحوا وتتوَّجوا وتعممَّوا
وكان بهذا البيت سرير الفلك الدائر وغريبه البحر الزاخر المعتمد على الله المؤيد بنصر الله
أبو القاسم محمد" وذكر نسبه، ثم قال: من بني المنذر وهو انتساب.. البيتين، وقد ذكرناهما

آنفاً، وقال تلوهما: وكذلك يطَّرد النَّسب إطراد الشآبيب، ويتَّسق اتساق الأنابيب، فهو كما
قيل:
شرفٌ يُنقَّلُ كابراً عن كابر   كالرُّمح أنبوبٌ على أنبوب
إلى مركز الدائرة من لخم وواسطة المنتخبين من يعرب
وقحطان! ثم ذكر مولده وولايته على
ما قدمنا وذكر خلعه في سنة أربع وثمانين على ما نذكره إن شاء الله.
وكان سبب خلعه وانقراض دولته أن الفرنج- لعنهم الله- استولوا على طليطلة وملكها
الأذفونش- وهو ألفنش- في سنة ثمانٍ وسبعن وأربعمائة على ما قدمناه. وكان المعتمد.
يؤدِّي إليه ضريبةً في كلِّ سنة، فلما سيّرها إليه بعد استيلائه على طليطلة لم يقبلها
وأعادها، وأرسل إليه يتوعده ويقول له: أنا آخذ مدينة قرطبة كما أخذت طليطلة إلا أن
ترفع يدك عن جميع الحصون وتسلِّمها إلينا ويكون لك السَّهل من البلاد!
وكان الرسول شلبيب اليهوديَّ ومعه خمسمائة فارس، وطلب منه اثني عشر ألف دينار،
فأمر المعتمد بإنزال الخيالة على أهل العسكر متفرقين وأمر كلَّ من عنده فارس منهم أن
يقتله. ولما جنَّ الليل أحضر اليهوديَّ وكشف رأسه، وأمر بضربه بالنعال المسمرة، حتى
خرجت عيناه من رأسه. وهرب من الخيالة ثلاثة، فوصلوا إلى الأذفوشن وأعلموه بقتل
أصحابه وكان متوجهاً إلى قرطبة يريد حصارها- فلما جاءه الخبر رجع إلى طليطلة
ليستعد ويهيِّئ آلات الحصار.
فلما سمع المعتمد برحيله إلى طليطلة سار هو إلى إشبيلية فبلغَّ مشايخ قرطبة ما جرى،
فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا: هذه مدائن الأندلس قد غلب عليها الفرنج ولم يبق منها إلا القليل،
وإن استمرّت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيةً كما كانت! ثم ساروا إلى القاضي عبد
الله بن محمد بن أدهم فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصّغار والذلة وإعطائهم
الجزية إلى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم، وابن عباد هو الذي حمل الفرنج على
المسلمين حتى جرى ما جرى وطلب منه ما طلب، وقد دبَّرنا رأياً نعرضه عليك! قال:

وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب أفريقية ونعلمهم أنهم إن وصلوا إلينا قاسمناهم في أموالنا
وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله تعالى! قال: أخاف أن يخرجوا الأندلس كما فعلوا
بأفريقية ويتركوا الفرنج ويبدأوا بكم والمرابطون أقرب إلينا وأصلح حالاً. قالوا: فكاتب
يوسف بن تاشفين ورغِّب إليه أن يدخل إلينا بنفسه أو يرسل إلينا قائداً من قوّاده. قال:
أمَّا الآن فقد أشرتم برأي فيه السّداد!
وقدم المعتمد إلى قرطبة في أثر ذلك، فدخل عليه القاضي وأعلمه بما دار بينه وبين أهل
قرطبة وما اتفقوا عليه، فقال المعتمد: نِعمَ ما أشاروا به وأنت رسولي إليه! فامتنع القاضي
واستعفاه وإنما أراد أن يقوِّى عزمه على إرساله فقال: لا أجد لها غيرك.
فسار القاضي، وصحبه أبو بكر بن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين، فوجداه بسبتة،
فأبلغاه الرسالة. وأعلماه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش،
وأنهم يستنصرون بالله ثم به؛ وأن المعتمد يستنجد عليه. فأمر يوسف في الحال بإدخال
العساكر إلى الجزيرة الخضراء، وأقام بسبتة وأنفذ إلى مراكش في طلب من بقي، ودخل في
آخر العساكر..هذا ما نقله أهل التاريخ، أن القاضي وابن القصيرة كانا رسولين إليه، وقيل
إن المعتمد بن عبّاد سار بنفسه بغير واسطةٍ وتلطَّف في الدخول عليه إلى أن انتهى إلى
آخر بواب فقال له: قل لأمير المسلمين إن ابن عبّاد بالباب! فلما أعلمه بذلك ارتاع وظن أنه
قدم بعساكره، وسأله عن حقيقة الحال فقال: هو ببابك وحده فأذن له، فدخل عليه، فأكرمه
ووعده النصر. وعاد ابن عباد ولحقه أمير المسلمين.

وقعة الزلاقة
وانهزام الفرنج لعنهم الله

قال: وجمع المعتمد العساكر وأقبل أمير المسلمين بعساكره، واجتمعوا كلهم بإشبيلية،
وخرج من أهل قرطبة - من المتطوعين - أربعة آلاف فارس وراجل. وجاء المسلمون من
بلاد الأندلس، من كل بلد وحصن. واتصلت الأخبار بالأذفونش، فخرج من طليطلة في
أربعين فارس غير من أنضاف إليها، وكتب إلى يوسف كتاباً كتبه عنه رجل من أدباء

المسلمين يغلظ فيه القول ويصف ما عنده من القوة والعُدد والعَدد، ووسّع وأطال وبالغ.
ووصل الكتاب إلى يوسف بن تاشفين فأمر الكاتب أبا بكر بن القصيرة أن يجاوبه. وكان
كاتباً مجيداً- فكتب وأطال وبالغ، فلما قرأه على يوسف استطاله وكتب على ظهر كتابه"
الذي يكون ستراه"
ولا كتب إلى المشرفيَّة والقنا ولا رسل إلا بالخميس العرمرم
وردّه إليه، فلما قرأ الجواب ارتاع وقال: هذا رجلٌ له عزم! قال: ولما استعد الأذفونش
للِّقاء رأى في منامه كأنه راكبٌ فيلاً وبين يديه طبل صغير ينقر فيه، فقصَّ ذلك على
القسيسين فلم يعرفوا تأويله، فاستحضر رجلاً مسلماً عالماً ديِّناً فاستعفاه من القول فأمَّنه
وعزم عليه، فقال: تأويل هذه الرؤيا في آيتين من كتاب الله عزَّ وجلّ! وقرأ سورة الفيل، وقوله
تعالى" فإذا نُقر في الناقور فذلك يومئذٍ يومٌ عسيرٌ على الكافرين غير يسيرٍ". وذلك يقتضي
هلاك الجيش الذي تجمعه.
فلما اجتمع الجيش وعبأه أعجبته كثرته، فاستحضر المُعبر وقال له: هذا الجيش الذي ترى
ألقى به محمداً صاحب كتابكم! فانصرف المُعبِّر عنه وقال: هذا الملك هالك لا محالة وكلُّ
من معه فإنه قد أعجب بجمعه.. وذكر قول النبي صلى الله عليه وسلم " ثلاث مهلكات"
الحديث...
قال: وسار المعتمد بن عبّاد وأمير المسلمين بالعساكر حتى أتوا موضعاً يقال له الزلاَّقة من
بلد بطليموس وأتى الأذفونش فنزل موضعاً بينه وبينهم- ثمانية عشر ميلاً، فقيل ليوسف بن
تاشفين إنَّ ابن عبّاد ربما لم يُنصح لا يبذل نفسه دونك، فأرسل تقول له" كن في المقدمة
ونكون نحن في أثرك". فتقدم ابن عباد.
وضرب الأذفونش خيامه في سفح جبل والمعتمد بن عبّاد في سفح جبل آخر بحيث
يتراءان، ونزل يوسف بن تاشفين في جبل من وراء الجبل الذي فيه المعتمد. وظنَّ الأذفونش
أن عسكر المسلمين ليس إلاَّ ذاك الذي يظهر له مع المعتمد والأذفونش في زهاء خمسين ألف
فارس، فما شكَّ أنه الغالب واستعمل الخدعة. وأرسل ابن عباد في ميقات اللقاء يوم

الخميس، وقال: نحن قد وصلنا على حال تعبٍ وأمامكم الجمعة وأمامنا الأحد فيكون
اللقاء يوم الاثنين بعد أهبةٍ! فاستقر الأمر بينهما على ذلك.
ثم ركب الأذفونش صبيحة الجمعة ليلاً، وصبَّح بجيشه جيش المعتمد، فوقع القتال بينهم،
فصبر المسلمون وقتل منهم خلقٌ كثيرٌ، وأشرفوا على الانهزام. وقد كان المعتمد أرسل إلى
ابن تاشفين فقال للأدلّة: احملوني إلى مضارب الأذفونش! فما شعر الفرنج إلا وقد نُهبت
خيامهم وخزائن الأذفونش وعُدده، والقتل يُعمل فيهم من وراء ظهورهم. فلم يتمالك الفرنج
أن انهزموا وأخذهم السيف من كلِّ مكان، فقتلوا عن آخرهم، فما سلم إلا آحاد! وهرب
الأذفونش في نفر يسير ودخل طليطلة في سبعة فوارس، ولم يرجع من الفرنج إلى بلادهم غير
ثلاثمائة نفرٍ أكثرهم رجّالة.
وكانت هذه الوقعة في يوم الجمعة في العشر الأول من شهر رمضان سنة تسع وسبعين
وأربعمائة، وأصاب المعتمد جراحاً في وجهه، ووصف في ذلك اليوم بالشجاعة. وغنم
المسلمون من أموال الفرنج وأسلحتهم مالا يُحصى كثرةً، وجعل المسلمون رؤوس القتلى كوماً
كبيراً وصعدوا عليه وأذَّنوا إلى أن جافت فأحرقوها!.
وعاد المعتمد إلى إشبيلية، ورجع أمير المسلمين إلى الجزيرة الخضراء وعدّى إلى سبته
وسار إلى مراكش. وعاد في السنة الثانية إلى جزيرة الأندلس وحاصر طليطلة هو وابن
عبّاد وصاحب غرناطة، فلم يتهيأ لهم فتحه، فرجع وأخذ غرناطة من صاحبها عبد الله
بن بلكمين، وهي أول ما ملكك من بلاد الأندلس على ما نذكره إن شاء الله تعالى.
انقراض الدولة العبادية
وشيء من أخبار المعتمد وشعره
في سنة أربع وثمانين وأربعمائة أتى يوسف بن تاشفين إلى سبتة ودخل العساكر إلى الأندلس
مع سيرين بن أبي بكر، فقصدوا مدينة إشبيلية، فحصروا المعتمد وضيقوا عليه. فقاتل
قتالاً شديداً، وظهر من شجاعته وشدَّة بأسه وحُسن دفاعه عن بلده ما لم يُشاهد من
غيره فسمع الفرنج بقصد عساكر المرابطين بلاد الأندلس، فخافوا أن يملكوها ثم يقصدوا

بلادهم، فجمعوا وأكثروا وساروا لمساعدة المعتمد وإغاثته على المرابطين. فلما سمع
بمسيرهم فارق إشبيلية وتوجّه إلى لقاء الفرنج، وقابلهم وهزمهم، ورجع إلى إشبيلية.
وداوم الحصار والقتال إلى العشرين من شهر رجب من السنة، فعظم الخطب واشتد الأمر
على أهل البلد. ودخله المرابطون من واديه ونهبوا الأموال، ولم يبقوا على شيء حتى
سلبوا الناس ثيابهم، وخرجوا من مساكنهم يسترون عوراتهم بأيديهم.
وأُسر المعتمد ومعه أولاده الذكور والإناث، بعد أن استأصلوا جميع أموالهم. وقيل إن
المعتمد سلّم البلد بأمان، وكتب نسخة الأمان والعهد، واستحلفهم على نفسه وأهله وماله
وعبيده وجميع ما يتعلق به. فلما سلَّم إليهم إشبيلية لم يفوا له، وسيِّر المعتمد إلى مدينة
أغمات، فحُبسوا بها، وفعل أمير المسلمين أفعالاً قبيحةً لم يفعلها أحد قبله. وذلك أنه
سجنهم ولم يُجر عليهم ما يقوم بهم، حتى كان بنات المعتمد يغزلن للناس بأجرة ينفقونها
على أنفسهم، فأبان أمير المسلمين في ذلك عن لؤم طباع وضيق نفس.
قال: وبقي المعتمد في حبسه بأغمات إلى سنة ثمانٍ وثمانين وأربعمائة، فتوفي فيها، وقبره
بأغمات. فكان من بني عبّاد ثلاثة؛ القاضي محمد بن إسماعيل، وابنه عباد، ومحمد بن
عبّاد هذا، ومدة مُلكهم ستون سنةً، وكان له من الأولاد الذكور والإناث.
وكان رحمه الله من محاسن الزمان كرماً وعلماً ورئاسةً وأخباره مشهورة وآثاره مدوَّنة.
وقد ذكره ابن خاقان في" قلائد العقيان"، وذكر شيئاً من نظمه ونثره. وكان شاعره أبا بكر
محمد بن عيسى الداني المعروف بابن اللبَّانة يأتيه في سجنه فيمدحه لإحسانه القديم إليه
وبرِّه الذي بقيت آثاره مع طول الزمن عليه، قال ابن اللبَّانة: فأمضيت عزيمتي بعد انقضاء
الدولة في زيارته، فوصلت إليه بأغمات، فقلت في ذلك أبياتاً عند دخولي عليه.

لم أقل في الثِّقاف كان نفاقاً   كنت قلباً له وكان شغافا
يمكث الزَّهر في الكمام ولكن   بعد مُكث الكمام يدنو قطافا
وإذا ما الهلال غاب بغيمٍ   لم يكن ذلك المغيب انكسافا
إنما أنت درّةٌ للمعالي   ركَّب الدَّهر فوقها أصدافا

حجب البيت منك شخصاً كريماً   مثل ما يحجب الدِّنان السلافا
أنت للفضل كعبةٌ ولو أنِّي   كنت أستطيع لالتزمت الطَّوافا
قال: وجرت بيني وبينه مخاطباتٌ ألذُّ من غفلات الرقيب، وأشهى من رشفات الحبيب، وأدلُّ على السماح، من فجرٍ على صياح-قال- فلما قاربت الصدر وأزمعت السفر، صرف حبله واستنفذ ما قبله، وبعث إليّ شرف الدولة ابنه- وكان من أحسن الناس سمتاً وأكثرهم صمتاً، تخجله اللفظة وتجرحه اللحظة، حريصاً على طلب الأدب مسارعاً في اقتناء الكتب، مثابراً على نسخ الدواوين ففتَّح من خطِّه فيها زهر البساتين- بعشرين مثقالاً مرابطية وثوبين غير مخيطين، وكتب مع ذلك أبياتاً منها:
إليك النَّزر من كفِّ الأسير   وإن تَقنع نكن عين الشَّكور
تَقبَّل ما ندوت به جباءً   وإن غدرته حالات الفقير
قال ابن اللبَّانة فأجبته:
حاش لله أن أُحيج كريماً   يتشكَّى فقراً وكم سدَّ فقرا
وكفاني كلامك الرطب نيلاً   كيف ألقى دُرَّاً وأطلب تِبرا
لم تمت إنما المكارم ماتت   لا سقى الله بعدك الأرض قطرا
مما قاله المعتمد من شعره في مدة أسره-فمن ذلك-قوله:
سلّت على يد الخُطوب سيوفها   فجررن من جسدي الخصيف الأمتنا
ضربت بها أيدي الضروب وإنما   ضربت رقاب الآمنين بها المنى
يا آملي العادات من نفحاتنا   كفُّوا فإن الدهر كفَّ أكُفَّنا
وقال في قصيدة يصف القيد في رجليه:
تعطّف من ساقي تعطّف أرقمٍ   يساورها عضًّا بأنياب ضيغم
وإنِّي من كان الرجال بسيبه   من سيفه في جنَّةٍ وجهنم
وقال في يوم عيد:
فيما مضى كنت بالأعياد مسروراً   فصرت كالعبد في أغمات مأسورا
قد كان دهرك إن يأمره ممتثلاً   فردَّك الدَّهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في مُلكٍ يُسرُّ به   فإنما بات بالأحلام مغرورا
وتعرَّض له أهل الكُدية وهو في الحبس فقال:
سألوا اليسير من الأسير وإنه   بسؤالهم لأحق منهم فاعجب
لولا الحياء وعزَّة لخميةٌ   طيُّ الحشا لحكاهم في المطلب
ورثا ولديه وقد ذُبحا بين يديه فقال:
يقولون صبراً..لا سبيل إلى الصَّبر   سأبكي وأبكي ما تطاول من عمري
أفتح..لقد فتَّحت لي باب رحمةٍ   كما بيزيد الله قد زاد في أجري

هوى بكما المقدار عنّي ولم أمت فأُدعى وفياً قد نكصت إلى الغدر
ولو عُدتما لاخترتما العود في الثَّرى إذا أنتما أبصرتماني في الأسر
أبا خالدٍ أورثتني البثَّ خالداً أبا النَّصر مُذ ودَّعت ودَّعني نصري

قال: وكان الشيخ عبد الجبار بن أبي بكر بن محمد بن حمديس توجه من المغرب إلى الأندلس في سنة إحدى وسبعين وأربعمائة، فقصد المعتمد، وأقام عنده إلى أن خلع، فكتب إليه المعتمد بعد أن عاد إلى المهدية:

غريبٌ بأقصى المغربين أسير يُبكِّى عليه منبرٌ وسرير
أذلَّ بني ماء السماء زمانهم وذلُّ بني ماء السماء كثير
فما ماؤها إلا بكاءٌ عليهم يفيض على الآفاق منه بحور

فأجابه محمد بن حمديس:

جرى لك جدٌّ بالكرام عثور وجار زمانٌ كنت منه تجير
لقد أصبحت بيض الظُّبا في غمودها إناثاً بترك الضَّرب وهي ذكور
ولما رحلتم بالنَّى في أكفِّكم وقُلقل رضوى منكم وثبير
رفعت لساني بالقيامة قد دنت ألا فانظروا كيف الجبال تسير؟

قال ولما توفي المعتمد وقف ابن اللبانة على قبره في يوم عيدٍ-والناس عند قبور أهاليهم- وأنشد بصوتٍ عال:

ملك الملوك أسامعٌ فأنادي أم قد عداك عن الجواب عواد
لما خلت منك القصور ولم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
قبَّلت في هذا الثرى لك خاضعاً واتخذت قبرك موضع الإنشاد

وأخذ في إتمام القصيدة، فاجتمع الناس كلّهم عليه يبكون لبكائه وإنشاده. وحكى بعض المعتنين بأخبارهم أن فخر الدولة ابن المعتمد على الله مرَّ يوماً في بعض شوارع مدينة إشبيلية، فطمحت عينه إلى روشنٍ فرأى وجهاً حسناً فتعلَّق قلبه به، ولم يمكنه الوصول، فخامره الهوى ومرض من ذلك. فاتصل خبره بأبيه، فسأل عن المرأة فقيل إنها ابنة رجلٍ خبازٍ، فأمر الوزير أن ينفذ إلى أبيها ويخطبها منه. فأرسل إليه الوزير فعلم ما يراد به، فامتنع من الوصول إليه وقال: هو أحقُّ بالوصول إليّ في هذه الحالة! فأعلم المقتدر بذلك فقال: تصل إليه وتخطبها. فلما وصل إليه وخطبها قال الخباز للوزير:

أله صنعةٌ؟ فقال الوزير: ابن المعتمد يطلب منه صنعة وهو سلطان الأندلس؟ فقال له: أمها
طالق إن زوجتها إلا من له صناعةٌ يستر حاله وحالها بها إن احتاج إليها.
فأعلم الوزير المعتمد فقال: هذا رجل عاقل! فأمر بإحضار الصاغة إلى القصر وعلَّم فخر
الدولة الصياغة وحذق فيها فلما جرى عليهم ما جرى دخل حوانيت الصاغة، وصاغ
بالأجرة فرآه ابن اللبّانة وهو ينفخ في بعض الحوانيت فقال:
أذكى القلوب أسىً، أبكى العيون دماً خطب وجودك فيه يشبه العدما
صرَّفت في آلة الصيّاغ أنملةً لم تدر إلا الندى والسيف والقلما
يا صائغاً كانت الدنيا تُصاغ له حلياً وكان عليه الحلى منتظما
النَّفخ في الصور هول ما حكاه سوى هولٌ رأيتك فيه تنفخ الفحما
قال: ولما انقرضت الدولة العبادية صار ملك بلاد المسلمين إلى أمير المسلمين يوسف بن
تاشفين صاحب مراكش والمغرب، وسنذكر ذلك إن شاء الله في أخباره.
ممالك الأندلس الأخرى
وأما سرقسطة والثغر الأعلى فكان ذلك بيد منذر بن يحيى إلى أن توفي وولي بعده ابنه
يحيى، ثم ولي بعده سليمان بن أحمد بن محمد بن هود الجذامي، وكان يُلقَّب بالمستعين،
وكان من قواد منذر على مدينة لاردة، وله وقعة مشهورة مع الفرنج في سنة أربع وثلاثين
وأربعمائة. ثم توفي وولي بعده ابنه أحمد المقتدر بالله، وولي بعده يوسف المؤتمن، ثم ولي
بعده أحمد المستعين على لقب جدِّه، ثم ولي ابنه عماد الدولة. ثم ابنه أحمد المستنصر
بالله، وعليه انقرضت دولتهم على رأس الخمسمائة، وصارت للملثمين.
وأما طرطوشة فوليها الفتى العامري.
وأما بلنسية فكان بها المنصور أبو الحسن عبد العزيز بن عبد الرحمن بن محمد بن
منصور بن أبي عامر، ثم انضاف إليه إلمرية، وما كان إليها. وبعده ابنه محمد، ودام فيها
إلى أن غدر به صهره المأمون بن إسماعيل بن ذي النون في ذي الحجة سنة سبع وخمسين
وأربعمائة.

وأما السَّهلة فملكها عبُّود بن رزين، وأصله بربري، ومولده بالأندلس. فلما هلك ولي بعده
ابنه عبد الملك، ثم ابنه عزُّ الدولة، ثم الملثمون.
وأما دانية والجزائر فكانتا بيد الموفق أبي الجيش مجاهد العامري، وسار إليه من قرطبة
الفقيه أبو محمد عبد الله المعيطي ومعه خلقٌ كثير. فأقامه مجاهدٌ شبه خليفةٍ يصدر عن
رأيه، وبايعه في جمادى الآخرة سنة خمسٍ وأربعمائة. وأقام المعيطي معه بدانية نحو ثلاثة
أشهر، ثم سار هو ومجاهد في البحر إلى الجزائر وهي ميورقة ومنورقة ويابسة. ثم بعث
المعيطي بعد ذلك مجاهداً إلى سردانية في مائة وعشرين فارساً ومعه ألف فرسٍ، ففتحها في
شهر ربيع الأول سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة وقتل بها خلقاً كثيراً من النصارى، وسبي.
فسار إليه الفرنج والروم في آخر السنة فأخرجوه منها، فرجع إلى الأندلس فوجد المعيطي قد
مات. وبقي مجاهد إلى أم مات، وولي بعده ابنه علي بن مجاهد ثم مات، فولي بعده ابنه أبو
عامر. ثم صارت دانية وسائر بلاده إلى المقتدر بالله أحمد بن سليمان بن هود، في شهر
رمضان سنة ثمانٍ وسبعين وأربعمائة.
وأما مرسية فوليها بنو طاهر، واستقامت رئاستها لأبي عبد الرحمن المدعو بالرئيس إلى أن
أخذها منه المعتمد بن عباد على يد وزيره أبي بكر بن عمّار الفهري، فلما ملكها عصي
على المعتمد فيها، فوجَّه إليه عسكراً مقدِّمهم أبو محمد عبد الرحمن بن رشيق العشيري
وملكها فعصى فيها على المعتمد بن عبّاد إلى أن دخل في طاعة الملثمين، وبقي بها إلى أن
مات في سنة سبعٍ وخمسمائة.
وأما إلمرية فملكها خيران العامريّ إلى أن توفي، وملكها زهير العامري واتسع ملكه إلى
شاطبة إلى ما يجاور عمل طليطلة. ودام إلى أن قتل وصارت مملكته إلى المنصور أبي
الحسن بن أبي عامر-صاحب بلنسية، فوليّ عليها محمداً ابنه، فأقام بها مدةً في حياة أبيه
وبعد وفاته إلى أن أخذها منه صهره ذو الوزارتين أبو الأحوص معن بن محمد بن صمادح
التجيبي. ودانت له لورقة وبيّاسه وجيّان وغيرها، إلى أن توفي في سنة ثلاث وأربعين

وأربعمائة، وولي بعده ابنه أبو يحيى محمد بن معن- وهو ابن أربع عشرة سنة- فكفَّله عمه
أبو عتبة بن محمد إلى أن توفي في سنة ستٍّ وأربعين وأربعمائة. فبقي أبو يحيى مستضألاً
لصغره، وأخذ ما بعد من بلاده عنه، ولم يبق له غير إلمرية وما جاورها. فلما كبر أخذ
نفسه بالاشتغال بالعلوم ومكارم الأخلاق، فامتد صيته واشتهر ذكره وعظم سلطانه والتحق
بأكابر الملوك. ودام بها إلى أن نازله جيش الملثمين فمرض في أثناء ذلك، وكان القتال تحت
قصره فسمع يوماً صياحاً وجلبه فقال: يغصّ علينا كلُّ شيءٍ حتى الموت! وتوفي في مرضه
ذلك لثمانٍ بقين من شهر ربيع الأول سنة أربع وثمانين وأربعمائة، وملك الملثمون إلمرية.
ودخل أولاده وأهله في البحر إلى بجاية، والتحقوا ببني حمّاد.
وأما مالقة فملكها بنو علي بن حمود، فلم تزل في مملكة العلويين يخطب لهم فيها بالخلافة إلى
أن أخذها منهم باديس بن حبّوس صاحب غرناطة.
وأما غرناطة فملكها حيوس بن ماكسني الصنهاجي، ثم مات في سنة تسع وعشرين
وأربعمائة وولي بعده ابنه باديس إلى أن توفي وولي بعده ابن أخيه عبد الله بن بُلكِّين. وبقي
إلى أن ملكها منه الملثمون في شهر رجب سنة أربع وثمانين وأربعمائة.
وانقرضت جميع هذه الدول، وصارت الأندلس جميعها للملثمين على ما نذكره إن شاء
الله- عزَّ وجل- في أخبارهم أيام أمير المسلمين. يوسف بن تاشفين. ولما كانت جزيرة
الأندلس بيد هؤلاء الملوك الذين ذكرناهم، كانوا يُسمَّون بملوك الطوائف وبسبب انفراد كلِّ
ملكٍ منهم بجهةٍ استولى الفرنج على طليطلة كما ذكرنا.

الباب السادس من القسم الخامس من الفن الخامس
أفريقية وبلاد المغرب
ومن وليها من العمال، ومَن استقل منهم بالمُلك
وسُميت أيامُهم بالدولة الفُلانية

قد ذكرنا فتوح إفريقية في خلافة عثمان بن عفان - رضي الله تعالى عنه - في ولاية عبد
الله بن سعد بن أبي سَرْح، في سنة ست وعشرين من الهجرة النبوية. وأوردنا ذلك هناك
على سبيل الاختصار والإجمال. ونحن الآن نذكره في هذا الباب مبيناً.

ولم نقدم ذكر أخبار المغرب وملوكه على أخبار ملوك المشرق، إلا أنا لما ذكرنا أخبار الدولة
الأموية بالأندلس ومن ملك الأَندلس بعد بني أمية، احتجنا إلى ذكر إفريقية وبلاد المغرب،
لتكون الأخبار يتلو بعضها بعضاً. ولم نقدم أيضاً ذكر الأندلس على إفريقية، مع كون إفريقية
فتحت قبل الأندلس إلا للضرورة التي دعت إلى ذكر أخبار الدولة الأموية بالأندلس تلو الدولة
العباسية. ولا ضرر في التقديم والتأخير، لأنا لم نجعل التاريخ على حكم مساق السنين بل
على الدول. وأول دولة قامت على الدولة العباسية الدولة الأموية بالأندلس. ولنذكر الآن
فتوح إفريقية، ومن وليها.

فتوح إفريقية

كان فتوحها في سنة سبع وعشرين، وذلك أن عثمان ابن عفان - رضي الله عنه - لما
ولي الخلافة عزل عمرو بن العاص عن مصر، واستعمل عليها عبد الله بن سعد بن أبي
سرح، وهو أخو عثمان لأمه. فكان عبد الله يبعث المسلمين في جرائد الخيل فيصيبون من
إفريقية. ويكتب بذلك إلى عثمان.
فلما أراد عثمان أن يغزي إفريقية استشار الصحابة، فكلَهم أشار عليه بإنفاذ الجيش إليها
إلا أبا الأعور سعيد بن أبي يزيد فإنه كره ذلك. فقال له عثمان: ما كرهت يا أبا الأعور من
بعثة الجيش؟ قال: سمعت عمر بن الخطاب - رضي الله عنه - يقول: لا أغزيها أحداً من
المسلمين ما حملت عيني الماء ولا أرى لك خلاف عمر وقام. ثم دعا عثمان زيد بن ثابت
ومحمد ابن مسلمة واستشارهما. فأشارا بإنفاذ الجيش.
فندب الناس إلى الغزو. فكان هذا الجيش يسمى جيش العبادلة. خرج فيه من بني
هاشم: عبد الله بن عباس وكان والياً على المسلمين وعبيد الله بن عباس؛ ومن بني تيم:
عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق، رضي الله عنهما، وعبد الرحمن بن صبيحة في عدّة من
قومه، ومن بني عدي: عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الرحمن بن زيد بن الخطاب
وعبيد الله بن عمر، وعاصم بن عمر في عدة منهم؛ ومن بني أسد ابن عبد العزى: عبد
الله بن الزّبير في عدة من قومه؛ ومن بني سهم: عبد الله بن عمرو بن العاص والمطّلب بن

السّائب بن أبي وداعة، في عدة منهم. وخرج في الجيش مروان بن الحكم، وأخوه الحارث،
وجماعة من بني أميّة، والمسور بن مخرمة ابن نوفل، وعبد الرحمن بن الأسود بن عبد يغوث،
وعدة من بني زهرة؛ ومن بني عامر بن لؤي بن غالب: السائب بن عامر ابن هشام، وبسر
بن أرطاة؛ وعدة من بني هذيل، منهم أبو ذؤيب خويلد بن خالد الهذلي - وتوفي بإفريقية
وواراه في قبره عبد الله بن الزبير - وعبد الله بن أنيس وأبو ذر الغفاري، والمقداد بن عمرو
البهراني، وبلال بن الحارث المزني، وعاصم، ومعاوية بن حديج، وفضالة بن عبيد، ورويفع
بن ثابت، وجرهد بن خويلد وأبو زمعة البلوى، والمسيب بن حزن، وجبلة بن عمرو
الساعدي، زياد بن الحارث الصّدائي، وسفيان بن وهب، وقيس بن يسار بن مسلمة وزهير
بن قيس، وعبد الرحمن بن صخر، وعمرو بن عوف وعقبة بن نافع الفهري. وخرج من
جهينة ستمائة رجل، ومن أسلم حمزة بن عمرو الأسلمي، وسلمة بن الأكوع في ثلاثمائة
رجل، ومن مزينة ثمانمائة رجل، ومن بني سليم أربعمائة رجل، ومن بني الدّيل وضمرة وغفار
خمسمائة رجل، ومن غطفان وأشجع وفزارة سبعمائة رجل، ومن كعب ابن عمرو أربعمائة
رجل، وكانوا آخر من قدم على عثمان، والناس معرّسون بالجرف، والجرف على ثلاثة
أميال من المدينة.
وأعان عثمان الجيش بألف بعير من ماله، فحمل عليها ضعفاء الناس، وحمل على خيل،
وفرق السلاح، وأمر للناس بأعطياتهم. وذلك في المحرم سنة سبع وعشرين.
وخطب عثمان الناس ورغّبهم في الجهاد. وقال لهم: قد استعملت عليكم الحارث بن
الحكم إلى أن تقدموا على عبد الله بن سعد، فيكون الأمر إليه. واستودعتكم الله.
وساروا حتى أتوا مصر.
فجمع عبد الله بن سعد جيشاً عرمرماً، وضمه إليه. فبلغ عسكر المسلمين عشرين ألفاً.
واستخلف على مصر عقبة بن نافع، وتوجّه.
وحكى الزّهري عن ربيعة بن عباد الدّيلي قال: لما وصلنا قدّم عبد الله الطّلائع والمقدمات

أمامه. وكنت أنا أكثر ما أكون في الطلائع فو الله إنا لبطرابلس قد أصبنا من بها من الروم
قد تحصنوا منا فحاصرناهم، ثم كره عبد الله أن يشتغل بذلك عما قصد إليه، فأمر الناس
بالرحيل. فنحن على ذلك إذا مراكب قد أرست إلى الساحل فشددنا عليها، فترامى من
بها إلى الماء. فأقاموا ساعة ثم أستأسروا فكتفناهم، وكانوا مائة. حتى لحق بنا عبد الله
فضرب أعناقهم، وأخذنا ما في السفن. فكانت هذه أول غنيمة أصبناها.
ومضى حتى نزل بمدينة قابس فحاصرناها. فأشار عليه، الصحابة أن لا يشتغل بها عن
إفريقية، فسار وبثّ السرايا في كل وجه. وكان يؤتى بالبقر والشاء والعلف. قال: وكان
ملكهم يدعى جرجير، وسلطانه من طرابلس إلى طنجة وولايته من قبل هرقل. فلما بلغه
الخبر بورود الجيوش الإسلامية، جمع وتأهب للّقاء، فبلغ عسكره عشرين ومائة ألف قال: ثم
ذهبنا قاصدين عسكره على تعبئة، فأقمنا أياماً تجري بيننا وبينهم الرسل: ندعوه إلى
الإسلام، وهو يستطيل ويتجبر وقال: لا أقبل هذا أبداً. فقلنا له فخراج تخرجه كل عام.
فقال: لو سألتموني درهماً واحداً لم أفعل. فتأهبنا للقتال بعد الإعذار منا. فعبأ عبد الله
بن سعد ميمنته وميسرته والقلب، وفعل الروم مثل ذلك. وتلاقى الجمعان في فحص متسع
يسمى بعقوبة، بينه وبين دار ملك الروم مسيرة يوم وليلة، وهي المدينة المسماة سبيطلة،
وكذلك مدينة قرطاجنّة، وهي مدينة عظيمة، شامخة البناء، أسوارها من الرخام الأبيض،
وفيها العمد والرخام الملون ما لا يحصى.
قال: ودامت الحرب بين الفريقين وطالت، وانقطع خبر المسلمين عن عثمان. فأنفذ عبد الله
بن الزبير وصحبته اثنا عشر فارساً من قومه. فسار يجد السير حتى قدم على المسلمين
فوصل ليلاً. فسروا به ووقع في العسكر ضجة، خافت الروم منها، وظنوا أنهم يحملون
عليهم، فباتوا بشر ليلة. وأرسل ملكهم جاسوساً يستعلم الخبر. فأعلمه أن نجدة وصلت
إلى المسلمين. وكان المسلمون يقاتلون الروم في كل يوم إلى الظهر، ثم ترجع كل طائفة إلى

معسكرها وتضع الحرب أوزارها. فلما أصبح عبد الله بن الزبير، صلى الصبح وزحف
مع المسلمين وقاتل. فلقي الروم في يومهم أشد نكال. ولم ير ابن الزبير عبد الله بن سعد في
الحرب فسأل عنه. فقالوا: هو في خبائه وله أيام ما خرج منه. ولم يكن ابن الزبير اجتمع به،
فمضى إليه، وسلم عليه، وبلغه وصية عثمان وسأله عن سبب تأخره. فقال: إن ملك
الروم أمر منادياً فنادى باللغة الرومية والعربية: معاشر الروم والمسلمين: من قتل عبد الله بن
سعد زوّجته ابنتي، ووهبت له مائة ألف دينار وكانت ابنته بارعة الجمال، تركب معه في
الحرب، وعليها أفخر ثياب، وتحمل على رأسها مظلة من ريش الطاووس وغير خاف عنك
من معي، وأكثرهم حديثوا عهد بالإسلام، ولا آمن أن يرغّبهم ما بذل لهم جرجير فيقتلوني،
فهذا سبب تأخري. فقال له ابن الزبير: أزل هذا من نفسك، وأمر من ينادي في عسكرك
ويسمع الروم: معاشر المسلمين والروم: من قتل الملك فله ابنته ومائة ألف دينار، وواحدة
بواحدة. ففعل ذلك. فلما سمع ملك الروم النداء، انتقل ما كان عبد الله يجده من الخوف
إليه. وبقي القتال على ما كان عليه.
فعنّ لعبد الله بن الزبير رأي. فأتى بعد الله بن سعد ليلاً وقال له: إني فكّرت فيما نحن
فيه فرأيت أمراً يطول والقوم في بلادهم والزيادة فيهم والنقصان فينا. وقد اتصل بي نفّذ إلى
جميع نواحيه بالحشد والجمع. وقد رأيت أصحابه إذا سمعوا الأذان أغمدوا سيوفهم
ورجعوا إلى مضاربهم، وكذلك المسلمون، جرياً على العادة. والرأي عندي أن تترك غدا
إن شاء الله أبطال المسلمين في خيامهم بخيلهم وعددهم، وتقاتل ببقايا الناس على العادة،
وتطوّل في القتال حتى تتعب القوم. فإذا انصرفوا ورجع كلّ إلى مضربه وأزال لأمه حربه،
يركب المسلمون ويحملون عليهم والقوم على غرة. فعسى الله سبحانه أن يظفرنا بهم
وينصرنا عليهم، وما النصر إلا من عند الله. فلما سمع عبد الله بن سعد ذلك، أحضر
عبد الله بن عباس وإخوته والصحابة ورؤوس القبائل، وعرض عليهم ما أشار به ابن الزبير

فاستصوبوا رأيه واستخاروا الله. وكتموا أمرهم وباتوا على تعبئة. ولجئوا إلى الله تعالى
وسمحوا بنفوسهم في إعزاز دين الله وإظهار كلمته.
وأصبح أبطال الإسلام في خيامهم، وخيولهم قائمة معهم في الخيام. وخرج لفيف الناس إلى
القتال، ومعهم عبد الله بن سعد وابن الزبير، فقاتلوا أشد قتال وكان يوماً حاراً فلقي
الفريقان فيه التعب العظيم. وركب ملك الروم ومعه الصليب، وكان متوجاً عندهم، عظيم
القدر فيهم. وحرض أصحابه على القتال. فاشتد الأمر في القتال حتى أذّن الظهر فهم الروم
بالانصراف جرياً على العادة. فداوم ابن الزبير القتال ساعة أخرى. فاشتد الحر وعظم
الخطب حتى لم يبق لأحد من الفريقين طاقة بحمل السلاح فضلاً عن القتال به. فعند ذلك
رجعوا إلى خيامهم، ووضعوا أسلحتهم، وسيّبوا خيولهم وألقوا أنفسهم على فرشهم.
فاستنهض عبد الله أبطال المسلمين. فلبسوا دروعهم وركبوا خيولهم في خيامهم. وتقدم
عبد الله بن الزبير في زي رسول، وقد لبس ثوباً فوق درعه. وقال: إذا رأيتموني قد قربت
من خيام الروم فاحملوا حملة رجل واحد. فلما قرب من الخيام كبر المسلمون وهلّلوا،
وحملوا فأعجلوا الروم عن لبس دروعهم أو ركوب خيولهم. فانهزمت الروم، وقتل ملكهم،
وقتل منهم ما الإسلام يحصى كثرة وهرب من سلم منهم إلى المدينة، وغنم المسلمون ما في
معسكرهم. وأسرت ابنة الملك وأتي بها إلى عبد الله بن سعد. فسألها عن أبيها.
قالت: قتل. قال: أتعرفين قاتله؟ قالت: نعم، إذا رأتيه عرفته. وكان كثير من المسلمين
ادعوا قتله. فعرض عليها من ادعى قتله. فقالت: ما من هؤلاء من قتله. فأحضر ابن
الزبير. فلما أقبل، قالت: هذا قاتل أبي. فقال له ابن سعد: ما منعك أن تعلمنا بذلك لنفي
لك بما شرطناه؟ فقال أصلحك الله! ما قتلته لما شرطت، والذي قتلته له يعلم ويجازى
عليه أفضل من جزائك، ولا حاجة لي في غير ذلك. فنفّله ابن سعد ابنة الملك، فيقال إن
ابن الزبير اتخذها أم ولد.
ثم نزل المسلمون على المدينة، وحاصروها حصاراً شديداً حتى فتحها الله عليهم.

فأصابوا فيها خلقاً كثيراً، وأكثر أموالهم الذهب والفضة. فجمع عبد الله بن سعد الغنائم
وقسمها بعد أن خمسها. فكان سهم الفارس ثلاثة آلاف دينار وسهم الراجل ألف دينار.
وبثّ السرايا والغارات من مدينة سبيلطة فبلغت خيوله إلى قصور قفصة. فسبوا
وغنموا. وجازوا إلى مرمجنة. فأذلت تلك الوقعة من بقي من الروم. وأصابهم رعب
شديد فلجئوا إلى الحصون والقلاع. واجتمع أكثرهم بفحص الأجم حول الحصن، وهو من
أعظم حصون إفريقية. وراسلوا عبد الله بن سعد أن يأخذ منهم ثلاثمائة قنطار ذهباً على
أن يكفّ عنهم ويخرج من بلادهم. فقبل ذلك منهم بعد امتناع. وقيل: إنه صالحهم على
ألفي ألف وخمسمائة ألف. وقبض المال. وكان في شرط صلحهم أن ما أصاب المسلمون
قبل الصلح فهو لهم، وما أصابوه بعد التّرداد ردوه عليهم.
ودعا عبد الله بن سعد عبد الله بن الزبير وقال: ما أحد أحقّ بالبشارة منك، فامض
وبشّر عثمان والمسلمين بما أفاء الله تعالى عليهم. فتوجه عبد الله يجدّ المسير. فبعض
الناس يقول: دخل المدينة من سبيطلة في عشرين ليلة، وبعضهم يقول: وافى المدينة يوم أربعة
وعشرين، ولا يستغرب ذلك من مثله. فلما وصل المدينة أمره عثمان أن يصعد المنبر فيعلم
الناس بما فتح الله عليهم. فبلغ الزبير. فجاء إلى المسجد ونال من عثمان بكلمات، وقال:
بلغ من عبد الله بن الزبير أن يرقى موضعاً كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يطأه
بقدمه! وددت والله أنيّ متّ قبل هذا! وقيل: إنّ عبد الله لم يرق المنبر، وإنما وقف بإزائه
وخطب، وعثمان على المنبر جالساً.
قال: وكان فعل عبد الله بن الزبير في القتال بإفريقية كفعل خالد ابن الوليد بالشام، وعمرو
بن العاص بمصر، رضي الله عنهم أجمعين.
قال: ثم انصرف عبد الله بن سعد إلى مصر إثر سفر ابن الزبير.
قال: وكان مقام الجيش بإفريقية خمسة عشر شهراً، ولم يفقد من المسلمين إلا ناس قلائل.
ثم كان بعد ذلك من مقتل عثمان وخلاف عليّ ومعاوية ما قدمنا ذكره، إلى أن استقر أمر
معاوية فاستعمل معاوية بن حديج.
ولاية معاوية بن حديج

الكندي وفتح إفريقية ثانياً
كانت ولايته في سنة خمس وأربعين من الهجرة. وسبب ذلك أن هرقل صاحب
القسطنطينية كان يؤدّي إليه من كل ملك من ملوك البر والبحر إتاوة معلومة في كل سنة.
فلما بلغه ما صالح عليه أهل إفريقية عبد الله بن سعد بن أبي سرح، بعث بطريقاً إلى
إفريقية يقال له أوليمة وأمره أن يأخذ من أهلها ثلاثمائة قنطار ذهباً كما أخذ منهم ابن أبي
سرح. فنزل البطريق قرطاجنّة وأخبرهم بأمر الملك. فأبوا عليه ونابذوه وقالوا: الذي كان
بأيدينا من الأموال فدينا به أنفسنا، والملك فهو سيدنا يأخذ منا كما كنا نعطيه في كل سنة.
وكان القائم بأمر إفريقية بعد جرجير رجل يقال له جناحة، فطرد أوليمة البطريق.
ثم اجتمع أهل إفريقية وولوا على أنفسهم رجلاً يقال له الأطريون وقيل فيه: الأطيلون.
فسار جناحة إلى الشام إلى معاوية بن أبي سفيان. فذكر له حال إفريقية وسأله أن يبعث
معه جيشاً من العرب. فوجه معه معاوية بن حديج في جيش كثيف. فلما انتهى إلى
الإسكندرية هلك جناحة.
ومضى ابن حديج حتى انتهى إلى إفريقية، وهي حرب، وقد صارت ناراً. وكان في
عسكره عبد الملك بن مروان، ويحيى بن الحكم، وكريب بن إبراهيم بن الصباح، وخالد
بن ثابت الفهمي. وقيل: كان معه عبد الله بن عمر بن الخطاب، وعبد الله ابن الزبير،
وأشراف من جند الشام ومصر. فقدم ولا يشك أهل إفريقية أن جناحة معه. فنزل معاوية
غربي قمونية في سفح جبل على عدة فراسخ منها. فأصابه فيه نوء شديد فقال: إن جبلنا
هذا للممطور فسمّى الجبل ممطوراً إلى اليوم. ثم قال: اذهبوا بنا إلى ذلك القرن فسمي أيضاً
القرن.
وبعث ملك الروم بطريقاً يقال له نجفور في ثلاثين ألف مقاتل. فنزل على ساحل البحر
بسنطبرية. فبعث ابن حديج إليه خيلاً. فقاتلوه فانهزم وأقلع في البحر.
وقاتل معاوية أهل جلّولاء على باب المدينة. فكان يقاتلهم صدر النهار، فإذا مال الفيء

انصرف إلى معسكره بالقرن. فقاتلهم ذات يوم. فلما انصرف نسي عبد الملك بن مروان
قوساً له معلقة بشجرة. فانصرف ليأخذها، وإذا جانب المدينة قد انهدم. فصاح في أثر
الناس فرجعوا. وكانت بينهم حرب شديدة وقتال عظيم حتى دخلوا المدينة عنوة،
واحتووا على جميع ما فيها، وقتلوا المقاتلة، وسبوا الذرية. وقيل: بل كان معاوية بن حديج
مقيماً بالقرن وبعث عبد الملك بن مروان إلى جلولاء، في ألف فارس. فحاصرها أياماً فلم
يظفر بها. وانصرف الناس منكسرين فلم يسر إلا يسيراً حتى رأى في ساقه الناس غباراً
كثيراً، فظنوا أن العدو قد اتبعهم. فرجعوا فإذا مدينة جلولاء قد وقع حائطها من جهة
واحدة. فانصرف المسلمون إليها فقتلوا من فيها وغنموا وسبوا. وانصرف عبد الملك إلى
معاوية وهو معسكر بالقرن ينتظره. فلما أتاه بالغنائم اختلفوا فيها. فقال عبد الملك: هي
لأصحابي خاصة. وقال ابن حديج: بل لجماعة المسلمين. وكتب إلى معاوية بن أبي
سفيان. فعاد جوابه: العسكر ردء السّرية، فأقسم بين الناس جميعهم فوقع سهم الفارس
ثلاثمائة دينار.
قال البلاذري. أول من غزا صقلية معاوية بن حديج، بعث إليها عبد الله بن قيس،
وسنذكر ذلك في أخبارها إن شاء الله تعالى.
قال: ثم انصرف معاوية بن حديج إلى مصر. فأقره معاوية بن أبي سفيان عليها، وعزله
عن إفريقية، وأفردها عن مصر، واستعمل عليها من قبله.
ولاية عقبة بن نافع
الفهري وفتح إفريقية الفتح الثالث وبناء القيروان
قال: ثم أرسل معاوية بن أبي سفيان عقبة بن نافع إلى إفريقية في سنة خمسين، وكان مقيماً
ببرقة وزويلة من أيام عمرو بن العاص فجمع من أسلم من البربر وضمه إلى الجيش الوارد
عليه. وكان جملة الجيش الوارد من معاوية عشرة آلاف فارس من المسلمين. فسار عقبة
إلى إفريقية فاتتحها، ووضع السيف حتى أفنى من بها من النصارى.
ثم قال: إن إفريقية إذا دخلها إمام تحرّموا بالإسلام، فإذا خرج منها رجع من كان أسلم

منهم وارتد إلى الكفر. وأرى لكم - يا معشر المسلمين - أن تتخذوا بها مدينة نجعل بها
عسكراً وتكون عزّ الإسلام إلى آخر الدهر. فأجابه الناس إلى ذلك.
بناء مدينة القيروان
قال المؤرخون: لما أرد عقبة بن نافع بناء مدينة القيروان وأجابه المسلمون إلى ذلك، أتى
بهم إلى موضعها، وهو إذ ذاك شعارى لا تسلك وقال: شأنكم. فقالوا له: إنك أمرتنا
بالبناء في شعارى وغياض لا تسلك ولا ترام، ونحن نخاف من السباع والحيات وغير ذلك
من خشاش الأرض. وكان عقبة مستجاب الدعوة، فدعا الله عز وجل. وجعل أصحابه
يؤمّنون على دعائه. وكان في عسكره ثمانية عشر رجلاً من أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم، فجمعهم ونادى: أيتها الحيات والسباع، نحن أصحاب رسول الله صلى الله
عليه وسلم، ارحلوا عنّا إنا نازلون. ومن وجدناه بعد ذلك قتلناه. فنظر الناس في ذلك
اليوم إلى السباع تحمل أشبالها، والذئاب تحمل أجراءها، والحيات تحمل أولادها. فأسلم
كثير من البربر. ونادى عقبة في الناس كفّوا عنهم حتى يرتحلوا عنا. فلما خرج ما فيها
من ذلك، جمع عقبة وجوه أصحابه ودار بهم حول المكان وأقبل يدعو الله ويقول: اللهم
املأها علماً وفقهاً، واعمرها بالمطيعين والعابدين، وامنعها من جبابرة الأرض. ثم نزل عقبة
الوادي. وأمر الناس أن يختطوا ويقلعوا الشجر. قال: فأقام أهل إفريقية بعد ذلك أربعين
سنة لا يرون بها حية ولا عقربا.
قال: واختط دار الإمار والمسجد الأعظم، ولم يحدث فيه بناء، وكان يصلي فيه وهو
كذلك. فاختلف الناس في القبلة وقالوا: إن أهل الغرب يضعون قبلتهم على قبلة هذا
المسجد، فاجهد نفسك في أمرها. فأقاموا مدة ينظرون إلى مطالع الشتاء والصيف من
النجوم ومشارق الشمس. فلما رأى عقبة الاختلاف اهتم لذلك وسأل الله تعالى، فأتاه آت
في منامه فقال له: يا وليّ رب العالمين، إذا أصبحت فخذ اللواء واجعله على عنقك، فإنك
تسمع بين يديك تكبيراً لا يسمعه غيرك. الموضع الذي ينقطع عنك التكبير فهو قبلتك

ومحرابه مسجدك. وقد رضي الله عز وجل أمر هذه المدينة وهذا المسجد. وسوف يعزّ
بها دينه ويذل بها من كفره إلى آخر الدهر. فاستيقظ من منامه وقد جزع جزعاً شديداً.
فتوضأ وأخذ في الصلاة في المسجد وهو لم يبن بعد، ومعه أشراف الناس. فلما طلع الفجر
وركع عقبة سمع التكبير بين يديه. فقال لمن حوله: ألا تسمعون؟ قالوا: لا نسمع شيئاً.
فقال: إن الأمر من عند الله عز وجل. وأخذ اللواء ووضعه على عاتقه. وأقبل يتتبع
التكبير بين يديه حتى انتهى إلى محراب المسجد. فانقطع التكبير فركز لواءه وقال: هذا
محرابكم. ثم أخذ الناس في بنيان الدور والمساكن والمساجد فعمرت. وكان دورها ثلاثة
آلاف باع وستمائة باع. فكملت في سنة خمس وخمسين. وسكنها الناس وعظم قدرها.
وكان في موضع القيروان حصن لطيف للروم يسمى قمونية.
قال: ودبر عقبة أمر إفريقية أحسن تدبير إلى أن عزل معاوية ابن أبي سفيان معاوية بن
حديج عن مصر وولي مسلمة بن مخلّد الأنصاري مصر وإفريقية.
ولاية مسلمة بن مخلد
قال: ولما وصل مسلمة إلى مصر، استعمل إلى إفريقية مولى له يقال له ديناراً ويكنى أبا
المهاجر، وذلك في سنة خمس وخمسين وعزل عقبة. فلما وصل كره أن ينزل بالموضع الذي
اختطه عقبة، فنزل عنه بمسافة ميلين. واختط مدينة وأراد أن يكون له ذكرها ويفسد ما
عمله عقبة. فسماها البربر تيكيروان. فأخذ في عمارتها. وأمر الناس أن يخربوا القيروان
ويعمروا مدينته.
وتوجه عقبة مغضبا إلى معاوية بن أبي سفيان. فقال له: إني فتحت البلاد، ودانت لي،
وبنيت المساجد، واتخذت المنازل، وأسكنت الناس. ثم أرسلت عبد الأنصار فأساء
عزلي فاعتذر إليه معاوية وقال: قد رددتك إلى عملك والياً. وتراخى الأمر حتى توفي
معاوية وولي يزيد ابنه. فلما علم حال عقبة غضب وقال: أدركها قبل أن تهلك وتفسد.
ورده والياً على إفريقية.
ولاية عقبة بن نافع ثانية
قال: وكانت ولايته في سنة اثنتين وستين، فسار من الشام. فلما مر على مصر، ركب إليه

مسلمة بن مخلد وسلم عليه، واعتذر من فعل أبي المهاجر، وأقسم بالله لقد خالفه فيما
صنع. فقبل عقبة عذره. ومضى مسرعاً حتى قدم إفريقية. فأوثق أبا المهاجر في الحديد،
وأمر بخراب مدينته، ورد الناس إلى القيروان.
ثم عزم على الغزو وترك بالقيروان جنداً وعليهم زهير بن قيس ودعا أولاده فقال لهم: إني
بعت نفسي من الله تعالى بيعاً مربحاً أن أجاهد من كفر حتى ألحق بالله. ولست أدري
أتروني بعدها أو أراكم، لأن أملي الموت في سبيل الله. ثم قال: عليكم سلام الله، اللهم
تقبل مني نفسي في رضاك.
ومضى في عسكر عظيم حتى أشرف على مدينة باغاية، وقاتل أهلها قتالاً شديداً، وأخذ
لهم خيلاً لم ير المسلمون في مغازيهم أصلب منها. ودخل الروم حصنهم.
فكره عقبة أن يقيم عليه. فمضى إلى لميش، وهي من أعظم مدن الروم. فلجأ إليها من
كان حولها منهم. وخرجوا إليه وقاتلوه قتالاً شديداً حتى ظن الناس أنه الفناء. فهزمهم
وتبعهم إلى باب حصنهم وأصاب غنائم كثيرة.
وكره المقام عليها فرحل إلى بلاد الزاب. فسأل عن أعظم مدائنهم قدراً فقالوا: مدينة يقال
لها أربة فيها الملك، وهي مجمع ملوك الزاب، وحولها ثلاثمائة قرية وستون قرية كلها عامرة.
فلما بلغهم أمره لجئوا إلى حصنهم، وهرب بعضهم إلى الجبال والوعر. فنزل عليها وقت
المساء. فلما أصبح أمر بالقتال فكانت بينهم حروب حتى يئس المسلمون من الحياة.
فأعطاه الله الظفر. فانهزم القوم وقتل أكثر فرسان الروم. وذهب عزهم من الزاب وذلوا آخر
الدهر.
ورحل حتى نزل تاهرت. فلما بلغ الروم خبره، استعانوا بالبربر فأجابوهم ونصروهم. فقام
عقبة وخطب الناس وحرضهم على القتال والتقوا واقتتلوا فلم يكن للروم والبربر طاقة
بقتالهم. فقتلهم قتلاً ذريعاً وفرق جموع الروم عن المدينة.
ثم رحل حتى نزل طنجة. فلقيه رجل من الروم يقال له إيليان وكان شريفاً في قومه.
فأهدى إليه هدية حسنة ولاطفه ونزل على حكمه. فسأله عن بحر الأندلس. فقال: إنه

محفوظ لا يرام. فقال: دلني على رجال البربر والروم. فقال: قد تركت الروم خلفك وليس
أمامك إلا البربر. وفرسانهم في عدد لا يعلمه إلا الله تعالى وهم أنجاد البربر وفرسانهم.
فقال عقبة: فأين موضعهم؟ قال: في السوس الأدنى، وهم قوم ليس لهم دين، يأكلون الميتة،
ويشربون الدم من أنعامهم. وهم أمثال البهائم، يكفرون بالله ولا يعرفونه. فقال عقبة
لأصحابه: ارحلوا على بركة الله. فرحل من طنجة إلى السّوس الأدنى. وهو في جنوب
مدينة طنجة التي تسمى تارودانت. فانتهى إلى أوائلهم فقتلهم قتلاً ذريعاً. وهرب من بقي
منهم، وتفرقت خيله في طلبهم.
ومضى حتى دخل السّوس الأقصى فاجتمع البربر في عدد كثير لا يحصيهم إلا الله تعالى.
فقاتلهم قتالاً لم يسمع بمثله. فقتل خلقاً كثيراً منهم. وأصاب نساء لم ير الناس مثلهن.
فقيل: إن الجارية كانت تساوي بالمشرق ألف مثقال وأكثر وأقل.
وسار حتى بلغ البحر المحيط لا يدافعه أحد ولا يقوم له. فدخل فيه حتى بلغ الماء لبان
فرسه. ورفع يده إلى السماء وقال: يا رب، لولا هذا البحر لمضيت في البلاد إلى ملك ذي
القرنين مدافعاً عن دينك، ومقاتلاً من كفر بك وعبد غيرك.
ثم قال لأصحابه: انصرفوا على بركة الله وعونه. فخلا الناس عن طريق عساكره هاربين.
وخاف المشركون منه أشد مخافة. وانصرف إلى إفريقية. فلما انتهى إلى ماء اسمه اليوم
ماء فرس ولم يكن به ماء، فأصابهم عطش أشفى منه عقبة ومن معه على الموت. فصلى
ركعتين ودعا الله عز وجل. فجعل فرسه يبحث الأرض بيديه حتى كشف عن صفاة.
فانفرج منها الماء. وجعل الفرس يمص ذلك الماء فنادى عقبة في الناس أن احتفروا فحفروا
سبعين حساً فشربوا وأسقوا. فسمى ماء فرس.
وسار حتى انتهى إلى مدينة طبنة، وبينها وبين القيروان ثمانية أيام. فأمر أصحابه أن
يتقدموا فوجاً بعد فوج إلى إفريقية ثقة منه بما دوخ من البلاد، وأنه لم يبق أحد يخشاه.
وسار يريد تهوذة لينظر إليها وإلى بادس، ويعرف ما يسدهما من الفرسان، فيترك فيهما

بقدر الحاجة. فلما نظر الروم إلى قلة ما معه، طمعوا فيه وأغلقوا أبواب حصونهم دونه،
وشتموه، ورموه بالنبل والحجارة، وهو يدعوهم إلى الله عز وجل. فلما توسط البلاد بعث
الروم إلى كسيلة ابن بهرم الأوربي وكان في عسكر عقبة.
خروج كسيلة
وقتل عقبة بن نافع واستيلائه
على القيروان
كان كسيلة هذا من أكابر البربر. وكان قد أسلم في ولاية أبي المهاجر وحسن إسلامه.
وقدم عقبة فعرّفه أبو المهاجر بحال كسيلة وعظمه في البربر وانقيادهم إليه. فلم يعبأ به
عقبة واستخف به وأهانه. فكان من إهانته له أنه أتي بغنم فأمر بذبحها، وأمر كسيلة أن
يسلخ منها شاة. فقال: أصلح الله الأمير! هؤلاء فتياني وغلماني يكفونني المؤونة. فسبه
عقبة وأمره بالقيام. فقام مغضباً وذبح الشاة. وجعل يمسح لحيته بما على يديه من دمها.
فجعلت العرب يمرون به ويقولون له: يا بربري، ما هذا الذي تصنع؟. فيقول: هذا جيد
للشعر. حتى مر به شيخ من العرب فقال: كلا، إن البربري يتواعدكم. فقال أبو المهاجر
لعقبة: ما صنعت؟ أتيت إلى رجل جبار في قومه وبدار عزه، وهو قريب عهد بالشّرك،
فأفسدت قلبه. أرى أن توثقه كتافاً، فإني أخاف عليك من فتكه. فتهاون به عقبة.
فلما رأى كسيلة الروم قد راسلوه ورأى فرصة، وثب وقام في بني عمه وأهله ومن اجتمع
إليه من الروم. فقال أبو المهاجر لعقبة: عاجله قبل أن يجتمع أمره. وأبو المهاجر مع ذلك كله
صحبة عقبة وهو في الحديد. فزحف عقبة إلى كسيلة فتنحى عنه. فقال البربر له: لم
تنحيت من بين يديه ونحن في خمسة آلاف؟ فقال: إنكم كل يوم في زيادة وهو في نقصان،
ومدد الرجل قد افترق عنه. فإذا طلب إفريقية زحفت إليه. وأما أبو المهاجر فإنه تمثل
بقول أبي محجن الثقفي:

كفى حزناً أن تمزع الخيل بالقنا وأترك مشدوداً عليّ وثاقيا
إذا قمتُ غنائي الحديد وأغلقت مصارع من دوني تصم المناديا

فبلغ ذلك عقبة بن نافع. فأطلقه وقال له: الحق بالمسلمين فقم بأمرهم وأنا أغتنم الشهادة.

فقال أبو المهاجر: وأنا أغتنم ما اغتنمت. فصلى عقبة ركعتين وكسر جفن سيفه. وفعل
أبو المهاجر كفعله. وكسر المسلمون أغماد سيوفهم. وأمر عقبة أن ينزلوا عن خيلهم،
ففعلوا وقاتلوا قتالاً شديداً. وكثر عليهم العدو فقتلوا عن آخرهم ولم يفلت منهم أحد.
فعزم زهير بن قيس على قتال البربر فخالفه بعض أصحابه ففارق القيروان، وسار إلى برقة
وأقام بها. وتبعه أكثر الناس. وأما كسيلة فاجتمع إليه جمع كبير فقصد القيروان وبها
أصحاب الأثقال والذراري من المسلمين. فطلبوا الأمان من كسيلة فأمنّهم. ودخل القيروان
واستولى على إفريقية. وأقام بها إلى أن قوي أمر عبد الملك بن مروان. فذكر عنده أمر
القيروان ومن بها من المسلمين. فأشار عليه أصحابه بإنفاذ الجيوش إليها. ليستنقذها من
يد كسيلة. فاستعمل عليها زهير بن قيس.
ولاية زهير البلوى
وقتل كسيلة البربري
قال: ولما أشير على عبد الملك بن مروان بإرسال الجيش إلى إفريقية، قال: لا يصلح للطلب
بثأر عقبة بن نافع من المشركين إلا من هو مثله في دين الله عز وجل. فاتفق رأيهم على
زهير بن قيس، وقالوا: هو صاحب عقبة وأعرف الناس بسيرته وأولادهم بطلب ثأره.
وكان زهير ببرقة مرابطاً منذ قفل من إفريقية. فكتب إليه عبد الملك بالخروج على أعنّة
الخيل إلى إفريقية. فكتب إليه زهير يستمده بالرجال والأموال. فوجه إليه بالأموال
ووجوه أهل الشام.
فلما وصل ذلك إليه أقبل إلى إفريقية في عسكر عظيم، وذلك في سنة تسع وستين. فبلغ
خبره كسيلة فجمع البربر وتحول عن القيروان إلى ممش. وجاء زهير فأقام بظاهر القيروان
ثلاثة أيام حتى استراح وأراح. ثم رحل إلى كسيلة. والتقيا واشتد القتال وكثر القتل في
الفريقين. فأجلت الحرب عن قتل كسيلة وجماعة من أصحابه. وانهزم من بقي منهم.
فتبعهم الجيش فقتلوا من أدركوه.
وعاذ زهير إلى القيروان. فرأى ملك إفريقية ملكاً عظيماً، فقال: إنما أحببت الجهاد،

وأخاف أن أميل إلى الدنيا فأهلك. وكان عابداً زاهداً. فترك بالقيروان عسكراً ورحل
في جمع كبير يريد المشرق. وكان قد بلغ الروم بالقسطنطينية مسيره من برقة إلى إفريقية
وخلوها، فخرجوا إليها في مراكب كثيرة من جزيرة صقلية.
فأغاروا على برقة وقتلوا ونهبوا. ووافق ذلك قدوم زهير من إفريقية فقاتلهم بمن معه أشدّ
قتال. وترجل هو ومن معه وقاتلوا فعظم الخطب. وتكاثر الروم عليهم فقتل زهير
وأصحابه، ولم ينج منهم أحد. وعاد الروم بما غنموه إلى القسطنطينية.
ولما بلغ عبد الملك قتل زهير عظم ذلك عليه، وكانت المصيبة به كالمصيبة بعقبة. وشغل
عبد الملك عن القيروان ما كان بينه وبين عبد الله بن الزبير، فلما قتل ابن الزبير جهز عبد
الملك حسان ابن النعمان إليها.
ولاية حسان بن النعمان الغساني إفريقية
قال: كان عبد الملك قد أمر حسان بن النعمان بالمقام بمصر في عسكر عدته أربعون ألفاً.
وتكره بها عدة لما يحدث. فكتب إليه بالنهوض إلى إفريقية ويقول: إني قد أطلقت يدك في
أموال مصر، فاعط من معك ومن ورد عليك من الناس، واخرج إلى جهاد إفريقية على
بركة الله. قال ابن الأثير في تاريخه الكامل: إنه استعمله في سنة أربع وسبعين بعد مقتل
عبد الله بن الزبير. وقال ابن الرّقيق إنه ندبه إلى إفريقية في سنة تسع وستين. قال: فدخل
إفريقية بجيش عظيم ما دخلها مثله قط. فدخل القيروان وتجهز منها إلى قرطاجنّة.
فتح قرطاجنة وتخريبها
قال: ولما دخل حسان إلى القيروان سأل عن أعظم ملك بقي بإفريقية. فقيل له: صاحب
قرطاجنة، وهي بلدة عظيمة، ولم تفتح بعد، ولا قدر عليها عقبة. فسار إليها. وقاتل من
بها من الروم والبربر أشد قتال. فانهزموا وركبوا في البحر. وسار بعضهم إلى صقلية
وبعضهم إلى الأندلس. ودخل حسان قرطاجنة بالسيف فقتل وسبي ونهب. وأرسل
الجيوش إلى ما حولها. ثم أمر بهدمها فهدم المسلمون منها ما أمكنهم. ثم بلغه أن الروم
والبربر قد اجتمعوا في صطفورة وبنزرت. فسار إليهم وقاتلهم، فهزمهم وأكثر القتل فيهم.

واستولى المسلمون على بلادهم. ولم يترك موضعاً منها حتى وطئه. فخافه أهل إفريقية
خوفاً شديداً. ولجأ المهزمون من الروم إلى مدينة باجة فتحصنوا بها. وتحصن البربر بمدينة
بونة. وعاد حسان إلى القيروان فأقام بها حتى أراح واستراح.
حروب حسان والكاهنة
وتخريب إفريقية وقتل الكاهنة
قال: ثم قال حسّان للناس: دلوني على أعظم من بقي من ملوك إفريقية. فدلوه على امرأة
تملك البربر تعرف بالكاهنة، وقالوا: إنها بجبل أوراس، وهي بربرية اجتمع البربر عليها بعد
قتل كسيلة. وكانت تخبر بأشياء فتقع كما أخبرت عنها. وعظّموا محلّها عند حسان
وقالوا: إن قتلتها لم تختلف البربر بعدها عليك. فسار إليها. فلما قاربها هدمت حصن
باغاية، ظنّا منها أنه يريد الحصون. فلم يعرج حسان على ذلك وسار إليها. فالتقوا على
نهر نيني واقتتلوا أشد قتال. فانهزم المسلمون وقتل منهم خلق كثير وأسرت جماعة من
أصحابه. فأكرمتهم الكاهنة وأطلقتهم إلا خالد بن يزيد القيسي، وكان شريفاً شجاعاً
فاتخذته ولداً.
وسار حسان منهزماً وفارق إفريقية. وكتب إلى عبد الملك بما كان من أمره. فأمره بالمقام
إلى أن يأتيه أمره. فأقام بعمل برقة خمس سنين فسمّي ذلك المكان قصور حسان. وملكت
الكاهنة إفريقية كلها وأساءت السيرة في أهلها.
ثم بعث عبد الملك إلى حسان بالأموال والجيوش. وأمره بالمسير إلى إفريقية وقتال
الكاهنة. فسار إليها. فقالت الكاهنة لقومها: إن العرب يريدون البلاد والذهب والفضة،
ونحن إنما نريد المزارع والمراعي، ولا أرى إلا خراب إفريقية حتى ييأسوا منها. وفرقت
أصحابها ليخربوا البلاد فخربوها، وهدموا الحصون، وقطعوا الأشجار ونهبوا الأموال.
قال عبد الرحمن بن زياد بن أنعم: وكانت إفريقية من طرابلس إلى طنجة ظلاً واحداً وقرى
متصلة، فأخربت ذلك. فلما قرب حسان من البلاد، لقيه جمع من أهلها من الروم
يستغيثون به من الكاهنة. فسره ذلك. وسار إلى قابس. فلقيه أهلها بالأموال والطاعة،

وكانوا قبل ذلك يتحصنون من الأمراء. فجعل فيها غلاماً. وسار على قفصة. فأطاعه من
بها. واستولى عليها وعلى قسطيلية ونفزاوة.
وبلغ مقدمه الكاهنة، فأحضرت ولدين لها وخالد بن يزيد وقالت لهم: إنني مقتولة، فامضوا
إلى حسان وخذوا لأنفسكم منه أماناً. فساروا إليه. فوكل بولديها من يحفظهما. وقدم
خالد بن يزيد على أعنة الخيل.
وسار حسان نحو الكاهنة فالتقوا واقتتلوا، واشتد القتال وكثر القتل حتى ظن الناس أنه
الفناء. ثم نصر الله المسلمين. وانهزم البربر وقتلوا قتلاً ذريعاً. وانهزمت الكاهنة ثم
أدركت فقتلت. ثم استأمن البربر إلى حسان فأمنهم. وقرر عليهم أن يكون منهم عسكر
مع المسلمين عدتهم اثنا عشر ألفاً يجاهدون العدو. وقدم عليهم ابني الكاهنة ثم فشا
الإسلام في البربر.
وعاد حسان إلى القيروان وبطل النزاع واستقامت إفريقية له، فلما مات عبد الملك وولي
الوليد - وكان على مصر وإفريقية عبد العزيز بن مروان - فعزل حسان واستقدمه. وبعث
إليه بأربعين رجلاً من أشراف أصحابه، وأمرهم أن يحتفظوا بجميع ما معه. فعلم حسان
ما يراد منه، فعمد إلى الجوهر واللؤلؤ والذهب. فجعله في قرب الماء وطرحها في المعسكر،
وأظهر ما وراء ذلك. فلما قدم على عبد العزيز بن مروان بمصر أهدي إليه مائتي جارية
ووصيف من خيار ما كان معه ويقال: إن حسان كان معه من السبي خمسة وثلاثون ألف
رأس. فانتخب منها عبد العزيز ما أراد وأخذ منه خيلاً كثيرة. ورحل حسان بما بقي
معه حتى قدم على الوليد بن عبد الملك فشكا إليه ما صنع به عبد العزيز. فغضب الوليد
وأنكره. فقال حسان لمن معه: ائتوني بالقرب. فأتي بها فأفرغها بين يدي الوليد. فرأى ما
أذهله من أصناف الجوهر واللؤلؤ والذهب. فقال حسان: يا أمير المؤمنين إنما خرجت
مجاهداً في سبيل الله، ولم أخن الله تعالى ولا الخليفة. فقال له الوليد: أردك إلى عملك
وأحسن إليك. فحلف حسان أنه لا ولي لبني أمية ولاية أبداً. فغضب الوليد على عمه

عبد العزيز لما عامل به حساناً. وكان حسان يسمى الشيخ الأمين لثقته وأمانته ثم ولي بعده
موسى بن نصير.
ولاية موسى بن نصير إفريقية
وما كان من حروبه وآثاره
كانت ولايته في سنة تسع وثمانين، وذلك أن حسان بن النعمان لما امتنع من إجابة الوليد
إلى رجوعه إليها، كتب الوليد إلى عمه عبد العزيز أن يوجه موسى بن نصير إلى إفريقية وأن
تكون ولايته من قبل الوليد. وأفرد إفريقية عن مصر. فسار موسى حتى قدم إفريقية وعزل
عنها صالحاً خليفة حسان بها.
فبلغه أن بأطراف إفريقية قوماً خارجين عن الطاعة. فوجه إليهم ابنه عبد الله فقاتلهم
وظفر بهم. وأتاه بمائة ألف رأس من سبيهم. ثم وجه ولده مروان إلى جهة أخرى، فأتاه
بمائة ألف رأس. ثم توجه هو بنفسه إلى جهة أخرى فأتي بمائة ألف رأس. قال الليث بن
سعد: فبلغ الخمس يومئذ ستين ألف رأس ولم يسمع بمثل هذا في الإسلام.
ثم خرج غازياً إلى طنجة يريد من بقي من البربر. فهربوا منه فاتبعهم يقتل فيهم حتى بلغ
السوس الأدنى لا يدافعه أحد. فاستأمن البربر إليه وأطاعوه. فقبل طاعتهم وولي عليهم
والياً. ثم استعمل على طنجة وبلادها مولاه طارق بن زياد. وتركه بها في تسعة عشر
ألف فارس من البربر وطائفة يسيرة من العرب لتعلّم البربر القرآن وفرائض الإسلام.
ورجع إلى إفريقية فمر بقلعة مجّانة. فتحصن أهله منه فترك عليها من يحاصرها مع بسر
بن فلان ففتحها، فسميّت قلعة بسر. ولم يبق بإفريقية من ينازعه من البربر ولا من الروم.
فتح جزيرة الأندلس وشيء من أخبارها
كان فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين على يد طارق ابن زياد مولى بن نصير. وقد ذكر
ابن الأثير في تاريخه الكامل أخبار الأندلس وابتداء أمرها. فاخترنا إيراد ذلك لأنها من
أعظم الفتوحات الإسلامية.
قال ابن الأثير: قالوا: أول من سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالاندلس - بشين معجمة -
ثم عرّب بعد ذلك بسين مهملة، والنصارى تسميها إشبانية باسم رجل صلب فيها يقال له

إشبانش، وقيل: باسم ملك كان لها في الزمان الأول اسمه إشبان بن طيطش. وهذا هو
اسمها عند بطليموس. وقيل: سميت بأندلس بن يافث بن نوح، وهو أول من عمرها.
وقيل: أول من سكنها بعد الطوفان قوم يعرفون بالأندلس فعمروها وتداولوا ملكها دهراً
طويلاً، وكانوا مجوساً. ثم حبس الله عنهم المطر وتوالى عليهم القحط. فهلك أكثرهم، وفر
منها من أطاق الفرار. فخلت مائة سنة.
ثم ابتعث الله لعمارتها الأفارقة. فدخل إليها قوم منهم أجلاهم ملك إفريقية لقحط توالى
على بلاده حتى كاد يفنى أهلها. فحملهم في السفن مع أمير من عنده. فأرسوا بجزية
قادس. فرأوا الأندلس وقد أخصبت بلادها وجرت أنهارها. فسكنوها وعمروها.
ونصبوا لهم ملوكاً ضبطوا أمرهم. وكانت دار مملكتهم طائفة الخراب من أرض إشبيلية،
بنوها وسكنوها. وأقاموا مدة تزيد على مائة وخمسين سنة، ملك منهم فيها أحد عشر
ملكاً.
ثم أرسل الله عليهم عجم رومة، وملكهم إشبان بن طيطش فغزاهم ومزقهم وقتل منهم
وحاصرهم بطالقة، وقد تحصنوا بها، فابتني عليها إشبانية - وهي إشبيلية - واتخذها
دار مملكته. وكثرت جموعه وعتا وتجبر. وغزا بيت المقدس وغنم ما فيه، وقتل منه مائة
ألف، ونقل المرمر منه إلى إشبيلية وغيرها. وغنم منه مائدة سليمان بن داوود عليهما
السلام، وهي التي غنمها طارق لما فتح طليطلة، وغنم قليلة الذهب والحجر الذي لقي
بماردة.
وكان هذا إشبان قد وقف عليه الخضر، هو يحرث الأرض فقال له: يا إشبان، سوف
تحظى وتعلوا وتملك. فإذا ملكت إيليا فارفق بذرية الأنبياء. فقال له: أتسخر بي وكيف
ينال مثلي الملك؟. فقال له: قد جعله فيك من جعل عصاك هذه كما ترى فنظر إليها،
فإذا هي قد أورقت. فارتاع وذهب عنه الخضر وقد وثق بقوله. فداخل الناس وارتقى
حتى ملك ملكاً عظيماً. وكان ملكه عشرين سنة ودام ملك الإشبانية إلى أن ملك منهم
خمسة وخمسون ملكاً.

ثم دخل عليها من عجم رومة أمة يدعون البشتولقات، وملكهم طلوبش بن بيطة، وذلك
حين بعث الله المسيح عليه السلام. فغلبوا عليها، واستولوا على ملكها، وقتلوا ملكها.
وملك منهم سبعة وعشرون ملكاً. وكانت مدينة ماردة دار ملكهم.
ثم دخلت عليهم أمة القوط مع ملك لهم. فغلبوا على الأندلس واقتطعوها من صاحب
رومة. وكان ظهورهم من ناحية أنطالية شرق الأندلس، فأغارت على بلاد مجدونية من
تلك الناحية في أيام قليوديوس قيصر، ثالث القياصرة. فخرج إليهم وهزمهم وقتل فيهم. ولم
يظهروا بعدها إلى أيام قسطنطين الأكبر. وأعادوا الغارة. فسير إليهم جيشاً فلم يثبتوا له.
وانقطع خبرهم إلى دولة ثالث ملك بعد قسطنيطين، فقدموا على أنفسهم أميراً اسمه لذريق،
وكان يعبد الأوثان. فسار إلى رومة ليحمل النصارى على السجود لأوثانه وظهر منه سوء
سيرة، فتخاذل أصحابه عنه ومالوا إلى أخيه وحاربوه. فاستعان بصاحب رومة. فبعث
إليه جيشاً فهزم أخاه ودان بدين النصارى. وكانت ولايته ثلاث عشرة سنة. ثم ولي بعده
أقريط، وبعده أمريق وبعده وغديش. وكانوا قد عادوا إلى عبادة الأوثان. فجمع من
أصحابه مائة ألف وسار إلى رومة. فسير إليه ملك الروم جيشاً فهزموه وقتلوه. ثم ملك
بعده الريق.
ثم تداولها عدة ملوك ذكرهم ابن الأثير: منهم من عبد الأوثان ومنهم من دان بدين
النصرانية، إلى أن انتهى الملك إلى غيطشة، وكانت ولايته سنة سبع وسبعين للهجرة. ثم
توفي وخلف ولدين. فلم يرض بهما أهل الأندلس ورضوا برجل يقال له رذريق، وكان
شجاعاً وليس من بيت الملك.
وكانت عادة ملوك الأندلس أنهم يبعثون أولادهم الذكور والإناث إلى مدينة طليطلة يكونون
في خدمة الملك لا يخدمه غيرهم، يتأدبون بذلك. فإذا بلغوا الحلم أنكح بعضهم بعضاً وتولى
تجهيزهم. فلما ولي رذريق، أرسل إليه يليان - وهو صاحب الجزيرة الخضراء وسبتة
وغيرهما - ابنته فاستحسنها رذريق فاقتضها. فكتبت إلى أبيها بذلك. فأغضبه فكتب

إلى موسى بن نصير عامل إفريقية بالسمع والطاعة. واستدعاه فسار إليه. فأدخله يليان
مدائنه. وأخذ عليه العهود له ولأصحابه بما يرضى به. ثم وصف له الأندلس ودعاه إليها،
وذلك في آخر سنة تسعين. فكتب موسى إلى الوليد بذلك، واستأذنه في غزوها. فأذن له
إذا لم يكن الوصول إلهاً في بحر متسع.
فبعث موسى مولى من مواليه، يقال له طريف، في أربعمائة رجل ومعهم مائة فارس.
فساروا في أربع سفن. فخرجوا في جزيرة بالأندلس فسميت جزيرة طريف. ثم أغار على
الجزيرة الخضراء فأصاب غنائم كثيرة ورجع سالماً، في شهر رمضان سنة إحدى وتسعين.
فلما رأى الناس ذلك، تسرعوا إلى الغزو.
ثم إن موسى دعا مولاه طارق بن زياد، وكان على مقدمات جيوشه، فبعثه في سبعة
آلاف من المسلمين أكثرهم البربر والموالي وأقلهم العرب. فساروا في البحر. وقصدوا جبلاً
منيفاً في البحر، وهو متصل بالبر. فنزله فسمّى الجبل جبل طارق. ولما ملك عبد المؤمن
البلاد أمر ببناء مدينة على هذا الجبل وسماه جبل الفتح، فلم يثبت له هذا الاسم، وجرت
الألسن على الاسم الأول. وكان حلول طارق به في شهر رجب سنة اثنتين وتسعين.
قال: ولما ركب طارق البحر غلبته عينه، فرأى النبي صلى الله عليه وسلم ومعه
المهاجرون والأنصار وقد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسى. فقال النبي صلى الله عليه
وسلم له: يا طارق تقدم لشأنك. وأمره بالرفق بالمسلمين والوفاء بالعهد. ونظر طارق فرأى
النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد دخلوا الأندلس أمامه. فاستيقظ من نومه، وبشر
أصحابه، وقويت نفسه، وأيقن بالظفر.
فلما تكامل أصحاب طارق بالجبل نزل إلى الصحراء، وفتح الجزيرة الخضراء فأصاب بها
عجوزاً. فقالت له: إنّي كان لي زوج، وكان عالماً بالحوادث، وكان يحدثهم عن أمير يدخل
بلدهم ويغلب عليه، ووصف من صفته أنه صخم الهامة وأن في كتفه الأيسر شامة عليها
شعر. فكشف طارق ثوبه فإذا الشامة كما ذكرت فاستبشر.
قال: ولما فتح الجزيرة الخضراء وفارق الحصن الذي في الجبل، بلغ رذريق خبره. فأعظم

ذلك، وكان غائباً في غزاة فرجع منها، وقد دخل طارق بلاده. فجمع له جمعاً يقال بلغ مائة
ألف. فكتب طارق إلى موسى يستمده ويخبره بما فتح. فأمده بخمسة آلاف، فتكامل
المسلمون اثني عشر ألفاً، ومعهم يليان يدلّهم على عورة البلاد ويتجسس لهم الأخبار.
وأتاهم رذريق في جنده فالتقوا على نهر بكّة من أعمال شذونة لليلتين بقيتا من شهر
رمضان سنة اثنتين وتسعين. واتصلت الحرب بينهم ثمانية أيام. وكان على ميمنة رذريق
وميسرته ولدا الملك الذي كان قبله وغيرهما من أبناء الملوك. فاتفقوا على الهزيمة بغضاً
لرذريق وقالوا: إنّ المسلمين إذا امتلأت أيديهم من الغنيمة عادوا إلى بلادهم وبقي الملك
لنا. فانهزموا. وهزم الله رذريق ومن معه وغرق في النهر.
وسار طارق إلى مدينة إستجة في اتباعهم. فلقيه أهلا ومعهم من المنهزمين خلق كثير.
فقاتلوه قتالاً شديداً ثم انهزم أهل الأندلس. ونزل طارق على عين بينها وبين مدينة إستجة
أربعة أميال فسميت عين طارق.
قال: ولما سمع القوط بهاتين الخزيمتين، قذف الله في قلوبهم الرعب، وهربوا إلى طليطلة،
وأخلوا مدائن من الأندلس فقال له يليان: قد فرغت من الأندلس، ففرّق جيوشك، وسر
أنت إلى طليطلة. ففرق جيوشه من مدينة إستجة: فبعث جيشاً إلى قرطبة، وجيشاً إلى
أغرناطة، وجيشاً إلى مالقة، وجيشاً إلى تدمير.
وسار هو ومعظم الجيش إلى طليلطة. فلما بلغها وجدها خالية وقد لحق من بها بمدينة
خلف الجبل يقال لها ماية. قال: وفتح سائر الجيوش الذين بعثهم ما قصدوه من البلاد. قال:
ولما رأى طارق طليلطلة خالية، ضم إليها اليهود وترك معهم رجالاً من أصحابه.
وسار هو إلى وادي الحجارة. وقطع الجبل من فج فيه فسمّى بفج طارق. وانتهى إلى
مدينة خلف الجبل تسمى مدينة المائدة، وفيها مائدة سليمان بن داوود عليهما السلام،
وهي من زبر جدة خضراء، حافاتها وأرجلها منها مكللة باللؤلؤ والمرجان والياقوت وغير
ذلك، وكان لها ثلاثمائة وستون رجلاً.
ثم مضى إلى مدينة ماية فغنم منها. ورجع إلى طليلطة في سنة ثلاث وتسعين. وقيل: إنه

اقتحم أرض جلّيقية فاخترقها حتى انتهى إلى مدينة استرقة، وانصرف إلى طليطلة. ووافته
جيوشه التي وجهها من إستجة بعد فراغهم من فتح تلك المدائن التي سيرهم إليها.
ودخل موسى بن نصير الأندلس في شهر رمضان سنة ثلاث وتسعين في جمع كثير، وقد
بلغه ما صنع طارق فحسده. فلما نزل الجزيرة الخضراء قيل له: تسلك طريق طارق؟
فأبى. فقال له الأدلاء: نحن ندلّك على طرق أشرف من طريقه ومدائن لم تفتح بعد. ووعده
يليان بفتح عظيم، فسر بذلك. فساروا به إلى مدينة ابن السليم فافتتحها عنوة. ثم سار
إلى مدينة قرمونة، وهي أحصن مدن الأندلس. فتقدم إليها يليان وخاصته على حال
المنهزمين فأدخلوهم مدينتهم. وأرسل موسى إليهم الخيل ففتحوها لهم ليلاً. فدخلها
المسلمون وملكوها. ثم سار موسى إلى إشبيلية، وهي من أعظم مدائن الأندلس بنياناً
وأغربها آثاراً فحصرها أشهراً وفتحها، وهرب من بها. فأنزلها موسى اليهود. وسار إلى
مدينة ماردة فحصرها، وقد كان أهلها خرجوا إليه فقاتلوه قتالاً شديداً. فكمن لهم موسى
ليلاً في مقاطع الصخر، فلم يرهم الكفار. فلما أصبحوا زحف إليهم. فخرجوا إلى
المسلمين على عادتهم. فخرج عليهم الكمين، وأحدقوا بهم، وحالوا بينهم وبين البلد،
وقتلوهم قتلاً ذريعاً. ونجا من سلم منهم فدخل المدينة، وكانت حصينة. فحصرهم بها
أشهراً. وزحف إليهم بدبابة عملها ونقبوا سورها. فخرج أهلها على المسلمين فقتلوهم
عند البرج فسمّى برج الشهداء. ثم افتتحها آخر شهر رمضان سنة أربع وتسعين صلحاً،
على أن جميع أموال القتلى يوم الكمين وأموال الهاربين إلى جليلقية وأموال الكنائس وحليها
للمسلمين.
ثم إن أهل إشبيلية اجتمعوا وقصدوها، فقتلوا من بها من المسلمين. فسير موسى إليها
ابنه عبد العزيز بجيش فحصرها وقتل من بها من أهلها.
وسار عنها إلى لبلة وباجة فملكهما وعاد إلى إشبيليلة.
قال: وسار موسى من مدينة ماردة في شوال يريد طليلطة. فخرج طارق إليه فلقيه. فلما

أبصره نزل إليه، فضربه موسى بالسوط. على رأسه، ووبخه على ما كان من خلافه. ثم
سار به إلى مدينة طليطلة وطلب منه ما غنم والمائدة. فأتاه بها وقد انتزع رجلاً من
أرجلها. فسأله عنها فقال: لا علم لي بها. كذلك وجدتها. فعمل عوضها من ذهب.
وسار موسى إلى مدينة سرقسطة ومدائنها فافتتحها.
وأوغل في بلاد الفرنج. فانتهى إلى مفازة كبيرة وأرض سهلة ذات آثار فأصاب فيها صنماً
قائماً، فيه مكتوب: يا بني إسماعيل، إلى ها هنا منتهاكم، فارجعوا. وإن سألتم إلى ماذا
ترجعون، أخبركم أنكم ترجعون إلى الاختلاف فيما بينكم حتى يضرب بعضكم أعناق
بعض، وقد فعلتم. فرجع ووافاه رسول الوليد في أثناء ذلك يأمره بالخروج عن الأندلس
والقفول إليه. فساءه ذلك ومطل الرسول، وهو يقصد بلاد العدو في غير ناحية الصنم، يقتل
ويسبي ويهدم الكنائس ويكسر النواقيس، حتى بلغ صخرة بلاي على البحر الأخضر، وهو
في قوة وظهور. فقدم عليه رسول آخر من الوليد يستحثه، وأخذ بعنان بغلته وأخرجه.
وكان موافاة الرسول له بمدينة لك بجليقية. وخرج على الفج المعروف بفج موسى. ووافاه
طارق من الثغر الأعلى فأقفله معه، ومضيا جميعاً.
واستخلف موسى على الأندلس ابنه عبد العزيز بن موسى. فلما عبر موسى البحر إلى
سبتة عليها وعلى طنجة وما والاهما ابنه عبد الملك. واستخلف على إفريقية وأعمالها
ابنه الكبير عبد الله.
وسار إلى الشام. وحمل الأموال التي غنمت من الأندلس والذخائر والمائدة، ومعه ثلاثون
ألف بكر من بنات ملوك القوط وأعيانهم، ومن نفيس الجوهر والأمتعة ما لا يحصى. فورد
الشام، وقد مات الوليد واستخلف سليمان بن عبد الملك، وكان منحرفاً عن موسى بن
نصير. فعزله عن جميع أعماله وأقصاه وأغرمه غرماً حتى احتاج أن يسأل العرب في
معونته.
وقيل: إنه قدم إلى الشام والوليد حيّ. وكان قد كتب إليه، وادعى أنه هو الذي فتح
الأندلس وأخبره خبر المائدة. فلما حضر عنده عرض عليه ما معه وعرض المائدة، ومعه

طارق. فقال طارق: أنا غنمتها. فكذبه موسى. فقال طارق للوليد: سله عن رجلها
المعدومة. فسأله عنها، فلم يكن عنده منها علم. فأظهرها طارق وذكر أنه أخفاها لهذا
السبب. فعلم الوليد صدق طارق. وإنما فعل هذا لأن موسى كان قد ضربه وحبسه
حتى أرسل الوليد أخرجه وقيل: لم يحبسه.
قالوا: ولما دخلت الروم بلاد الأندلس، كان في مملكتهم بيت إذا ولي ملك منهم أقفل عليه
قفلاً. فلما ملكت القوط فعلوا كفعلهم. فلما ملك رذريق فتح الأقفال فرأى في البيت صور
العرب، عليهم العمائم الحمر على خيول شهب، وفيه كتاب: إذا فتح هذا البيت دخل
هؤلاء القوم هذا البلد. ففتحت الأندلس في تلك السنة.
غزو جزيرة سردانية
قال: ولما فتح موسى بلاد الأندلس سير طائفة من عسكره إلى هذه الجزيرة، وهي في بحر
الروم كثيرة الفواكه. فدخلوها في سنة اثنتين وتسعين. فعمد النصارى إلى ما يملكونه من
آنية الذهب والفضة فألقوا الجميع في الماء. وجعلوا أموالهم في سقف البيعة الكبرى التي
تحت السقف الأول. وغنم المسلمون منها ما لا يحد ولا يوصف، وأكثروا الغلول. واتفق
أن رجلاً من المسلمين اغتسل في الماء فعلق في رجله شيء. فأخرجه، فإذا هو صحفة
من فضة. فأخرج المسلمون جميع ما فيه. ودخل رجل من المسلمين إلى تلك الكنيسة
فنظر إلى حمام. فرماه بسهم فأخطأه ووقع في السقف. فانكسر لوح ونزل منه شيء من
الدنانير. فأخذوا الجميع. وزادوا في الغلول، فكان بعضهم يذبح الهرّ، ويرمي ما في جوفه،
ويملأه دنانير، ويخيط عليها، ويلقيه في الطريق. فإذا خرج أخذه. وكان يضع قائم سيفه
على الجفن ويملأه ذهباً. فلما ركبوا في البحر سمعوا قائلاً يقول: اللهم غرّقهم. فغرقوا عن
آخرهم.
ولاية محمد بن يزيد
مولى قريش ومقتل عبد العزيز بن موسى بن نصير
قال: ثم استعمل سليمان بن عبد الملك محمد بن يزيد، مولى قريش. وقال له عند ولايته: يا
محمد، اتق الله وحده لا شريك له، وقم فيما وليتك بالحق والعدل. اللهم اشهد. فخرج

محمد وهو يقول: مالي عذر إن أعدل. وكانت ولايته في سنة تسع وتسعين. فولي سنتين
وشهوراً. وكتب إليه سليمان يأمره أن يأخذ آل موسى ابن نصير وكل من انتسب إليه حتى
يقوموا بما بقي عليه وهو ثلاثمائة ألف دينار ولا يرفع عنهم العذاب. فقبض على عبد الله
والي القيروان فحبسه في السجن. ثم وصل البريد من قبل سليمان يأمر بضرب عنقه.
وأما عبد العزيز فإنه لما استخلفه أبوه موسى على الأندلس سد ثغورها، وضبط بلادها،
وافتتح مدائن كانت بقيت بعد أبيه، وكان خيراً فاضلاً. فتزوج امرأة الملك لذريق.
فحظيت عنده، وغلبت على رأيه. فحملته على أن يأخذ أصحابه بالسجود له إذا دخلوا
عليه كما كان يفعل بزوجها. فقال: إن ذلك ليس من ديننا. فلم تزل به حتى أمر بفتح باب
قصير لمجلسه الذي كان يجلس فيه. فكان أحدهم إذا دخل عليه من الباب طأطأ رأسه
فيصير كالراكع. فرضيت ببذلك وقالت: الآن لحقت بالملوك. وبقي أن أعمل لك تاجاً مما
عندي من الذهب واللؤلؤ. فأبى. فلم تزل به حتى فعل. فانكشف للمسلمين، فقالوا:
تنصر. وفطنوا للباب. فثارثوا عليه، فقتلوه في آخر سنة تسع وتسعين في آخر خلافة
سليمان بن عبد الملك. ثم مكثوا بعد ذلك سنة لا يجمعهم إمام.
وحكى الواقدي قال: لما بلغ عبد العزيز بن موسى ما نزل بأبيه وأخيه وأهل بيته، خلع
الطاعة وخالف. فأرسل إليه سليمان رسولاً، فلم يرجع. فكتب سليمان إلى حبيب بن
أبي عبيدة بن عقبة بن نافع ووجوه العرب سرّاً بقتله. فلما خرج عبد العزيز إلى صلاة
الصبح، قرأ فاتحة الكتاب ثم قرأ الحاقة. فقال له حبيب: حقت عليك يا ابن الفاعلة.
وعلاه بالسيف فقتله فحمل رأس عبد الله ورأس عبد العزيز ابني موسى حتى وضعا بين
يدي أبيهما، وعذّب حتى مات.
وأضيفت ولاية الأندلس إلى إفريقية. فاستعمل عليها محمد الحر بن عبد الرحمن القيسي.
ولم يزل محمد بإفريقية إلى أن مات سليمان وولى عمر بن عبد العزيز، فعزله واستعمل
إسماعيل بن عبد الله.
ولاية اسماعيل بن عبد الله

ابن أبي المهاجر مولى بني مخزوم
قال: ولما ولي عمر بن عبد العزيز الخلافة استعمل إسماعيل على إفريقية، وكان خيروال.
فدعا إسماعيل من بقي من البربر إلى دين الإسلام. فأسلموا وغلب الإسلام على المغرب
جميعه. ودامت ولايته إلى سنة إحدى ومائة، إلى أن توفى عمر بن عبد العزيز وولي يزيد
بن عبد الملك، فاستعمل على إفريقية يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج فقدمها في سنة اثنتين
ومائة وقتل. وقد ذكرنا سبب مقتله في أخبار يزيد بن عبد الملك.
ثم ولي بعده بشر بن صفوان الكلبي، فقدمها في سنة ثلاث ومائة. فلما قدم استعمل على
الأندلس عنبسة الكلبي وعزل الحر بن عبد الرحمن القيسي. ثم غزا بشر جزيرة صقلية
بنفسه فأصاب سبباً كثيراً. ثم رجع من غزوته فتوفى بالقيروان في سنة تسع ومائة في
خلافة هشام بن عبد الملك.
عبيدة بن عبد الرحمن السلمي
فلما اتصلت وفاته بهشام استعمل على إفريقية: عبيدة بن عبد الرحمن السّلمي وهو ابن
أخي أبي الأعور السّلمي، صاحب خيل معاوية. فأخذ عمال بشر بن صفوان فحبسهم
وأغرمهم وتحامل عليهم وعذب بعضهم. وكان فيهم أبو الخطّار بن ضرار الكلبي، وكان
قائداً جليلاً، فقال:
أفأتم بني - مروان - قيسا دماءنا وفي الله إن لم يعدلوا حكم عدل
كأنكم لم تشهدوا لي وقعة ولم تعلموا من كان قبل له الفضل
وقيناكم حرّ القنا بصدورنا وليس لكم خيل سوانا ولا رجل
فلما بلغتم نيل ما قد أردتم وطاب لكم فينا المشارب والأكل
تغافلتم عنا كأن لم تكن لكم صديقا وأنتم ما علمتم لنا وصل
وبعث بها إلى هشام. فلما قرئت عليه غضب وأمر بعزل عبيدة. فقفل عنها، واستخلف
على إفريقية عقبة بن قدامة التّجيبي، وترك بها عبد الله بن المغيرة بن بردة القرشي قاضياً،
وذلك في شوال سنة أربع عشرة ومائة.
عبيد الله بن الحبحاب
مولى بني سلول

ثم استعمل هشام عبيد الله بن الحبحاب مولى بني سلول، وكان رئيساً كاتباً بليغاً، حافظاً
لأيام العرب وأشعارها ووقائعها. وهو الذي بنى الجامع ودار الصناعة بمدينة تونس. وكانت
ولايته في شهر بيع الأول سنة ست عشرة ومائة.
فاستعمل على طنجة وما والاها عمر بن عبد الله المرادي. فأساء السيرة وتعدى في
الصدقات والقسم. وأراد أن يخمس البربر وزعم أنهم فيء للمسلمين، وذلك ما لم يرتكبه
عامل قبله. وإنما كانت الولاة يخمسون من لم يجب منهم إلى الإسلام. فانتقضت البربر
بطنجة على عبيد الله وتداعت عليه بأسرها، وذلك في سنة اثنتين وعشرين ومائة. وهي
أول فتنة كانت بإفريقية في الإسلام.
وخرج ميسرة المدغري وقتل عمر المرادي. وظهر بالمغرب في ذلك الوقت قوم جرت منهم
دعوة الخوارج، وصار منهم عدد كبير وشوكة قوية. قال: فبعث عبيد الله الجيوش من
أشراف العرب لقتال المدغري، وجعل عليهم خالد بن أبي حبيب الفهري. وأردفه بحبيب
بن أبي عبيدة. فسار خالد حتى أتى ميسرة دون طنجة. فالتقوا واقتتلوا قتالاً لم يسمع
بمثله. ثم انصرف ميسرة إلى طنجة. فأنكرت عليه البربر سوء سيرته، وتغيروا عما كانوا